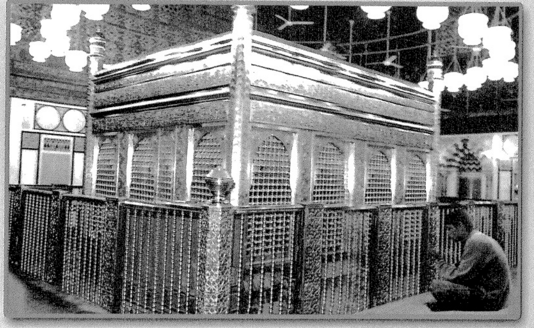
محمد الباز

لماذا حاول المصريون سرقة جسد الرسول ﷺ ؟
هل مات النبي محمد ﷺ بالزائدة الدودية ؟
هل يدخل قتلة الحسين الجنة ؟

الإسلام المصرى



هل من حق المرأة أن تصلى وتصوم وهى حائض ؟
لماذا ترفض المسيحية تعدد الزوجات وملك اليمين ؟



الإسلام المصرى

محمد الباز

اسم الكتاب : الإسلام المصرى

المؤلف : محمد الباز

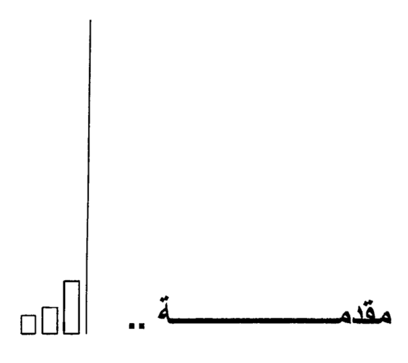
الناشر : كنوز للنشر والتوزيع

٣٧ ش قصر النيل   ت: ٠١٠٥٣٣٤٤٥٨

الإشراف العام : ياسر رمضان

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٣٥١١
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977-04-9734-7

الطبعة الأولى : ٢٠٠٥



مقدمـــــــــــة ..

مدخل .. مصر ساعة صلاة الجمعة

فى مصر كل شىء مباح .. الحلال والحرام .. الأدب وقلة الأدب .. العيب وقلة الحياء .. الزواج والرفق .. الحب والكراهية .. الالتزام والفجور .. حلقات الذكر وصالات القمار .. الأفراح الإسلامية وبقايا غوازى شارع محمد على .. جلسات المنقبات وبيوت الدعارة .. شباب الجماعات الإسلامية وشباب الـ **drugs house** .. مقاهى تسهر حتى الصباح ومساجد تغلق أبوابها بعد كل صلاة .. ألسنة مروية بذكر الله وأفواه لا تكف عن سب الدين ولعن حامليه .. صحف دينية وصحف تعيش على الفضائح .. شيوخ فضلاء حقيقيون وشيوخ فاسدون بلا ضمير .. محجبات وعاريات ..

حالة من الهدوء والانسجام تضم الجميع بين جناحيها تحت مظلة واحدة اسمها الإسلام المصرى، قد يكون الاسم غريباً وقد يؤرقك سؤال : وهل هناك إسلام مصرى وآخر سعودى؟ هل هناك إسلام شرقى وإسلام غربى ، إسلام يتعاطاه أبناء المغرب وآخر يعيش عليه الشوام؟ الإجابة إذا سمحتم لى ستكون: بنعم ... فعلى الأقل هناك إسلام مصرى أعيشه وأحس به، أضع يدى على ملامحه ولا تتوه من بين يدى صفاته

إن الإسلام الذى دخل مصر محمولاً على حراب جنود عمرو بن العاص وعاش فيها قروناً طويلة تم استيعابه وهضمه جيداً .. ليخرج بعد ذلك إسلاماً خاصاً بنا تمت صياغته بروح مصرية خالصة .. لدرجة أن عمرو بن العاص لو بعث من جديد الآن وتجول فى شوارع مصر سيجد ممارسات الناس لدينهم غريبة .. لم يعهدهم عليها لا فى ولايته أيام عمر بن الخطاب ﷺ ولا أيام عودته إليها مكافأة له على مساندته لمعاوية بن أبى سفيان فى خلافه الكبير مع على بن أبى طالب ﷺ .

سيجد عمرو بن العاص مصرياً يعيش على هواه .. يصيغ الأشياء بمزاجه الخاص ثم يمارسها كما يتراءى له ، فنحن شعب نذنب ونرتكب المعاصى .. ونحن أكثر شعب كذلك نستغفر الله ونطلب منه المغفرة .. ولأننا نشك فى صدق نوايانا كثيراً فإننا نستعين بجاه الرسول وكرامات الأولياء الصالحين نسوقها فى طريقنا ونحن نرفع أكف الضراعة طالبين العفو والسماح .

جمعنى لقاء مع أحد علماء الإسلام .. شيخ أزهرى معمم كنت أثق فيه .. سأله أحدهم عن أدب زيارة ضريح سيدنا الحسين .. فقال له: إن سيدنا الحسين يدخل فى عداد الأموات .. فعندما تدخل ضريحه تسلم عليه .. السلام عليكم يا أمة لا إله إلا الله .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون .. ثم تعطى ظهرك لقبره وتقرأ له الفاتحة وتطلب من الله أن يشمله برحمته .. صدم السائل .. ظهرت علي وجهه علامات الخيبة ورد على الشيخ قائلاً : يا شيخ قول كلام غير ده .. بقى أنا أطلب الرحمة لسيدنا الحسين ابن بنت سيدنا النبى ﷺ .. ده أنا بتمنى إن ربنا يجعلنى من مريديه ويعطينى بعضاً من بركاته .

رغم طرافة الموقف إلا أنه يعبر بشدة عن الناس فى مصر عندما يدخلون إلى مساحة الدين .. فهم يسألون بلا حساب عن أى شىء وكل شىء .. صفحات الفتاوى فى الصحف العامة والمتخصصة بها آلاف الأسئلة التى قد يعتبرها البعض تافهة .. فى كل مرة يصدر الشيخ الذى يرتدى عباءة المفتى حكم الإسلام وفى كل مرة يعود الناس ويسألون عن نفس الشىء ليسمعوا نفس الحكم من جديد .. وقد تعتقد أن السائل لم يقتنع بالحكم الذى سمعه من الشيخ وهو إعتقاد غير صحيح .. فالسائل يريد أن يعطى نفسه الفرصة لأن يخطىء .. يقع فى نفس الذنب أكثر من مرة ولذلك يطلب الحكم فيه أكثر من مرة وكأنه يريد أن يقول أنه نسى أو كانت تنقصه المعلومات أو أنه نوع من الدلال على الله .

قد تعتبر الكلمة الأخيرة مفزعة بعض الشىء أو معظمه ؟؟ فما معنى الدلال على الله ؟ وهل يقوم المصريون بذلك فعلاً ! إن قليلاً من تأمل حياتنا وسلوكياتنا وحوارتنا سيؤكد لنا أن هناك مساحة كبيرة للغاية من الدلع على الله .. فنحن نذنب بلا حساب ونطمع فيه فى كل مرة أن يعفو ويصفح .. بل أن بعض من يذنبون فى حق الله يطلبون من الله أن يسترهم وهم يذنبون .. فهل بعد ذلك دلال .. النصاب يقرأ الفاتحة قبل أن يمارس هوايته .. واللص قبل أن يتسلق بيتاً يقول قاصداً ربه: يا مسهل .. حتى الذين يعاكسون فى الشارع تراهم يستعينون بالله لمباركة ما يفعلون ! ! ! فتبارك الله فيما خلق .

فكرة الدلال هذه أجادها المصريون لأنهم نسجوا علاقة خاصة بينهم وبين الله .. يتعاملون معه فى كثير منَ الأحيان كصديق مقرب إليهم بشدة .. لا يخافون منه .. حتى الذين يرهبونهم باسم الله ينفرون منهم ويعتبرونهم متطرفين ومتشددين ، ويريدون أن يقلبوا

الحياة إلى جحيم .. لا يصدقونهم فالله عندهم أعظم وأكبر مما يصورون .. وحتى عندما يتعاملون مع صفات الله وأسمائه الجبار والقهار .. يتعاملون معها على أنها خاصة بالظالمين والمتكبرين والمغرورين فى الأرض أما وهم الضعفاء .. فالله عندهم الرحمن الرحيم الوهاب الرزاق الذى وسعت رحمته كل شيء .

من بين خيوط علاقة المصريين بربهم وإسلامهم نسجت أفكار هذا الكتاب فى موضوعات متفرقة .. لكنها ترسم فى النهاية صورة من صور الإسلام المصرى .. لا أريد أن أفرض طريقة معينة لقراءة الكتاب .. لكننى فقط أقف بكم على مشهد واحد من مشاهد الحياة المصرية .. وهو مشهد مصر ساعة صلاة الجمعة .

يستعد المصريون استعداداً خاصاً ليوم الجمعة .. فصلاته شعيرة عظمى يؤدونها بطقوس خاصة جداً .. لدرجة أن هناك الآلاف الذين لا يصلون ولا يدخلون المساجد إلا لصلاة الجمعة فقط وترى لهؤلاء منطقاً طريفاً وهو من الجمعة للجمعة مكفرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر .. وما داموا يجتنبون الكبائر فمؤكد أن الله سيغفر لهم ذنوبهم الصغيرة .. فى لحظة الصلاة تجد المساجد وقد ملئت عن آخرها بالمصلين .. لكن الحياة لا تتوقف .. المواصلات العامة تعمل .. المقاهى لا تخلو من روادها .. الشوارع تواصل حوارها مع المارين فيها .. المحلات تستقبل المتعاملين معها .. الحياة تسير بشكل عادى جداً .. لا أحد يغضب من الآخر .. فكل واحد فى حاله .. الجميع يعيش فى سلام براحته وعلى راحته .. هذا التوافق يعبر عن المصريين الذين يحبون ربهم ولا يخافون منه .. يصلى فيهم من يصلى ويعبث فيهم من يعبث .. لكنهم يعتقدون أنهم فى النهاية فى كف الله التى لا تبخل عليهم مطلقاً .

عن هؤلاء وإلى هؤلاء أتحدث ....

محمد الباز

البكاء ....

بين يدى الرسول الأعظم

البكاء بين يدى الرسول الأعظم

يحب المصريون الرسول ﷺ على طريقتهم الخاصة، يكلمونه طالبين منه المدد عندما يشعرون بحصار الدنيا يكاد يخنقهم، ويستمعون إليه عندما ترهقهم دموع الحسرة على حياتهم التى يسرقها من يحكمون وينهبها الفاسدون، يأخذون من كلماته دواء لأوجاعهم وشفاء لأسقامهم.. لا يتحرجون من استحضار روح النبى حتى وهم عصاة.. فلا فرق بين جلسة إيمانية تحفها الملائكة وجلسة ماجنة تحرسها الشياطين.. الجميع يطلبون الصلاة عليه.. فتجدهم يرددون باطمئنان مدهش ألف صلاة وسلام عليك يا نبى.

قضى الرسول ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً لم يذق فيها طعم النوم من أجل راحة البشرية وسعادتها، أخذ بأيدى الناس من ظلمات الجهل وغيمات الجهالة ليضع أقدامهم على طريق الحضارة والرقى والإنسانية الحقيقية، وكم كان رائعا عندما وضع تشريعاته تناسب روح عصره وتتجاوب معها.. لم يكلف نفسا إلا وسعها ولم يكشف لقومه من أسرار الكون ما تعجز عقولهم عن تحمله.. لكنه حنا عليهم وربت على أكتافهم.. ولما عاندوه أخذهم بالرحمة.. عذبوه فدعا لهم بالخير.. عصوه فصبر عليهم حتى يعودوا إلى جادة الطريق.. وحتى يطمئنوا تلا عليهم آيات الله المقدسة التى تعتب عليه وتلومه وتطالبه بأن يتقى الله.. فهو بشر مثلهم يوحى إليه إنما إلهكم إله واحد.

هذه الروح التى بذر الرسول ﷺ بذورها.. وسهر عليها حتى نمت، خنقها المسلمون بأيديهم. عادوا مرة أخرى إلى جهالة أعتى من الظلام الذى أخرج الرسول آباءهم منه.. حولوا آيات القرآن وأحاديثه إلى نصوص جامدة لا تتعايش مع العصر بل تتصادم معه.. لا تضمن السعادة لمن يعمل بها.. بل ترهقهم وتحولهم إلى عصاة.. يعانون من عقدة الذنب التى يحاصرهم بها سدنة النصوص الذين أرسوا قواعد الكهانة فى دين الله.. رغم أنه لا رهبانية فى الإسلام.. ولا كهنوت مع تعاليم الرسول الأعظم..

كنت معجبا.. ولا زلت.. بما قاله الكاتب الإنجليزى برناردشو.. من أنه «لو كان محمد بن عبد الله موجودا فى هذا العالم لحل مشاكله التى لا تحصى وهو يحتسى فنجانا من القهوة» لم يبالغ الكاتب الانجليزى فيما قاله، فلو عاش الرسول ﷺ بيننا الآن لانتهت

مشاكلنا جميعا.. لكن ولأن زمن الأنبياء انتهى.. وجاء محمد ﷺ ليضع كلمة النهاية خلف طابور الأنبياء الطويل.. فإن الرسول لن يعود.. لن يعيش بيننا– ودعونى أقول إننا لا نحتاج إليه.. فلدينا آياته التى خصته السماء بها.. وأحاديثه التى وصف بها الحياة.. وردود فعله على ما قاله صحابته الكرام.. لدينا سيرته العطرة وأيامه التى كانت فاصلة بين عصرين.. أحدهما رفع الجهالة شعارا.. وثانيهما جعل العلم له هاديا ونبراسا وسراجا منيرا.

لكن أى آيات وأحاديث وأيام نتحدث عنها.. إن الرسول ﷺ لو عاش بيننا الآن لوضع تشريعا جديدا يلائم حياتنا المعقدة، لم يكن ليظل على ما قاله وقرره وشرعه لقومه وأصحابه.. كان سيرفع من شأن روح النصوص التى بين أيدينا كان سيقول لنا لا تتركوا آيات الله تقيدكم.. بل اجعلوا منها هاديا يرشدكم إلى ما يرضى الله ورسوله.. ويحقق لكم السعادة.. كان الرسول ﷺ سيرفع عنا قناع التدين الزائف الذى نرفعه جميعا.. لا فرق فى ذلك بين راقصة تقول إنها تعلم أن الرقص حرام لكن ربنا رب قلوب.. وبين داعية يظل يرهب الناس ويخوفهم من النار.. أو يخدع الشباب ويغرر بهم ويعدهم ويمنيهم.. وهم لا يجدون ما ينفقونه أو يقيم حياتهم بالشكل الذى يرضاه رب العالمين.

كان الرسول ﷺ سينهى حالة النفاق الجماعى التى نعيشها.. فنحن نرتكب الذنوب.. ننتهك حدود الله.. نهدر أوامره.. نسرق.. ننهب.. نضحك على عباد الله الفقراء.. ثم نقول ما أجملنا.. نحن على الطريق نسير.. رغم أننا أبعد ما نكون عن جادة الطريق.. لقد عفا الرسول ﷺ عن العبد وحشى قاتل عمه حمزة، لكن شيخ الآزهر الذى يعتبره البعض رمزا للاسلام يطارد معارضيه لأنهم خالفوه الرأى.. يصر على عقابهم وفصلهم من جامعة الأزهر.. بل ومطاردتهم بالانتربول الدولى إذا لزم الأمر.

أثنى الرسول الأعظم على معاذ بن جبل ﷺ عندما أرسله لليمن وسأله إذا سألوك شيئا ماذا تفعل فقال له معاذ.. أنظر فى كتاب الله.. فقال له النبى فإن لم تجد فى كتاب الله.. فرد معاذ.. انظر فى سنة رسول الله.. فعاجله الرسول فإن لم تجد.. فقالها معاذ قوية ومنطقية وحاسمة: أجتهد رأيى.. فابتسم الرسول ﷺ.. لأن الله ألهم رسول رسول الله الصواب، لكننا الآن نطارد المجتهدين، ننصب لهم المشانق وندق الخوازيق.. ونفرق بينهم وبين زوجاتهم.. وإذا حاول أحدنا أن يجتهد اجتمع عليه عبدة النصوص وطالبوه بأن يعلن توبته ويعود إلى حظيرة الإسلام رغم أنه لم يخرج منها، بل فعل ما أمر به الرسول وهو أن نعمل العقل الذى هو هبة الله للإنسان.

نهر الرسول ﷺ أبا بكر الصديق وهو أحب الناس إليه لأنه نهى جاريتين عن الغناء في بيت رسول الله.. وقال له دعهما يا أبا بكر.. لكننا نحرم الغناء ونعتبره رجسا من عمل الشيطان فاجتنبوه.. ومن يسمعه فإنه يتعرض لعذاب الله يوم القيامه بأن يصب الرصاص المصهور في أذنيه.. وحاشا لله أن يحدث ذلك فما كان لإله رحيم أن يؤاخذ عباده بلهوهم البرىء.

أكرم الرسول ﷺ المرأة.. وضعها في مكانتها التي تليق بها.. كرمها وعظمها، ورفع شأنها.. استشارها ليس في أموره فقط.. ولكن في أخص شئون الدعوة.. أنفقت السيدة خديجة من مالها الخاص لتقف الدعوة الإسلامية على قدميها، وقامت السيدة عائشة بدور رائد في تثقيف النساء وتوعيتهن ونقل تعاليم الإسلام إليهن.. خرجت المرأة تحارب إلى جوار الرسول.. لم تكتف بالتمريض وتضميد الجرحى كما قالوا لنا.. لكنها حملت السيف وضربت بقوة.. بل إن امرأة هي أم دجانة.. احتضنت الرسول في غزوة أحد.. وتحملت السهام الموجهة اليه.. لتفديه وتحميه.. وتقدم نفسها في سبيل الإسلام.. بعد هذا كله نأتي نحن لنعزل النساء.. نجعل منهن بيوتا للمتعة مرة بالحلال ومرات بالحرام نحاول أن نضرب عليهن حجابا كثيفا.. يمنع عنهن العلم والرحمة، نحاول إعادتهن إلى بيوتهن بقوة، وكأن خروج النساء للعمل والحياة.. هو سبب كل ما نحن فيه من الفساد.. تركنا كل شيء وأمسكنا في تافه الأمور.. وجعلنا صلاح الحال كله في أن ترتدي النساء الحجاب،حولنا نساءنا إلى جواري.. وكلما رفعت امرأة صوتها ترفض ظلمنا.. قلنا لها قال الله وقال الرسول.. مع أن الله لا يقول شيئا يظلم به عباده.. والرسول لا يقر شيئا فيه إهانة لأحد.

وأنا أفتش في كتاب الرسول الأعظم بهرني هذا الموقف المحمدي الراقي: لما نزل الرسول ﷺ المدينة مهاجرا نزل في بيت أبي أيوب في السُفل أي في الدور الأرضي، وأقام أبو أيوب وزوجته في العلو أي في الدور الثاني، قال أبو أيوب للنبي: بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فأظهره أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السُفل فقال له الرسول: يا أبا أيوب ارفق بنا يغشانا أن تكون في سفل البيت، ويكمل أبو أيوب: كنا نضع للرسول ﷺ العشاء ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده؛فأكلنا منه نبتغي البركة،حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلا أو ثوما، فرده الرسول، ولم أر ليده فيه أثرا، فجئته فزعا فقلت: يا رسول الله: رددت عشاءك

ولم أر فيه موضع يدك فقال: إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى فأما أنتم فكلوه.

كان الرسول الكريم يعرف مواضع قدميه.. امتنع عن أكل الثوم والبصل لأنه يناجى ربه يتلقى عنه الوحى، وليس معنى أنه لا يأكل الثوم والبصل أنه يمنع الناس عن أكلهما فهو رسول له ما يميزه.. وما يختص به عن الآخرين.. كان يأخذ نفسه بالشدة لأنه صاحب رسالة.. يستمد العون من السماء.. يواصل الصوم.. وينهى أصحابه عن ذلك لأنه ليس فيهم مثله.. حيث يطعمه الله ويسقيه.. مد لنا الرسول جسور الرحمة لكننا قطعناها.. هذا الموقف الراقى يمكن أن ينصرف لقضايا أخرى كثيرة.. فليس معنى أن الرسول لم يكن يصافح النساء ألا نصافحهن.. فهذه خصيصته وحده.. وليس معنى أن نساءه لا يتزوجن بعده.. ألا تتزوج المرأة بعد زوجها.. فهن أمهات المؤمنين.. وليس معنى أن الحجاب فرض على نساء النبى أنه مفروض على جميع المسلمات.. فهذه أمور جعلت كلها للرسول الأعظم.. وقد طبقها فى شأن الطعام.. ويمكن أن نطبقها نحن فى كافة شئوننا.

إن الذين يدعون حب النبى ووصلا به يجب أن يعكفوا على النصوص ليخرجوا لنا إسلاما عصريا يلتحم مع حياتنا ولا يخاصمها.. فهذا أكبر دليل على حبهم له.. إن القرآن الذى ينصحنا بأن ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.. يلزمنا أن نفكر فى مغزى الآية فيجب أن نأخذ منطق الرسول قبل أن نأخذ نصوصه.. ونأخذ روحه قبل أن تقيدنا الحروف والكلمات..

إننى دائم الحلم بأن أقف بين يدى رسول الله.. أشكو له مما حل بأمته وحاق بها.. لن يرضى الرسول الأعظم بالتأكيد عما يحدث.. لكنه لم يعد يملك شيئا.. لقد وضع أمامنا كل ما نريد ونحتاج ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ لكنه لم يمنعنا أن ننظر فى شئون دنيانا.. وما يخص ديننا، لقد تفرقت بنا السبل يا رسول الله.. وحرمنا من أنوار روحك الكهنة أولئك الذين يحاولون خداعنا بأنهم جند الله.. وما هم من جنده فى شىء.

أوراق ....
من ملف الرسول الصحى

أوراق من ملف الرسول الصحى

يستقر فى وجدان المصريين على اختلاف درجات إيمانهم شعور بأن الرسول ﷺ كان ينبغى أن يهبط فى أرض مصر، لا يعلنون عن ذلك صراحة، لكنهم يترنمون به ويعكسونه فى ثقافتهم وسلوكهم وجلساتهم ومنتديات سمرهم، وحتى فى أغانيهم التى بين أيديهم.. فهو رفيقنا فى أحزاننا وأفراحنا، فى انتصاراتنا وانكساراتنا، فى ضعفنا الدائم ولحظات قوتنا النادرة.

نخطىء أحيانا فنجعله فى مرتبة الله ونسبغ عليه من الصفات وننسب إليه من الأفعال ما نتجاوز به حدودنا، وتزل أقدامنا أحياناً أخرى فنتعامل معه كبشر له نزوات وربما أخطاء، فى الأولى نضيف إلى تاريخه كل المعجزات التى جرت على أيدى الأنبياء من قبله، وفى الثانية نؤكد أنه كان يحب النساء ويقضى من وقته مالا تطيقه رسالته من عشقهن وقضاء حاجتهن الجنسية منه، لكننا فى الحالتين نحبه ونحلم أن يزورنا طيفه فى أحلامنا حتى ننال الحظوة والبركة.. ونصل به إلى مراتب الصالحين.

هذه الحالة جعلتنا ننظر إلى الرسول ﷺ كبطل من أبطال الأساطير أو «سوبر مان» لا يمرض أبداً، لقد أشار عدد من كتاب السيرة النبوية إلى أن الرسول ﷺ أوتى من قوة البدن ما لم يؤت غيره من البشر، وهى إشارة تجعلنا نتردد فى أن نتطلع إلى الحالة الصحية للرسول.. ويساعد على ذلك ما ردده بعض الفقهاء من أن الرسول كان إذا قام فى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه، وقد صدق على ذلك الإمام مالك فى موطأه عندما قال: إن الرسول قال: إنى لأراكم من وراء ظهرى. وفى بعض الروايات: إنى لأنظر من ورائى كما أنظر إلى من بين يدى. وفى رواية أخرى إنى لأبصر من قفاى كما أبصر من بين يدى.

لم يكن الإمام مالك وحده هو الذى تحدث عن قوة حواس الرسول ﷺ، لكن ها هى السيدة عائشة تقول: كان النبى يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء. ولعل فى ذلك محاولة لجعل النبى على درجة واحدة مع سيدنا موسى عليه السلام، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا فى الليلة الظلماء من عشرة فراسخ. وإذا كان موسى قد أوتى هذه القوة بعد أن تجلى له الله على الجبل، فإن الرسول منح هذه القدرة على الرؤية فى الظلام بعد رحلة الإسراء والمعراج التى رأى فيها من المشاهد ما لم يتوافر لنبى

آخر، وهو كلام بمنطق إيمانى غيبى مقبول لا غبار عليه.

هذه الحالة الصحية الجيدة حاول الرواة أن يستفيدوا منها فى أن يعظموا من قوة الرسول ﷺ فى إتيان النساء وفى رأى القاضى عياض أن الرسول كان من أقدر الناس على إتيان النساء، فقد أعطى الكثير من هذه القوة، ولذلك فقد أبيح له من الحرائر ما لم يبح لغيره، وحتى يؤكد القاضى عياض على ما ذهب إليه فهو يستدعى حديث أنس الذى قال فيه: «إنه ﷺ كان يدور على نسائه فى الساعة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة»، ويستشهد بقول طاووس الذى يؤكد أن الرسول أعطى قوة أربعين رجلاً فى الجماع، ويستدعى ما رواه صفوان عن سليم الذى نقل عن سلمى مولاة الرسول أنه طاف على نسائه التسع وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتى الأخرى وقال: هذا أطيب وأطهر.

لقد حاول الرواة أن يبرروا للرسول ﷺ ما ورد فى حديث الطواف على نسائه، فالقاضى عياض يرى أن الحكمة من طواف النبى على أهل بيته فى الليلة الواحدة كانت لتحصينهن، فكأنه أراد به عدم تشوقهن للزواج إذ الاحصان له معان منها الإسلام والحرية والعفة، والذى يظهر أن ذلك إنما كان لإرادة العدل بينهن فى ذلك وإن لم يكن واجبًا، ويعلق ابن حجر العسقلانى على واقعة الطواف بأن نساء النبى يحرم عليهن التزويج بعده، وعاش بعضهن خمسين سنة فما دونها وزادت آخرهن موتا على ذلك وهى أم سلمة التى توفيت عام ٦١ هجرية، وكان يلزم لهن الإحصان.

طواف الرسول على نسائه فى ليلة واحدة، حاول أن يجعل منه البعض خطوة فى التشريع، فالنووى يرى أن النبى كان يحتمل أنه كان يتوضأ بين كل زوجة وأخرى أن يكون المراد بيان جواز ترك الوضوء بمعنى أن الرجل إذا كان متزوجاً من أكثر من امرأة فيمكن أن يأتيهن، هذا إذا أوتى القدرة على ذلك فى ليلة واحدة ويمكن له أن يفصل بين كل منهن بوضوء أو لا يتوضأ كما كان يفعل النبى، وقد جاء فى سنن أبى داود أنه ﷺ طاف على نسائه ذات ليلة يغتسل عند هذه وعند هذه، فقيل يا رسول الله ألا تجعله غسلاً واحداً فقال: «هذا أذكى وأطيب وأطهر». وربما يكون طواف الرسول على نسائه برضاهن أو برضا صاحبة الليلة، ويصدق ذلك ما قالته السيدة عائشة من أنها كانت تطيب رسول الله فيطوف على نسائه ثم يصبح محرماً ينضح طيبا.

هذه الروايات والتأويلات يرفضها جميعاً صالح الوردانى فى كتابه «دفاع عن الرسول ضد الفقهاء والمحدثين» ، فهو يرى فيها فضح وتعرية للرسول، فما قاله الفقهاء والأصحاب لا يعنى

إلا شيئاً واحداً وهو أن الحياة الجنسية للرسول كانت مكشوفة للجميع وسيرته مع نسائه كانت على ألسنة الناس فى المدينة، وهو كلام غير مقبول: كما أنه من غير المقبول فكرة الطواف ذاتها من حيث القدرة ومن حيث الفراغ، فالتسليم بمثل هذه الروايات يعنى أن الشغل الشاغل للرسول كان النساء، وهذا العدد الذى ارتبط به سواءٍ كان تسعاً أو إحدى عشر كافٍ وحده لإضاعة الليل والنهار، فإن طاف عليهن ليلا فلابد أن ينام النهار، وإن طاف عليهن نهاراً فلابد أن ينام الليل، وفى الحالتين فلن يكون لديه وقت لشئون الدعوة والمسلمين ولا حتى لاستقبال الوحى.

كلام الوردانى منطقى للغاية.. فالذين ألصقوا بالرسول هذه الروايات حاولوا أن يضيفوا لبشرتيه ما ليس منها ولا فيها، بل ولا يتناسب مع مهام دعوته التى بذل نفسه وأهله وماله من أجلها. ما لم يلتفت إليه الوردانى فى غمرة دفاعه عن الرسول ﷺ.. أن المسلمين- حتى الفقهاء منهم- كانوا ولا يزالوان يستبعدون أن يمرض النبى.. أو يحاصره الألم.. فهو معصوم حتى من الأمراض والأوجاع.. ولذلك كان طبيعياً أن يرفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصديق خبر وفاة الرسول.. فهو عنده لا يموت.

هذا التصور عند عامة المسلمين لا يمنعنا أن نعرض لجوانب من صحة الرسول النفسية والبدنية، رغم أن كُتّاب السيرة على اختلاف توجهاتهم ومناهجهم لم يلتفتوا إلى تفاصيل مرض الرسول، فلم يرد فى أى كتاب كلام عن الرسول وهو فى حالة مرض اللهم إلا فى توصيف المرض الذى مات فيه، لقد مرت كتابة السيرة النبوية بعدة مراحل، فى الأولى منها كتبها ابن اسحاق والواقدى وموسى بن عقبة وابن سعد، وفى المرحلة الثانية التى عاصرت النصف الثانى من القرن الثالث واستغرقت القرن الرابع الهجرى كتبها الطبرى واليعقوبى وابن هشام. وفى الثالثة أقدم على تدوينها فى القرن الخامس الهجرى أبو عمر يوسف بن عبد البر النميرى والقاضى عياض بن موسى، وفى القرنين السادس والسابع الهجريين كتبها بشروح وتعليق أبو عبد الرحمن السهيلى وأبو ذر الخشنى وأبو الربيع سليمان الكلاعى وابن حجر العسقلانى وأبو الفتح بن سيد الناس والمقريزى والسيوطى، بعد هؤلاء أسهم فى كتابة السيرة فى المرحلة الخامسة المناوى الذى كتب السيرة الجلية وكنوز الحقائق، وبدر الدين بن حبيب الموصلى الذى كتب المنتقى من سيرة المصطفى، والنويرى الذى كتب نهاية الأدب.. ثم فى المرحلة المعاصرة كتبها محمد حسين هيكل وطه حسين والعقاد وخالد محمد خالد وسعيد البوطى ومحمد الغزالى وصفى الرحمن المباركفورى.

كل هذه الكتابات ركزت على صفات العظمة عند الرسول، معجزاته وكراماته ومواطن العبقرية في شخصيته واسهبت فى ذكر تفاصيل معاركه وانتصاراته وجهوده من أجل نشر الدعوة الإسلامية.. لكنها، ورغم اختلاف مشارب أصحابها، لم تهتم كثيراً بالتفاصيل الإنسانية الصغيرة فى حياة الرسول، لم ينسوا أن يشيروا لتحمله المشاق والمتاعب والهموم فى سبيل الله.. لكنهم قالوا ذلك إجمالاً لا تفصيلاً.

فالذين كتبوا عن الرسول انحازوا إلى أنه ﷺ لم تحاصره المتاعب النفسية.. فالمؤمن لا يتعب نفسيا مطلقا، وقد تجاهلوا فى ذلك الضيق النفسى الهائل الذى أصاب الرسول أكثر من مرة فى حياته، فبعد أن زاره الوحى أول مرة انقطع عنه جبريل بعدها ما يقرب من ثلاث سنوات، بقى الرسول خلال هذه الفترة مكتئباً محزوناً تعتريه الحيرة والدهشة.. حتى أنه- كما روى البخارى- فكر أكثر من مرة أن يلقى بنفسه من أعلى الجبال حتى يتخلص من حيرته.. ويقول البخارى كان الرسول كلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى بنفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى فعل ذلك مرة أخرى، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك.

وفى عام الحزن الذى حصد روحى عمه أبى طالب والسيدة خديجة تراكمت عليه الأحزان واهتزت مشاعره بعنف.. وبدلا من أن يجد من يضمد جراحه فوجئ بقومه يبالغون فى إيذائه حتى شمله اليأس الذى تحول إلى إحباط بعد زيارته الفاشلة إلى الطائف التى رفض أهلها دعوته وأغروا صغارهم بالتعدى عليه وإهانته، ولأن السماء كانت حريصة على أن يظل الرسول ثابتا.. لا تهزه التقلبات النفسية فقد دعته إلى رحلة ترويحيه هدأت بها نفسه، هى رحلة الإسراء والمعراج.. وليواصل بعدها رحلته الطويلة فى موكب الدعوة!.

كان الرسول يحزن ويأسف لما وصل إليه قومه.. وكان قبل أن يصل إلى مرحلة القنوط التام والإحباط الذى يجعل الحياة بلا قيمة.. كانت تدركه السماء قبل أن تزل قدمه، هذا التكوين النفسى الثابت جعل الرسول يتحمل الألم الجسدى الذى إستضافته ملامح جسمه من جراء الحروب والمعارك.. وما حدث فى أحد كان كافيا.. فى هذه المعركة كسرت رباعيته وشج رأسه حتى سال منه الدم.. ويبدو أن ما حدث له كان قاسيا على نفسه ولذلك تحسر وقال: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟!» وقبل أن تحاصره الهموم ويستولى عليه اليأس لحقته السماء فيستمع إلى الوحى يقول له: «ليس لك من

الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون»... وسريعاً حققت السماء ما رنت إليه فرفع الرسول كفيه إليها قائلا: (كما فى رواية الطبرانى): اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

ما فعله الرواة والفقهاء مع حياة الرسول لم يقدروا عليه عندما تناولوا خبر وفاته.. فالوفاة سبقها مرض شديد اعتصر جسد الرسول ﷺ وعصر قلوب من حوله. ففى اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هجرية وكان يوم اثنين شهد الرسول جنازة فى البقيع وهو المكان الذى كان يدفن فيه الصحابة، ولما عاد وقبل أن يصل إلى بيته شعر بصداع شديد وارتفعت درجة حرارته بصورة لم يتحملها.. بعد أن وصل البيت وضعت له «عصابات» مبلولة بماء بارد لكن لم تنخفض الحرارة.. لدرجة أن الصحابة كانوا يجدون أثر الحرارة فوق العصابة التى تعصب بها الرسول.

ظل مريضا أربعة عشر يوما كاملة. صلى بالمسلمين منها أحد عشر يوما رغم مرضه- لكنه فى الأيام الأخيرة عجز عن أداء الصلاة بعد أن تثاقل عليه المرض.. قبل موته بأسبوع سأل زوجاته: أين أنا غداً؟ ففهمن ما يقصده.. فنقلوه إلى بيت السيدة عائشة.. وخرج يمشى بين الفضل بن عباس وعلى بن أبى طالب عاصباً رأسه تحط قدماه حتى دخل بيتها، كانت عائشة تقرأ عليه بالمعوذات والأدعية التى حفظتها من رسول الله.. وكانت تنفث عليه وتمسحه بيدها طلبا للشفاء ببركة القرآن.

قبل الموت بخمسة أيام زادت عليه الحرارة واشتد عليه الوجع حتى أغمى عليه، طلب من حوله أن يصبوا عليه سبع قرب من آبار شتى، أجلسوه ﷺ فى مخضب وصبوا عليه الماء حتى قال لهم: حسبكم.. حسبكم، ولما شعر بخفة فى جسده خرج على أصحابه وهو معصوب الرأس حتى جلس على المنبر ليوصى أصحابه قبل أن يلقى ربه.

قبل أربعة أيام من الموت اشتد الوجع، صلى بالناس حتى صلاة المغرب.. وعند العشاء ثقل المرض، فلم يستطع الخروج إلى المسجد، والحدث ترويه السيدة عائشة: قال النبى: أصلى الناس؟ قلنا: لا يا رسول الله وهم ينتظرونك، قال: ضعوا لى ماء فى مخضب، ففعلنا فاغتسل، فذهب لينوء فأغمى عليه، ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ ووقع ثانياً وثالثاً»، أدرك الرسول أن كل شىء انتهى فطلب أن يصلى أبو بكر بالناس، حاولت السيدة عائشة أن تمسك بتلابيب الأمل، فقالت للرسول: اصرف الإمامة عن أبى بكر حتى لا يتشاءم به الناس فأبى وقال لها: انكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس.. وبالفعل صلى حتى وصلت صلواته إلى ١٧ صلاة بالمسلمين فى حياة الرسول.

فى اليومين الثالث والثانى قبل الوفاة وجد النبى فى نفسه خفة فخرج بين رجلين

لصلاة الظهر وأبو بكر يصلى بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بألا يتأخر وقال لصاحبيه: أجلسانى إلى جنبه، فأجلساه إلى يسار أبى بكر، فكان أبو بكر يقتدى بصلاة رسول الله ويسمع الناس التكبير، وفى اليوم الثانى أعتق غلمانه وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفى الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها، وفى اليوم الأخير من حياته وعندما ارتفع الضحى دعا ابنته فاطمة إليه ولما رأته وما به من الكرب الشديد الذى يتغشاه فقالت: واكرب أباه.. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، ثم دعا الحسن والحسين فقبلهما وأوصى بهما خيرا ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

بعد أن انتهى من وصيته اشتد عليه الألم حتى افترسه.. وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، ولم يفعل شيئا إلا أن استخدم السواك، وبعد أن انتهى منه رفع يده وأصبعه وشخص بصره نحو السقف وتحركت شفتاه ثم مالت يده ولحق بالرفيق الأعلى، بعد أن عاش ثلاثاً وستين عاما وأربعة أيام.

وفاة الرسول ألهت من كتبوا عنه عن تفاصيل مرضه.. لكن هناك تفاصيل أخرى لابد من التطرق إليها، فعندما انتقل الرسول إلى بيت السيدة عائشة واشتد عليه المرض وغاب عن وعيه من شدة الوجع، احتار أصحابه فى علاجه فأعطوه دواء يسمى اللدود وهو كريه الطعم جداً، أتى به بعض مهاجرى الحبشة، وكان يصب فى جنب الفم، ومن هنا جاء اسمه لأن «اللدود» هو جانب الفم، ولما أفاق سأل من حوله: من فعل هذا بى فقالوا: خشينا أن يكون بك ذات الجنب فلددناك، فقال لهم الرسول أنا أكرم عند الله من أن يبتلينى بذات الجنب، وما كان الله ليعذبنى بها وأمرهم جميعا بأن يتناولوه عقابا لهم على فعلتهم هذه.

هذا الحوار لفت انتباه د. خالد منتصر فبحث خلفه.. ليجد أن ذات الجنب هذا عبارة عن قرحة تصيب الإنسان داخل جنبيه وقال عنها ابن شميل أنها عبارة عن علة تثقب البطن، وقد بنى د. خالد على هذا المعنى اعتقاده بأن ما حدث للرسول كان عبارة عن إلتهاب للزائدة الدودية اعقب انفجارها ظهور قرحة ذات الجنب التى أعقبها انفجار الغشاء البريتونى الذى أدى إلى إصابة الرسول بالحمى الشديدة التى انتهت بالوفاة.. ما قاله د. خالد يظل اجتهاداً بناه على ما أمامه من دلائل.. لكن تبقى حالة الرسول الصحية مثل كهف الأسرار لأن الذين كتبوا عنه اهتموا بمعجزاته ولم يلتفتوا ولو قليلا إلى حياته الشخصية التى كان فيها ابن امرأة من قريش تأكل القديد.

الله يضحك ....
والرسول يبتسم

الله يضحك.. والرسول يبتسم!

من النوادر التى لا تنسى للشيخ كشك سخريته اللاذعة من أغنية عفاف راضى التى كتبها مرسى جميل عزيز «والنبى تبسم» قال يرحمه الله بنت راضى تقول «والنبى تبسم» هل رأت النبى يبتسم حتى تغنى له، كان الشيخ مخطئاً فقد فهم المعنى خطأ، فعفاف راضى لم تكن تتغنى بتبسم النبى.. ولكنها كانت تستحلف حبيبها بالنبى أن يبتسم.. لأن النبى نفسه تبسم!

لم يكن الشيخ كشك وحده هو الذى استنكر الحديث عن تبسم النبى.. فكل من يكتبون عن حياة النبى الخاصة يستبعدون أن يكون النبى قد ضحك أو ابتسم، وعندما يضطرون يقولون أن النبى لم يبالغ فى الضحك مطلقا ولم يره أحد مقهقهاً ويستندون فى ذلك لحديث السيدة عائشة والذى رواه البخارى حيث تقول: ما رأيت رسول الله مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهاته، إنما كان يبتسم، ولهاته جمع لهاة وهى اللحمة المتعلقة فى أعلى الحنك، وهى لسان المزمار فى الحلق!

ابن حجر العسقلاني فى شرحه لصحيح البخارى قال إن ما جاء فى حديث السيدة عائشة من التبسم لا ينافى أنه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، لأن ظهور النواجذ وهى الأسنان التى فى مقدم الفم والأنياب لا يستلزم ظهور اللهاة. وما يريده رواة الأحاديث وشراحها أن النبى لم يكن يبالغ فى الضحك بفتح فمه بحيث تبدو لهاته، وكذلك لم يبلغ ضحكه حد القهقهة.

ولا أدرى ما هو سبب العداء فى تراثنا الدينى وموروثنا الشعبى للضحك، فخطباء المساجد يمجدون ما قاله صلاح الدين الأيوبى، عندما قال لمن حوله.. كيف أضحك والمسجد الأقصى أسير، ولا أدرى هل قالها أم هى من قبيل العبارات البلاغية الرنانة التى يلهينا بها خطباء المسجد كل جمعة! وتراثنا الشعبى يؤكد أن الضحك من غير سبب قلة أدب!

الغريب أن الأحاديث التى يستشهد بها من يريدون التأكيد على أن النبى لم يكن ضاحكاً.. هى نفسها الأحاديث التى تدلنا على أن الرسول كان هاشاً باشا، بل كان يداعب أصحابه بكلمات تفجر الضحكات فى جلسات الصحابة، فهذا جرير بن عبد الله البجلى يقول: ما حجبنى رسول الله منذ أسلمت ولا أنى إلا ضحك «واللفظ صريح.. لم يقل تبسم ولكن قال ضحك».

كان النبى يضحك من بعض أفعال أصحابه، فيروى أنه كان هناك رجل على عهد النبى اسمه عبد الله، وكان يلقب بالحمار، وكان يضحك رسول الله، وكان النبى قد جلده فى الشراب. فأتى به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم.. اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبى «لا تلعنوه فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله»، بل كان النبى يضحك أيضا تعجبا من فعل النساء، فى عصره، فقد استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله فدخل عمر ورسول الله يضحك، فقال: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال النبى: عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب قال عمر فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله، ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن.. أتهببنى ولا تهبن رسول الله، فقلن: نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله، فقال النبى: إيه يا بن الخطاب والذى نفسى بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غيره».

أحوال الدنيا وعجائبها كانت تجعل النبى يضحك حتى تظهر أنيابه، وهذا أبو هريرة ﷺ يقول: بينما نحن جلوس عند النبى إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت، قال: مالك، قال: وقعت على إمراتى وأنا صائم، فقال رسول الله: هل تجد رقبة تعتقها، قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟، قال: لا، قال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا، قال: لا، قال فمكث النبى وبينما نحن على ذلك إذ أتى بعرق فيها تمر، قال: أين السائل، فقال: أنا، قال: خذ هذا فتصدق به، فقال الرجل: على أفقر منى يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتى، فضحك النبى حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك.

كان لابد للنبى أن يضحك من هذا الموقف الدرامى، فهذا صحابى ضربته الدنيا حتى أضرته، وقد دخل للنبى مدخلاً أحبه فصبر عليه.. وضحك على كلامه ومنطقه، فلم يكن النبى يعنف أصحابه.. ولكنه كان يأخذهم على راحتهم يداعبهم.. ويهش فى وجههم.. فقد وضع القرآن نصب عينيه الحكمة العميقة «ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك» لم يكن النبى يريد أن ينفض الناس من حوله، فلم يكن لافظا ولا غليظ القلب.

أحوال الدنيا كثيرة.. وهذه امرأة كانت تريد الرجوع لمطلقها، فقد طلق رفاعة القرظى امرأته. فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير. فجاءت النبى، فقالت: يا رسول الله إنى كنت عند رفاعة فطلقنى ثلاث تطليقات. فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنه والله ما

معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة التى أخذتها من جلبابه، كان أبو بكر جالساً عند النبى وابن سعيد بن العاص جالس بباب الحجرة ليؤذن له، فأخذ ينادى أبا بكر قائلا: يا أبا بكر ألا تزجر هذه المرأة عما تجهر به عند رسول الله: ولم يزد رسول الله على التبسم وقال للمرأة بلهجة الخبير الذى عرف الحياة على حقيقتها، وفهم ما تريده النساء، لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة، حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»!

لقد وجد النبى أن المرأة تتحدث بشكل مكشوف.. فحدثها بنفس منطقها فقد رفض حديثها عن فقر زوجها الجديد، فلم يكن فى الأمر شىء إلا أنها كانت تريد العودة لزوجها حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها كما قال لها الرسول.

وكما ضحك الرسول من أفعال النساء.. كان يضحك أيضا من أفعال زوجاته، تقول السيدة عائشة: رجع إلى النبى ذات يوم من جنازة من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعاً وأقول: وارأساه، قال: بل أنا يا عائشة وارأساه، وقال: وما ضرك لو مت قبلى لغسلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك، فقالت له: لكأنى بك والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتى فعرست فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسم رسول الله ثم بدأ فى وجعه الذى مات فيه!

كان الرسول- على ما يبدو من حديثه مع السيدة عائشة رجلاً لينا، فقد تقبل منها غيرتها وجرأتها عليه، فقد قالتها له صراحة فهى تعلم أنه سيدفنها ثم يعود إلى بيتها ليعيش حياته بلا زيادة ولا نقصان مع زوجاته، تبسم النبى لكلام السيدة عائشة ولم يعترض على كلامها.. فقد كان متعبا.. هذا التعب الذى انتهى بالموت.

لم يكف النبى عن الضحك والابتسام حتى قبل موته بلحظات، فقد ظل متمسكا ببشاشته حتى آخر لحظة فى حياته.. فهذا أنس بن مالك يروى عن النبى قائلا: بينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلى بهم، لم يفاجئهم إلا ورسول الله قد كشف ستر حجر عائشة فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله، فأشار إليهم بيده رسول الله أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر!

كل الأحاديث أخبرتنا بضحك الرسول وتبسمه.. لكن هناك حديثا واحدا جمع بين تبسم

الرسول وضحك الله رب العالمين، حديث رواه ابن مسعود قال فيه: قال رسول الله: آخر من يدخل الجنة رجل.. فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسعفه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذى نجانى منك، لقد أعطانى الله شيئا ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين.

فترفع له شجرة فيقول أى رب! ادننى من هذه الشجرة لأستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله ﷻ: يا ابن آدم! لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها، فيقول لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هى أحسن من الأولى فيقول: أي رب! ادننى من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسالك غيرها، فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها، فيقول: لعلى إن أدنيتك منها تسألنى غيرها! فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هى أحسن من الأوليين، فيقول أى رب ادننى من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟ قال بلى هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة فيقول: أى رب أدخلنها، فيقول: يا بن آدم! ما يرضينى منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها، قال: يا رب أتستهزى منى وأنت رب العالمين.

ضحك ابن مسعود فقال ألا تسألونى مم أضحك، قالوا: مم تضحك! قال هكذا ضحك رسول الله، فقالوا مم تضحك يا رسول الله، قال من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ منى وأنت رب العالمين، فيقول: إنى لا أستهزئ منك ولكنى على ما أشاء قادر».

يمكن أن ترى فى حديث عبد الله بن مسعود الطويل مجرد قصة رمزية تؤكد طمع ابن آدم الذى لا يملأ عينه إلا التراب، لكنه حديث رواه مسلم ويؤكد أن الله يضحك من أفعال عباده ومواقفهم. لقد كان السابقون أرحم منا، تحدثوا عن الرسول وعن الله حديث العطف والرحمة.. أما نحن فنستكثر على الرسول أن يكون ضاحكا ومبتسما.. وكأن الدين عندنا فى التجهم وصب اللعنات على من عرفت ومن لم تعرف.. وتبسموا يرحمكم الله.

سرقة جسد الرسول !

سرقة جسد الرسول !

فى سطور حياة الرسول ﷺ حقيقة مذهلة .. فهو لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعاً حتى مضى فى طريقه الأخير إلى الله، كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تتابع ذلك عن قرب - كانت تقول: " لقد كنت أبكى رحمة له مما أرى به وأمسك بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع " وبتأثر شديد كانت تخاطب الرسول: نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك، لكن الرسول بسموه كان يرد عليها: " يا عائشة مالى والدنيا .. أخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا " .

ومن كف السيدة عائشة إلى كف السيدة أم سلمة التى دخلت بيت الرسول ليلة عرسه بها فلم تجد شيئاً. كل ما قالته: فإذا جرة فيها شىء من شعير وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة وأخذت الكعب فأدمته فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه .

وعندما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الرسول وهو نائم فى بيته وقد أثر فى جنبه الحصير الذى ينام عليه قال له: " يا رسول الله قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله " لم يرد الرسول رداً غليظاً، لم يسبهم ولم يلعنهم .. كل ما قاله برفق ولين: " أفى شك أنت يا ابن الخطاب ..؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا " .

لكل ذلك كان الرسول ﷺ عظيماً .. ليس لأنه كان أخر الأنبياء فقط وليس لأنه جاء برسالة جامعة تحترم ما قبلها وتحتويه وتضيف إليه وتنقيه مما علق به .. وليس لأنه منح الإنسانية القدرة التى تسمح لها أن تبدع وتنتج وتنهض وفى الوقت نفسه لم يحرم أبناءها من أن ينالوا جزاء أعمالهم الفاضلة فى الآخرة .. كان الرسول فى أعلى مراتب عظمته .. لأنه كان براً بالإنسان يقدر ظروفه ويلتمس له الأعذار .. لا يشدد عليه أموره .. بل يكشف أمامه الأمور بشفافية مطلقة: إن هذا الدين متين ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه .. فأوغل فيه برفق .

إن ملايين القلوب التى تسير على هدى الرسول تتعلق به لأنه حتى الأن يحنو عليها

ويربت على كتفها ، يخفف عنها آلامها ، ويمنحها السكينة .. فقد كان بشراً مثل أصحابها عاش كما يعيشون .. لم يطالبهم بما لا يطيقون .. فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. ولا تفرح السماء بالعبد الطائع قدر فرحتها بعبد وقع فى الخطيئة ثم خلع عن روحه المعصية وجاء يسعى ... لكن ولأن الناس يعشقون كل ما يأتيهم من عنده فقد نسجوا حوله الأساطير الكثيرة .. فمنهم من يؤكد أن يرد السلام على من يسلمون عليه وأنهم يسمعون ذلك بآذانهم .. ومنهم من يؤكد أن مد يده تجاه قبر الرسول ليسلم عليه فأخرج الرسول يده التى يحيط بها النور وسلم عليه .

هذه حكايات أسطورية وليست أكثر من ذلك ، فقد مات عبد الله ورسوله وترك لنا عناصر القوة أن تمسكنا بها صعدنا وإن تجاهلناها سقطنا ، ومن بين ما تحتزنه ذاكرتى عن أحد حجاج قريتى أنه بعد عودته من الأراضي المقدسة جلس إلى أصدقائه وكنت قريباً منهم حكى عن الكعبة والصفا والمروة وجبل عرفة الذى يصعد الحجاج إليه بذنوبهم .. ثم يهبطون منه وقد تركوه وكأنهم اغتسلوا منها .. وفجأة سأله أحدهم وهل رأيت السول ؟ كان السؤال غريباً .. لكن إجابة الحاج كانت أغرب .. فقد قال : نعم رأيته . فتحوا لنا قبره ووقفت بالقرب منه وكان جسده كأنه حى .. فهو نائم فقط .. طلب منه أحدهم أن يصفه .. ولآن الحاج لم ير الرسول وكانت الحكاية كلها من نسج خياله فقد قال: إن الرسول هو أجمل إنسان خلقه الله على وجه الأرض .. !

إن زيارة قبر الرسول ﷺ ليست من المشاعر المقدسة ويصح الحج بدونها شرعياً ، لكنه نفسياً لا يتم ولا يجوز خاصة عند المصريين الذين يعشقون الرسول ﷺ على طريقتهم الخاصة ويتمسكون بتلابيب حديثه الشريف " من حج ولم يزرنى فقد جفانى " .. البعض يهمس فى آذنهم أن هذا الحديث ضعيف وبلا سند حقيقى .. ثم أن الرسول لم يكن ليكلف أمته ما لا تقدر عليه .. لكنهم يضربون بذلك عرض الحائط .. فالرسول رسولهم وهو من حقهم وحدهم حتى لو وقف فى طريقهم إلى ذلك كل رواة الحديث بكل ما لديهم من قوة روحية وسلطان دينى وأسماء ضخمة .. فهم يذهبون إليه يتحدثون معه وكأنه ما زال حياً بينهم .. يطلبون شفاعته .. فقد وجبت هذه الشفاعة لمن يسير على طريقه !.

هذا التعامل الراقى مع جسد الرسول ﷺ قابلته محاولات عديدة لسرقة هذا الجسد الشريف .. وصلت هذه المحاولات إلى ست محاولات رصد بعضها الباحث طه عرفه الذى

قدم منذ سنوات دراسة مهمة عن " فضائل المدينة المنورة " ليس بما تحتويه من أماكن مقدسة فقط ولكن بما قدمه أهلها لها وبما أجراها الرسول فيها وعليها .

أولى هذه المحاولات قام بها مواطنان من المغرب .. حاولا تنفيذها لأسباب صليبية .. جرت هذه الأحداث بعد وفاة الرسول بأكثر من ٥٠٠ سنة كاملة .. وصلت وقتها الأمة الإسلامية إلى حال مزر .

فقد رأى نور الدين زنكى بعد دخوله إلى فراشه بدقائق الرسول ﷺ فى منامه يمسك به رجلان وضعت ملامحهما بدقة .. يحاول الرسول أن يتخلص منهما لكنه لا يستطيع نظر إليه نور الدين زنكى نظرة العاجز .. فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً .. ولما لم يتقدم زنكى نظر إليه الرسول ﷺ قائلاً: خلصنى من هذين الرجلين .

طاردت هذه الرؤيا نور الدين زنكى عدة ليالى لدرجة حرمته من النوم تماماً .. جلس إلى مستشاريه ووزرائه سألهم الرأى والمشورة فقالوا له : " لابد أن تسافر إلى المدينة المنورة وتزور قبر الرسول ﷺ فلابد أنه فى ضيق " وبالفعل شد نور الدين زنكى الرحال إلى مدينة الرسول ﷺ .. وكان هدفه أن يجد الرجلين اللذين كانا يمسكان بالرسول فى المنام نادى وزيره فى أهل المدينة أن زنكى أحضر معه أموالاً كثيرة ويريد توزيعها عليهم . بدأت عملية التوزيع التى قام بها السلطان بنفسه .. وكلما تقدم منه وأحد من أهل المدينة تفحصه وتأمل وجهه .. انتهى نور الدين زنكى من توزيع الأموال ولم يجد فيمن أعطاهم أحداً ممن رآهما فى المنام فسأل أهل المدينة هل بقى أحد منكم لم يأخذ حقه من هذه الأموال ؟

وحدثت المفاجأة . قالوا له : أن هناك رجلين جاء إلى الحج من بلاد المغرب وبعد أن زارا قبر الرسول استوطنا المدينة .. كانت سمعة الرجلين طيبة فقد سارا بين أهل المدينة بالتقوى والصلاح .. ولم يكن يراهما الناس إلا ملازمين الصلاة فى روضة الرسول الشريفة .. بدأ الشك يتسرب إلى نفس نور الدين زنكى فطلب أن يراهما وبدلاً من أن يستدعيهما إليه ذهب هو إلى بيتهما حيث يقيمان .. دخل البيت وعندما رأى الرجلين .. شعر أنه أمام الرجلين اللذين رآهما بجوار الرسول .. طاف بالبيت فوجد فيه سرداباً ينتهى إلى الحجرة النبوية الشريفة .

كان السؤال لماذا حفر هذا السرداب ؟ .. أنكر معرفتهما به لكن نور الدين زنكى أمر بتعذيبهما حتى اعترفا بأنهما قدما من المغرب فى زى حجاج ليسرقا جسد الرسول بعد أن

ينبشا قبره .. كان عقاب الرجلين هو القتل تحت الشباك الذى يلى الحجرة التى دفن فيها الرسول .. لكن بقيت أمام نور الدين زنكى مشكلة وهى كيف يحمى قبر الرسول .. ولم يكن أمامه إلا حفر خندق كبير أحاط به قبر الرسول وملأه بالرصاص المصهور .. ليكون ذلك سوراً عظيماً يمنع كل من تسول له نفسه أن يقترب من جسد الرسول .

وإذا كان نور الدين زنكى قد أنقذ الرسول من السرقة فإن الحاكم بأمر الله الخليفة العباسى غريب الأطوار الذى حم مصر بتناقضاته وقراراته المتضاربة .. قرر - الحاكم بأمر الله الذى كان شيعياً - أن ينقل قبر الرسول بعيداً عن قبرى أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب اللذين دفنا إلى جواره ﷺ .. لا يحظى أبو بكر وعمر بحب الشيعة على اعتبار أنهما سرقا الخلافة من على بن أبى طالب الذى كان أولى بها منهما - كان الحاكم بأمر الله على رأس هذه العملية بنفسه فقد رأى فيها مهمة ضخمة تستلزم الإشراف عليها مباشرة .. وصل إلى المدينة المنورة على رأس عدد من رجاله الأشداء لنبش قبر الرسول وقرر أن يقتل كل من يتعرض له .. هذه المرة لم ينقذ جسد الرسول حاكم ولا سلطان فقد كان بأمر الله شديد البطش .. لكن عندما كان رجال الحاكم بأمر الله يعملون بجد إذا بهاتف يدور فى شوارع المدينة قائلاً: أيها الناس إن نبيكم ينبش .. فهب أهل المدينة وقتلوا رجال الحاكم بأمر الله الذى فر هارباً قبل أن يمسك به أحد .

حاكم مصرى آخر هو " الحاكم العبيدى " قذفت فى قلبه فكرة هائلة وهى أن قبر الرسول لا يجب أن يكون إلا فى مصر .. فأهلها يحبونه ويكرمون أهل بيته ثم أن وجود قبر الرسول فى مصر سيكون شرفاً هائلاً يجب أن تحظى به مصر .. جاءت الفكرة للعبيدى بعد أن نصحه بعض وزرائه بأن ينقل قبر الرسول وصاحبيه هذه المرة من المدينة المنورة إلى مصر .. وبدلاً من أن يزور الناس المدينة تصبح مصر هدفاً ومقصداً ويشد الرحال غليها .

كان مبعوث الحاكم العبيدى هذه المرة رجلاً أسمه أبو الفتوح أمره أن ينبش قبر الرسول دون أن يشعر به أحد .. فقد أدرك العبيدى خطورة ما هو مقدم عليه .. وصل ابو الفتوح إلى قبر الرسول بالفعل وعندما بدأ فى نبش القبر أمسك به أهل المدينة وكادوا يقتلونه .. لكن قبل أن ينفذوا فيه حكمهم هبت على المدينة ريح عاتية اقتلعت كل شىء حتى كادت البيوت أن تهدم على أصحابها . اعتذر أبو الفتوح عما أقدم عليه ووشى بتفاصيل المؤامرة كاملة .. ويومه قال: أن يجب أن أعصى الحاكم العبيدى حتى ولو قتلنى .. فهذا كان افضل عندى من أن

أتعرض للموضع الشريف بسوء !

تبقى بعد ذلك محاولات صغيرة لسرقة جسد الرسول منها المحاولة التى كان سور نور الدين زنكى بطلها .. فقد أقامه زنكى لحماية قبر الرسول من السرقة .. لكن منفذى هذه المحاولة قرروا استغلال هذه السور فقد ربطوه بعدد كبير من السلاسل .. وقرروا سحب السور بالقبر عن طريق الخيول .. ولكن الخيول فشلت فى مجرد الحركة وكأن أقدامها ثبتت فى الأرض .. لتعود إلى الأذهان قصة فرس .. يكشفها أهالى المدينة .. لكن أصحابها جربوا حظهم ففشلوا .. ولم يعلن عنها إلا بعد سنوات عديدة .

محاولة فاشلة أخرى كان أبطالها هذه المرة أربعين رجلاً اشداء وصلوا إلى المدينة هذه المرة من سوريا وتحديداً من حلب .. لم يستخدموا الحيلة ولكنهم استخدموا الرشوة .. أرادوا أخراج قبرى أبو بكر وعمر ﷺ من حجرة الرسول الشريفة .. قدموا للقائمين على امور المسجد أموالاً كثيرة وهدايا ثمينة .. ونال أمير المدينة منها جزء كبيراً وطلبوا منه أن يمكنهم من فتح الجرة النبوية ودخولها . وافق أمير المدينة على فتح الحجرة الشريفة وأمر خادم الحجرة أن يرافقهم ويمكنهم مما يريدون ولا يعترض طريقهم .. ذهبوا جميعاً إلى حجرة القبر الشريف ودخلوا من باب السلام .. كانت المفاجأة أن خادم الحجرة الشريفة وجد مع أهالى حلب أدوات حفر كثيرة .. لكنهم قبل أن يصلوا إلى منبر الرسول ابتلعتهم الأرض وخلصت جسد الرسول منهم وأصبح الخادم هو مصدر الحكاية وحده ولا يعلم أحد هلى هى قصة حقيقية أن أنها أسطورة من الأساطير التى حاول الخادم نسجها حول قبر الرسول ؟! .

المحاولة الأخيرة حاول أصحابها نقب جدار القبر النبوى مباشرة دون نفق أو رشوة لكنها كانت محاولة ساذجة فقد اكتشفت سريعاً وتم قتل أصحابها الذين كانوا يريدون مصادرة جسد الرسول ودفنه من جديد فى مكان يحددونه بأنفسهم .. وليتحول الرسول على أيديهم إلى مزار يتكسبون منه ويربحون من خلفه .. لكن الله سلم .

كانت هذه محاولات مادية تمت بأشراف منفذيها الأشرار لسرقة جسد الرسول وكان الهدف منها جميعاً مادياً بحتاً .. لكن محاولات سرقة الرسول مازالت قائمة حتى اليوم يقوم عليها وينفذها من يتحدثون باسمه .. من يعلقون على صدورهم لافتة كبيرة مكتوب عليها وبخط واضح " قال الله وقال الرسول " .. حولوا الرسول ﷺ إلى تجارة يتكسبون منها

ويربحون من خلالها الملايين التى تتحول إلى أرصدة فى البنوك وعقارات ضخمة وسيارات فارهة وعنجهية فارغة لا معنى لها ولا أساس لها .

لقد كانت أمامى وأنا أطالع محاولات سرقة جسد الرسول كل الوقائع التى تعتصرها وتتحكم فينا وتصبح مصائرنا .. لقد انتقلنا إلى ذيل الأمم رغم أننا نملك تراثاً هائلاً من القوة وعوامل البقاء والصمود .. لكننا تخلينا عن كل ذلك .. هجرنا الرسول ووصاياه فهجرتنا رحمة الله .. وكأنى بيد الله الرحيمة التى ترعى عباده قد رفعت من خلف ظهورنا فتركنا فرادى دون أن يحمينا أحد ..

لا أخفيكم سراً أنى أحلم بمقابلة الرسول الأعظم .. لن أحدد المكان بل يحدده هو فى دار الأرقم بن الأرقم .. أو بجوار الكعبة أو فى طريقه إلى الهجرة أو فى بيته بالمدينة أو فى مسجده أو بين جيشه وهو فى طريقه إلى فتح مكة أو أمام الخندق الذى حفره ليحرم الأحزاب فرحة الانتصار عليه واستئصال دينه .. سأقف أمامه طالباً العفو والسماح .. لكننى سأشكو ما يحدث لنا .. سأقول له أن الدعاة الذين من المفروض أن يكونوا أنبياء بما يحملون من علم وحكمة أصبحوا مجرد تجار يحسبون قدرهم بما يكسبون وما فى جيوبهم من أموال .. سأقول له أن الحاكم أصبح لا يسمع إلا نفسه ولا يرى إلا وجهه ، تركنا نعانى ولم يكلف نفسه مجرد مشقة السؤال عنا .. سأقول له أن شباب أمتك الذين من المفروض أن يكونوا وقوداً لحماية الدين والنهوض به أصبحوا بلا قدرة على العمل بلا مستقبل ولا أمل فى مستقبل .. اصبحوا كائنات هشة هلامية غير قادرة على شىء .. سأقول له إننا نكذب على أنفسنا لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً أخر .. فهل يرضيك هذا يا رسول الله ؟ .

دم الحسين فى كربلاء

دم الحسين فى كربلاء

لكل أمة مسيحها..

ومسيح أمتنا الحسين..

حمل روحه على كفه مطمئن القلب ليقدمها إلى السماء اعتذارا مقدما عما سيقترفه الذين اغتصبوا الخلافة ولكل من سيأتون من بعدهم ليحولوا رسالة النبى الأعظم إلى سيف على من يغضب وذهب لمن يخضع.

لم يختر الحسين أن يركن ظهره، ولم يستعذب الراحة، لكنه قطع طريق الآلام من مكة إلى الكوفة رافعا روح البطولة والقتال، فالمعانى الكبيرة لابد لها من شهداء،وليس أكرم عند الله من شهيد نما فى ظلال بيت النبوة، المشهد الدامى أغمد سيفه فى ضمير التاريخ لا يريد أن يبرحه، وعذابات كربلاء لم تغادر بعد قلب الذين تخلوا عنه ونحروه، رغم أنه كان يقدم نفسه فداء لهم.

نحن الآن فى العام الخامس من الهجرة، الرسول ﷺ يجلس فى مسجده بين أصحابه. يأتيه من يبشره بأن فاطمة أحب الناس إليه وضعت طفلها، فيسرع إلى دارها.. تقابله أسماء بنت عميس فيقول لها: يا أسماء هاتى ابنى، تحمله إليه ملفوفا فى خرقة بيضاء، أذن الرسول فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى، ثم وضعه فى حجره وبكى، سألته أسماء لم تبكى يا رسول الله؟ فقال لها: من ابنى هذا، قالت له: إنه ولد الساعة.فيرد عليها الرسول بصوت دامع. يا أسماء تقتل ابنى الفئة الباغية من بعدى. لا أنالهم الله شفاعتى.

وبعد ستة وأربعين عاما..وفى العاشر من المحرم من العام الحادى والستين من الهجرة. رأت السيدة أم سلمة النبى فى منامها وكان على لحيته التراب، فسألته عما حدث فقال لها: كنت أدفن ابنى الحسين، فعرفت أن الحسين قد قتل.

ما بين بكاء لحظة الميلاد وتراب لحظة الوفاة.. جرت بين دفتى النهر مياه كثيرة.أقام أبو بكر وعمر العدل فى الأرض وأحيا فيها روح الإسلام، كما صاغها نبيه العظيم، وقتل عثمان ليفتح باب الفتن على المسلمين بريحه السامة، وقدم على نفسه فداء للإسلام بنفس

راضية. واغتيل الحسن بن على بعد أن دست له زوجته جعدة بنت الأشعث السم فى طعامه مرضاة لمعاوية بن أبى سفيان الذى رسم الخطة وأشرف على تنفيذها من أجل أن يمهد الطريق لأبنائه ليركبوا الخلافة الإسلامية ولا ينزلوا عنها.

كان الإمام الحسن قد تنازل لمعاوية وبايعه بالخلافة، على أن يصبح الأمر شورى بين المسلمين من بعده.. لكن من قال إن لأبناء الطلقاء الذين أعلنوا إسلامهم يوم فتح مكة مخافة السيف عهود أو مواثيق، ثم جاء الدور على الحسين ليسمع التاريخ كلمته ويسجل موقفه من الطغاة الذين قرروا أن يحولوا الإسلام إلى ملك وزينة بعد أن كان خلافة راشدة.

فى العام الستين من الهجرة مات معاوية، لم يجد فى جعبته ما يسديه من نصح لأمته إلا ما قاله لابنه يزيد، إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجال- الحسين بن على وعبد الله بن عمر.. وعبد الرحمن بن أبى بكر.. وعبد الله بن الزبير.. ولأن يزيد كان ضعيفا فقد أخذ وصيته بالهمس الذى قيلت به.. ولذلك عندما جلس مكان أبيه أرسل إلى والى المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان قائلا له: خذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر بالبيعة أخذا شديدا- ليس فيه رخصة حتى يبايعوا..

وجد والى المدينة نفسه فى مأزق.. فكيف سيطلب البيعة من الحسين وهو يعلم عناده وصلابته ومعارضته الشديدة ليزيد بن معاوية الذى عرف أهل الشام شذوذ أفكاره ومشاعره، وتربيته التى كانت تعكس روحا جاهلية مشبعة بالفجر والفسوق الذى يمارسه ابن معاوية على مسمع ومرأى من كثير من المسلمين فى بلاد الشام كاللهو الماجن واللعب الخليع وشرب الخمر ومنادمة الفتيات والقرود، استشار والى المدينة قريبا له اسمه مروان، ويبدو أن مروان هذا كان قاسيا.. فقالها صريحة لقريبه: «أما ابن عمر وابن أبى بكر، فابعث إليهما فإن بايعا وإلا فاضرب أعناقهما قبل أن يذيع فى الناس نبأ موت معاوية فيثب كل واحد منهما فى ناحية».

ألم يكن يعلم مروان أنه يتحدث عن رقبة الحسين، كان يعلم بالطبع لكنه الملك الذى يعمى الأبصار ويطمس البصائر، دعا والى المدينة الوليد بن عتبة الحسين إلى بيته ولما اخبره الوليد بموت معاوية وطلب منه مبايعة يزيد قال الحسين: إن مثلى لا يعطى بيعته سرا فأجمع الناس ليبايعوا وأبايع على ملأ، شعر الوليد بأن الحسين يناور فما كان مثله ليبايع من هو مثل يزيد ولذلك تركه يرحل.. وفى الصباح علم الوليد أن الحسين رحل إلى مكة.. وقبل

أن يفيق من الصدمة نهره مروان.. لأنه أضاع فرصة القضاء على الحسين من يده.. فلم يجد الوليد ما يرد به إلا قوله: «أتشير على بقتل الحسين بن فاطمة بنت رسول الله، والله إن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله».

لم يخرج الحسين وحده إلى مكة..حمل معه أختيه السيدة زينب والسيدة أم كلثوم وإخوته أبو بكر والعباس وجعفر وأولاد أخيه الحسن ومن كان بالمدينة من أهل بيته عدا أخاه محمد بن الحنفية الذى آثر البقاء فى المدينة على الرحيل.. كانت الرحلة طويلة.. وقد يكون فى آخرها هلاكه ومن معه.. لكنه خرج وبعد أن استقر فى مكة ليكون بعيدا عن خيوط المؤامرة جاءته كتب أهل الكوفة تدعوه للقدوم إليها ليبايعه أهله، فقد ضجوا من ظلم يزيد، ويريدون أن يزيحوا عن كواهلهم العار الذى لحق بهم باستخلاف هذا الفاجر.

لم يفرح الحسين بكتب أهل الكوفة.. فلم يكن طالب دنيا ولا عبد مال. أرسل إليهم من يستطلع الأمر، اختار ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب.. وصل الكوفة يحمل رسالة الحسين إلى أهل الكوفة: من الحسين بن على إلى من يبلغه كتابى هذا من أوليائه وشيعته بالكوفة.. سلام الله عليكم.. أما بعد فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم ورغبتكم فى قدومى إليكم. وإنى باعث إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهلى «مسلم بن عقيل» ليعلم لى كنه أمركم ويكتب إلى بما يتبين من جمعكم، فإن يك أمركم على ما جاءتنى به كتبكم وأخبرتنى رسلكم أسرعت القدوم إليكم إن شاء الله تَعَالَى».

وكأنه كان يستريب فى أمرهم.. وكأن قلبه كان يحدثه بأن نهايته ستكون على أيدى من دعوه ليناصروه، لكن ولأن الأقدار كانت قد قالت كلمتها.. فقد سارت الأمور فى مراكبها وكان لابد أن يظهر فى الصورة إلى جوار الحسين شقى من أشقياء الدنيا هو عبيد الله بن زياد، كان والى البصرة، وقد اقتحم البصرة هكذا.. أرسل الحسين إلى أهالى البصرة يدعوهم إلى إحياء معالم الحق وإماتة البدعة والباطل، عندما علم ابن زياد بشأن رسول الحسين ألقى القبض عليه وفى وحشية ليست غريبة عليه قام بقتله وصلبه.. وقبل أن يغسل يديه من دمه رحل إلى الكوفة ليتولى أمورها قبل أن تفلت من أيدى يزيد.. وقبل أن يمتطى صهوة جواده جمع أهل البصرة وحذرهم: إياكم والخلاف والإرجاف.. فوالله لئن بلغتنى عن أحد أنه خالف أو أرجف فلأقتلن وليه ولآخذن الأدنى بالأقصى والبرىء بالمذنب حتى تستقيموا.. أنا ابن زياد وقد أعذر من أنذر.

السماء كانت غاضبة إذن.. ودليل نقمتها أن سلطت على العباد من فى مثل قسوة ابن زياد، وصل إلى الكوفة ومسلم بن عقيل يجمع البيعة للحسين، صبر عليه ابن زياد حتى وقع فى يده، وعندما وقف عقيل بن يدى ابن زياد أدرك أنه قاتله لا محالة فقال له: إذا كنت تريد قتلى فدعنى أوصى إلى بعض الذين هنا من قومى.. وفى الدقائق التى سمح فيها ابن زياد لرسول الحسين قال عقيل لبعض أصحابه: إن على بالكوفة دينا اقترضته فإذا قتلت فبع سيفى ودرعى وخذ من غلتى بالمدينة حتى تقضيه عنى، وإنى قد أرسلت إلى الحسين أخبره بأن الناس ينتظرونه وأدعوه للقدوم ولا أراه إلا مقبلا، فابعث إليه من يرده ويخبره بأن أهل الكوفة لا عهد لهم».

كان ابن زياد قد اشترى ذمم أهل الكوفة فباعوه الحسين دون أن تهتز فى رءوسهم شعرة، ودون أن يشعروا ولو بوخزة عابرة من ضمائرهم، لم يسألوا أنفسهم بأى وجه سيقابلون الحسين– وماذا سيقولون له.. وهو الذى مضى إليهم بعد رسالة تسلمها من ابن عمه مسلم بن عقيل يطمئنه فيها أن أهالى الكوفة معهُ.. لم يعلم الحسين مقتل عقيل فمضى فى طريقه.. ولو كان علم بما حدث فمؤكد أنه كان سيمضى.. فلم يخرج الحسين من أجل مغانم الدنيا وزينتها.. ولكنه خرج من أجل المبدأ.. من أجل ألا يخان الإسلام من أهله.. وألا يصبح كتاب الله خادما فى قصور الملوك.. لم يكن يرغب فى الخلافة.. لكنه كان يتمنى الشهادة من أجل أن تذهب الخلافة لمن يستحقها.. لقد خرج الحسين من مكة.. لأنه كان يعلم أنه لو لم يخرج لجيوش يزيد لجاءت هى إليه.. وقد أعلنها لأهله وشيعته: لأن أقتل فى أى مكان من الأرض، أحب إلى من أن أقتل هنا فى مكة فيستباح البلد الحرام بسببى.

لقد قابل الحسين فى طريقه إلى الكوفة ما يجعله يعود أدراجه.. لكنه مضى، قابله الفرزدق الشاعر قادما من الكوفة فسأله الحسين، كيف تركت الناس من ورائك؟ فأجابه الفرزدق: تركتهم قلوبهم معك وسيوفهم عليك.. كان لابد أن يعود الحسين لكنه مضى فلله الأمر من قبل ومن بعد، وعندما قابله بعد ذلك عبد الله ابن مطيع قادما من العراق قال له راجيا: أناشدك الله ألا تذهب إلى الكوفة– فوالله لئن أتيتها لتقتلن.. لم يزد الحسين إلا أن قال له: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وحتى عندما يعلم أن ابن عمه ورسوله إلى الكوفة مسلم بن عقيل قتل يردد بينه وبين نفسه: إنا لله وإنا إليه راجعون عند الله نحتسب أنفسنا ولا خير فى العيش بعد هؤلاء.

كانت الكوفة تضج بما فيها ومن عليها، عزلها ابن زياد عن العالم، منع أهلها من الخروج إلا لمن كان يقصد الحج، وفى الوقت نفسه أطلق جواسيسه وطلائعه وسراياه ليتربصوا بالقادم من أرض النبى، عند إحدى القرى قابلته سرية «الحر بن يزيد التميمى» رآه الحسين قادما نحوه هو ورجاله يتصببون عرقا من شدة الحر وقد تيبست شفاههم من الظمأ، فأمر فتيانه بأن يستقبلوهم بالماء فشربوا، وعندما حل وقت الصلاة سأل الحسين الحر بن يزيد: أتصلى بأصحابك وأصلى بأصحابى؟ فأجابه الحر: بل نصلى جميعا بصلاتك.

كان لابد من حوار بعد أن انتهت الصلاة وبدأه الحسين قال لهم: إنى لم آتيكم حتى أتتنى كتبكم وقدمت علىّ رسلكم، فإن أعطيتمونى ما اطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم.. لم يكن عند الحر بن يزيد جواب، فهو لم يكن يدرى من الأمر شيئا.. كل ما يعرفه أنه كلف من أمير الكوفة والبصرة بمهمة محددة وهى أن ينتظر ركب الحسين حتى يلتقيه.. ثم يقوده إلى ابن زياد فى الكوفة.. لم يمهل الحسين عبد سيده من أن يكمل كلامه فقال له: الموت أدنى إليك مما تريد، وعندما هم الحسين وأصحابه بأن ينصرفوا حاول الحر بن يزيد أن يقطع الطريق عليهم. فقال له الحسين ولعله كان يصرخ فى وجهه: إنها الحرب إذن!

لم يكن الحر بن يزيد بالقوة التى تجعله يقول للحسين فى وجهه نعم إنها الحرب.. تراجع عن موقفه وقال بصوت أرهقته قلة الحيل،إنى والله لا أريد قتالك ولم أومر به، وإنى لأرجو أن يرزقنى الله فيك العافية ولا أبتلى بشيء من أمرك، ولقد أمرت إن أنا لقيتك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد فإن رأيت فاتخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تردك عنها حتى يأتينا رأى الأمير.. لم يستطع كذلك أن يخالف أمر سيده.

حاول الحسين أن يدخل الكوفة.. لكن جنود الحر بن يزيد وقفت له تمنعه حتى جاء كتاب الشقى ابن زياد: شدد على الحسين فى المكان الذى يوافيك عنده كتابى ولا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولى ألا يفارقك حتى تأتينى بإنفاذ أمرى.. الأوامر صدرت إذن ولما أراد الحسين أن يستأنف سيره متجها صوب بئر ماء منعه الحر بن يزيد، وظل يضيق عليه الخناق حتى نزل الحسين فى أرض فضاء موحشة انقبضت روحه فسأل من حوله: ما اسم هذا المكان؟ فقالوا له، كربلاء.. هى كربلاء إذن..

لم يكن الاسم الذى حملته مدينة تقع الآن على بعد ١٥٠ كيلومترا إلى الجنوب الغربى من بغداد غريبا على آل البيت النبوى، وهذا هو الإمام أحمد فى مسنده يروى أن أم سلمة زوج الرسول قالت: رأيت رسول الله وهو يمسح رأس الحسين ويبكى فقلت له: ما بكاؤك؟ فقال لها: «إن جبريل أخبرنى بأن ابنى هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء».. ثم ناولها الرسول ﷺ كفا من تراب وقال: إن هذا من تراب الأرض التى يقتل بها، فمتى صار أحمر فاعلمى أنه قد قتل. وكانت أم سلمة تضع التراب فى قارورة عندها وتقول: إن يوما يتحول فيه هذا دما ليوم عظيم..

وكربلاء مرة ثانية..

فقد روى أن جبريل كان عند النبى والحسين مع أم سلمة فبكى فتركته يذهب إلى رسول الله، فقال له جبريل: أتحبه يا محمد؟ فقال له نعم، فرد جبريل إن أمتك ستقتله وإن شئت أريتك من تربة الأرض التى يقتل بها، فبسط جناحه إلى الأرض فأراه أرضا يقال لها كربلاء.

وكربلاء مرة ثالثة..

كان الإمام على فى طريقه إلى معركة صفين وكان معه الحسين، وعندما مرا على هذه البقعة من الأرض وفى نفس المكان توقف الإمام على وقال: هنا محط رحالهم ومهراق دمائهم، ولابد أن الحسين عندما وصل إلى كربلاء قد استرجع كل هذا ووضعه أمامه وأيقن أن الموت قادم لا محالة.

هى كربلاء إذن.. التى سينظر إليها المسلمون دائما فى غضب يلعنون أهلها قربى للحسين دون أن يدركوا أن الحسين قدم نفسه من أجل أن ترفع اللعنة عن المسلمين. وأن تكون روحه كلمة تقود الحائرين والمظلومين إلى طريق واحد وهو المقاومة من أجل الحق.. والدفاع عن المبدأ..والموت دون العقيدة.. فرغم أن الحسين كان يعلم أن فى كربلاء مصرعه لكنه لم يغادرها.. ظل صامدا.. حتى يأتيه الموت وهو واقف على قدميه.

لم يكن عند ابن زياد جيش مجهز لملاقاة الحسين ورجاله: فاستدعى جيش عمر بن سعد، والذى كان يضم أربعة آلاف فارس جهزهم ابن زياد للقضاء على ثورة الديلم فى أرض همذان: بدلا من أن يذهب عمر بن سعد إلى همذان خرج إلى كربلاء، حاول أن يقاوم ويرفض هذه المهمة التى لن تنتهى إلا بمقتل الحسين.. لكن رنين الذهب أعمى بصره.. وبريق الملك

أصم أذنيه، هدده ابن زياد بأنه إن لم يخرج للحسين.. فسيحرم من الولاية التى كان يطمح إليها ويعزل عن الجيش، ضعفت نفس بن سعد فاختار القريبة على هزالها.. ولم يفكر فى البعيدة على غناها وثرائها.

نزل عمر بن سعد إلى كربلاء فى اليوم الثانى من المحرم، وعسكر على مقربة من جيش الحسين الذى لم يكن فى حقيقته جيشا.. أرسل بن سعد للحسين يسأله لماذا جاء.. وللمرة المائة يقولها الحسين: «إن أهل الكوفة كتبوا إلى يذكرون أنهم لا إمام لهم ويسألوننى القدوم عليهم، فجئت إليهم، وفى الطريق علمت بنكوصهم فأردت الرجوع فمنعنى الحر بن يزيد وسار بى إلى هذا المكان»، اعتقد عمر بن سعد أن المشكلة انتهت إذن، وما دام الحسين يريد أن يعود فليعد سالما، ولما كتب بذلك لابن زياد، رد عليه من فوره اعرض على الحسين البيعة ليزيد فإذا بايع ومن معه فأخبرنى وسيأتيك رأيى.. قرأ الحسين كتاب سفاح الكوفة.. فردد ما قاله ولم يحد عنه منذ خرج من المدينة: «لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبدا.. وإن يكن الموت فمرحبا به».

اختار الحسين الموت فجاءه اسرع مما يتخيل..

رفض أن يبايع يزيد الفاجر.. ظل صامدا.. ففعلها ابن زياد أرسل إلى عمر بن سعد أن يجيء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة فإن أبوا فليقاتلهم حتى الموت.. حمل الرسالة إلى عمر سفير الشيطان «شمر بن ذى الجوش» وهو شقى آخر من أشقياء الأرض، لم يجد شمر بدا من التفاوض مع الحسين فقرر أن يشعل الأرض نارا، فقد خرج من الكوفة قاصدا رأس الحسين حتى لو دفع فى ذلك أغلى ما يملك.. ولذلك أوصاه سيده ابن زياد أن يكون حادا مع عمر بن سعد أكثر من ذلك وقد كان قال له: إنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتكون له عندى شفيعا.. ادع الحسين إلى ما أمرتك، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين فابعث بهم إلىّ وإن أبوا فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم. وبعد أن يقتل الحسين أوطئ الخيل صدره وظهره.. فإن مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع وأن أبيت فاعتزل جندنا.. ودخل بن شمر بن ذى الجوش والعسكر.

لم تكن البيعة مقصدهم إذن..

لكنهم كانوا يريدون الانتقام.. كانوا يريدون إذلال أهل بيت الرسول ﷺ، وكأن يزيد سليل بيت أبى سفيان لم ينس لوعة جدته الكبرى هند بنت عتبة.. ولم يكفهم دم حمزة سيد

الشهداء ثمنا لقتلى بدر، فصاروا فى غيهم وانتقامهم، فالبيعة لا تكفى والقتل لا يكفى.. بل لابد من التمثيل بالقتلى.. الذين هم عطرة الرسول وشذا روحه.

كانت أمام عمر بن سعد فرصة أن يشترى دينه بدنياه.. لكن غلبت عليه شقوته فمضى فى طريق الشر وبدأ القتال الذى كان أمره محسوما من البداية،فالحسين يواجه باثنين وسبعين جيشا قوامه أربعة آلاف، طلب الحسين من قاتليه إرجاء القتال إلى العاشر من المحرم.. يوم واحد طلبه لا ليفكر أو ليعطى نفسه فرصة للتراجع.. ولكنه جمع رفاقه وقال لهم فى فروسية نادرة، إنى لا أعرف أصحابا خيراً من أصحابى ولا أهل بيت أبر من أهل بيتى، فجزاكم الله خيرا فقد بررتم وأعنتم، وانكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى وإن يومى معهم غدا، وإنى قد أدنت لكم جميعا فانطلقوا فى غير حرج ليس عليكم منى زمام.. وهذا هو الليل قد غشيكم، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار وانجوا بأنفسكم.

خير الحسين أصحابه.. فاختاروا.. أجابه أخوه لأبيه العباس بن على: معاذ الله والشهر الحرام، وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم، نقول تركنا سيدنا وابن سيدنا غرضا للنبال ودريئة للرماح وحرزا للسباع.. وفررنا منه رغبة فى الحياة.. معاذ الله بل نحيا بحياتك ونموت معك..

كانت القضية واضحة فأتباع الحسين يعرفون أنهم على الحق.. وأن قاتليهم أشر عباد الله خلقا وخلقا، وهذا نافع بن هلال البجلى أحد أصحاب الحسين يواجه شمر بن ذى الجوشن بصدق وثقة: «والله لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا فالحمد لله الذى جعل منايانا على أيدى شرار خلقه».

هم شر الخلق إذن.. ولذلك لم يترددوا.. أطلق عمر بن سعد سهمه فى اتجاه الحسين ليعلن بذلك القتال.. رأى الحسين جيش الظلام قادما نحوه فلم يفعل أكثر من الاعتصام بجاه الله. اللهم أنت ثقتى فى كل كرب وأنت رجائى فى كل شدة وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة».. لم يتراجع القتلة لكنهم سحقوا أصحاب الحسين وجعلوهم أشلاء متناثرة على أرض كربلاء.. صمدوا نعم.. لكنهم قدموا أرواحهم طاهرة فى النهاية.. رأى الحسين جثث أهله وأصحابه من مواليه فنادى: هل من ذاب عن حرم رسول الله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله فى إغاثتنا؟ راح نداؤه تحت أقدام خيول أعدائه.. حاول القتلة أن

يهتكوا حرم نساء أهل بيت النبى، فصرخ فيهم الحسين.. «أنا الذى اقاتلكم والنساء ليس عليهن جناح فامنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمى ما دمت حيا» لكن الطغاة لا يسمعون فيهتف فيهم مرة أخرى: ويلكم إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم الميعاد فكونوا أحرارا ذوى أحساب، امنعوا رحلى وأهلى من طغاتكم وجهالكم».

لم يسمع له أحد.. ولما أرى الحسين أنهم ماضون إلى شرورهم أعلنها ربما للمرة الأخيرة: لا أعطيكم بيدى إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، وها هو الآن يقف وحيدا بين أعدائه بعد أن سقط الرجال جميعا.. وجاءت الفرصة لشقى الدنيا والآخرة شمر بن ذى الجوشن فصرخ فى الجنود أن يختطفوا رأس الحسين، تجمعوا حوله وقبل أن يهموا به خرج على الرجال طفل صغير هو عبد الله بن الحسن وعندما رأى أحد الجنود يقترب من رأس عمه يصرخ فيه: يا ابن الخبيثة اتقتل عمى.

لم ترحم صرخة الطفل الحسين ولم ترحمه هو نفسه إذ وجه إليه أحد الجنود سيفه فأوقعه قتيلا.. وقبل أن يلقى الحسين حتفه يحمل الطفل الصغير إلى عمته السيدة زينب التى شهدت مصارع أهلها.. وعندما يعود يجد السيوف فى انتظاره.. تقدم منه جندى فضربه بسيفه على معصم يده اليسرى فطارت كفة، ثم تقدم ثان فضربه بسيفه على عاتقه فوقع على الأرض.. وعندما قاوم اجتمعوا عليه بسيوفهم وبطعنة أخيرة مات الحسين.. ثم تقدم شمر بن ذى الجوشن وبسيفه يجتز رقبة الحسين ليحملها هدية إلى سيده الشقى ابن زياد، وسيدة الأشقى يزيد بن معاوية وهكذا مات الحسين..

والسؤال: هل كان لابد أن يقتل الحسين- والجواب نعم.. لأنه لم يكن يدافع عن حقه فى حياة رغدة أو ملك ناعم.. ولكنه كان يدافع عن كلمة الحق كى تعلو.. قدم السيد نفسه فداء، كى يعرف الناس أن الحياة الحرة الكريمة لا بد لها من تضحيات.. سالت دماؤه على أرض كربلاء ذكية غالية لتكون ثمنا للقيم السامية والمبادئ العليا.. وما يفعله شعب العراق الآن بعض من نفحات الحسين.. فقد قتل أجدادهم الحسين.. ولعل تقديمهم لأنفسهم ثمنا لأرضهم ودفاعهم عنها يكون كفارة وتكفيراً عن ذنبهم الذى اقترفوه.. ولعل الله يغفر لهم بذلك.

قتلة الحسين فى الجنة !

قتلة الحسين فى الجنة!

لن تكف جماعة أنصار السنة المحمدية عن العمل إلا بعد أن تجرنا جميعا لعصور مظلمة لن يقدر أحد على تحملها.. ولن تكف عن إصدار الكتيبات والفتاوى إلا بعد أن تجرد المصريين جميعا من تدينهم الخاص وطقوسهم وارتباطهم الخاص بالإسلام.. منذ فترة أفتى شيخوهم أن زيارة قبر الرسول حرام ضاربين عرض الحائط بما قاله النبى ﷺ «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة».

لكن ما يقوله أحد كتبهم الصغيرة التى يوزعونها فى المواصلات العامة وعند باعة منطقة الأزهر شىء آخر ومذهل تماما.. كتيب صغير يحمل عنوان «رأس الحسين سيد شباب أهل الجنة».. يحمل توقيع شيخهم الكبير ابن تيمية وقدم له على عبد العال الطهطاوى.. من مظهره يبدو كتابا عاديا.. لكن الأفكار الواردة فيه والمنهج الذى كتب به.. يحمل توجهات وأفكار أهل السنة.. من بين أفكاره الكثيرة فكرتين مؤرقتين.. لا يحتاجان إلى المناقشة فقط.. ولكن يحتاجان إلى التصدى والكشف والرفض.

الفكرة الأولى تصدم ملايين المصريين الذين تتعلق قلوبهم بأهل البيت فى مصر والذين يزورون أضرحتهم من باب أنهم من رائحة الرسول ﷺ وليس من باب العبادة أو التقرب بهم إلى الله.. يقول الكتيب ببساطة أحسد عليها صاحبه ومحققه إن رأس الحسين لم تصل إلى القاهرة وأن الضريح الذى يؤمه الناس ليس لسيدنا الحسين رضي الله عنه ولكن لأحد الاقباط المدفونين فيه.. وهذا هو الكلام بالنص.

مشهد الحسين بالقاهرة مختلق بلا نزاع بين العلماء المعروفين عند أهل العلم الذين يرجع إليهم المسلمون فى مثل ذلك لعلمهم وصدقهم، ولا يعرف عن عالم مسمى معروف بالعلم والصدق إنه قال: إن هذا المشهد صحيح وإنما يذكره بعض الناس قولا عمن لا يعرف فهم ينقلون أحاديث وحكايات وإذا طالبتهم بمن قال ذلك لم يكن لهم عصمة يرجعون إليها بل غاية ما يعتمدون عليه أن يقولوا: أجمعت الطائفة الحقة وهم عند أنفسهم الطائفة الحقة الذين هم عند أنفسهم المؤمنون وسائر الأمة سواهم كفار.

ويحاول الكتيب أن يسند وجهة نظره ببعض المعلومات ومنها على سبيل المثال أن

المشهد المنسوب للحسين بنى عام بضع وأربعين وخمسمائة وأنه نقل من مشهد بعسقلان بالعراق.. كان قد بنى عام ٤٩٠ هجرية، ثم إن هذا المشهد العسقلانى بنى بعد مقتل الحسين بأكثر من ٤٣٠ سنة.. ويقترب ابن تيمية من المشهد العسقلانى.

فيوكد أن قول القائل إن الذى كان بعسقلان مبنى على رأس الحسين قول بلا حجة لأن هذا لم ينقله أحد من أهل العلم الذين من شأنهم نقل هذا وغالب ما يستند إليه الواحد من هؤلاء أن يدعى أنه رأى مناما أو أنه وجد بذلك القبر علامة على صلاح ساكنه، فأما المنامات فكثير منها بل أكثرها كذب وأما ما يذكر من وجود رائحة طيبة خرق عادة بالقبر، فهذا لا يدل على تعيينه ويجزم ابن تيمية أن المشهد العسقلانى ليس مشهدا للحسين وذلك من وجوه عديدة.

منها على سبيل المثال أنه لو كان رأس الحسين هناك فلماذا تأخر كشفه إلى ما بعد مقتله بأكثر من ٤٠٠ سنة، ودولة بنى أمية التى كانت تعاديه زالت قبل ظهور ذلك من ثلاثمائة وبضع وخمسين سنة ثم إن خلافة بنى العباس لم تكن تعظم المشاهد سواء منها ما كان صدقا أو كذبا.. ولم يكن ظهور المشاهد بهذه الكثرة إلا عندما ضعفت خلافة بنى العباس وتفرقت الأمة وكثر فيها الزنادقة وفشت فيهم كلمة أهل البدع.

ثم إن ما اشتهر– والكلام لابن تيمية لا يزال– عن قبر الحسين أنه فى مشهد الامام على بمكان من ألطف عند نهر كربلاء وقد ذكر ابن جرير وغيره أن موضع قتل الحسين عفى أثره حتى لم يطلع عليه أحد على تعيينه بخبر، وأما رأس الحسين فالمشهور عند أهل التاريخ وأهل السير أنه بعث به عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية بالشام، واختلف أهل السير فى المكان الذى دقن فيه الرأس حيث يروى محمد بن سعيد أن يزيد بن معاوية بعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد نائب المدينة فدفن عند أمه فى البقيع، ويذكر أن أبى الدنيا من طريق عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن عمر بن صالح– وهما فى رأى ابن تيمية ضعيفان– أن الرأس لم يزل فى خزانة يزيد بن معاوية حتى توفى فأخذ من خزانته فكفن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق وادعت الطائفة المسماة «بالفاطميين» أن الرأس وصل إلى الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليها المشهد المشهور بمصر، وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على أنه لا أصل لذلك.. فقد أرادوا فقط أن يروجوا بذلك ما ادعوه من النسب الشريف وهم فى دعواهم كذبة خونة، وكل ما حدث أنهم جاءوا فى مكان مشهد الحسين المذكور فى القاهرة فوضعوا الرأس فيه وقالوا هذا رأس الحسين، فراج ذلك على الناس واعتقدوا فيه.

هذا ما يخص قبر الحسين فى القاهرة.. أما ما يخص قبر السيدة زينب فيقول ابن تيمية إن القبر المنسوب لها فى القاهرة كذب لا أصل له، ويقال إن موضعه كان ساقية فلما رأى صاحبها أنها لا تغل له مع التعب إلا اليسير زعم للناس أنه رأى زينب فى المنام تأمره أن يقيم لها قبة فى هذا المكان فأقامها وأعانه العوام ثم كان سادنا لها فجاءته الأمور الكثيرة.

ويوجه محقق الكتيب الصغير كلامه للعلماء والصوفية الذين يأكلون أموال الناس بالباطل أن يبينوا للناس الحقيقة ولا يخافون على مناصبهم أو الأموال التى تأتيهم من صناديق النذور وكل ذلك من أجل أن يخلص إلى نتيجة تصر عليها جماعة أنصار السنة وتدعو لها وتجند من أجلها الشباب وهى أنه سواء كان مشهد الحسين فى القاهرة صدقا أم كذابا.. وسواء كان مشهد السيدة زينب فى القاهرة صدقا أم كذبا فإن بناء المساجد على القبور ليس من دين الإسلام بل هو منهى عنه بالنصوص الثابتة عن النبى ﷺ.

والمشكلة ليست فى هذا الجدل التاريخى الدائر الذى لا يريد أن ينتهى.. بل يتجدد دائما من خلال كتيبات صغيرة فى الغالب توزع بمبالغ زهيدة للناس فى الشوارع والمواصلات العامة ترغيبا لهم فيها.. ولكن المشكلة فى العقم الفكرى الذى يكتنف جماعة أتباعها بمئات الآلاف فى مصر جعلت من محاربة الأضرحة هدفا وعقيدة لها.. وكأن الأضرحة ستهدم الإسلام أو ستضربه فى مقتل ويغفل هؤلاء أن المصريين لا يقدسون سوى الله ولا يعبدون سواه وما زياراتهم إلى أولياء الله الصالحين وأهل البيت إلا تأكيدا لحبهم، ثم إن من يصلى فى مسجد به قبر لا يصلى للقبر ولا لصاحبه ولكنه يصلى لله وحده.. والله أعلم بما فى القلوب.

إن هذه الرؤية الضيقة تصادر أحلى ما فى الإسلام المصرى من رحابة واستقرار وروحانية لا توجد عند شعب آخر من الشعوب وحتى لو سلمنا أن رأس الحسين لم تصل مصر وأن الفاطميين هم الذين ادعوا ذلك لتوطيد أركان دولتهم.. وحتى لو آمن المصريون بذلك فلن ينصرفوا مطلقا عن زيارة قبر الحسين أو قبر السيدة زينب.. لسبب بسيط أنهم سيعتبرون هذا المشهد رمزا للحسين أو للسيدة زينب وسيواصلون زيارتهما وقراءة الفاتحة أمامهما وطلب الرحمة لهما.. فالمصريون فى النهاية لن يكونوا طرفا فى صراعات سياسية أو لعبة مصالح تديرها جماعات لا تعمل لوجه الله بقدر ما تعمل لوجه نفسها ولمصالحها.

إن شيوخ السنة الذين يقفون من وراء ستار خفى خلف مثل هذه الدعوات لا يفهمون

كيف يفكر المصريون.. ولا يستطيعون إدراك أبعاد تكويناتهم النفسية.. ولذلك لن تلقى دعوتهم إلى تكفير من يزور قبر الحسين أو مشهد السيدة زينب أدنى اهتمام اللهم إلا حملها وإلقاءها عن قصد فى أقرب سلة مهملات.

الفكرة الثانية المفزعة التى يطرحها كتيب ابن تيمية الذى يحمل على كتفيه كل أفكار جماعة أنصار السنة المحمدية تتعلق بقتل الحسين ﷺ.. يقول ابن تيمية: إن كثيرا من تأويلات المتقدمين وما يعرض لهم فيها من الشبهات معروفة يحصل بها من الهوى والشهوات، فيأتون ما يأتونه بشبهة وشهوة والسيئات التى يرتكبها أهل الذنوب تزول بالتوبة وقد تزول بحسنات ماحية ومصائب مكفرة وقد تزول بصلاة المسلمين عليه وبشفاعة النبى يوم القيامة فى أهل الكبائر ولهذا كان أهل العلم يختارون فيمن عرف بالظلم ونحوه مع أنه مسلم له أعمال صالحة فى الظاهر مثل الحجاج بن يوسف الثقفى وأمثاله.. فكانوا لا يلعنون منهم أحداً بعينه بل يقولون كما قال الله تَعَالَى «ألا لعنة الله على الظالمين» فيلعنون من لعنه الله ورسوله عامة ولا يلعنون المعين وذلك لأن اللعنة من باب الوعيد، والوعيد العام لا يقطع به للشخص المعين وذلك يمكن أن يدخل فى قائمة التوبة أو الحسنات الماحية أو المصائب المكفرة أو الشفاعة المقبولة، ولذلك فإن طائفة من العلماء لا يلعنون يزيد بن معاوية قاتل الحسين، بل هناك طائفة منهم يقولون نحبه لما فيه من الإيمان الذى أمرنا الله أن نوالى عليه فهو ليس كافرا.

ويزيد عند ابن تيمية شخص تجتمع فيه الحسنات والسيئات فيثاب على حسناته ويعاقب على سيئاته ويحمد على حسناته ويذم على سيئاته وأنه من وجه مرضى محبوب ومن وجه بغيض مسخوط ولهذا فهو يدخل عند أهل التأويل تحت أولئك المجتهدين المخطئين. خطأهم مغفور لهم وهم مثابون على ما أحسنوا فيه من حسن قصدهم واجتهادهم فى طلب الحق وأتباعه.. بل إن ابن تيمية يستشهد بما قاله النبى من أنه إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر.

معنى ذلك أن يزيد الحاكم عندما قتل الحسين كان مجتهدا مخطئا.. فله أجر ومصيره سيكون الجنة.. وتخيل يزيد وهو يجلس إلى جوار الحسين فى الجنة.. منتهى العبث ومنتهى الاستخفاف فماذا يريد الذين يقفون خلف طباعة هذه الكتيبات هل يريدون أن نكون مسلمين على مزاجهم الخاص.. حتى لو خاصم ذلك عواطفنا ومشاعرنا.. أم يريدون أن يحكمونا بمنطقهم المريض.. الذى يجعل من زائر قبر الحسين مشركا.. وقاتله مجتهدا خانه التوفيق!

أم العواجز ....
فى موكب السبايا

أم العواجز فى موكب السبايا

تحملت ما تعجز الجبال عن حمله والقيام به.. شهدت مقتل أخيها الحسن بعد أن غدرت به زوجته.. ووقفت على اغتيال أخيها الحسين وهو يجز رأسه.. واقتحمتها مشاهد قتل صغار بيتها لكنها دفنت أحزانها فى قلبها ومضت لتحافظ على ما تبقى من أهل بيت الرسول إنها هى المرأة الشامخة .. السيدة زينب.

يضع المصريون فى غدوهم ورواحهم همومهم بين يدى السيدة زينب بنت على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء وأخت الحسن والحسين.. يناجونها فى كروبهم.. ويرسلون إليها بخفقات قلوبهم ويرجون منها المعذرة لأنهم يقصرون فى حقها.. اعتبروها أمهم جميعا.. فهم عاجزون بأكثر مما ينبغي وهى طاهرة وعارفة بأحوالهم ولذلك فهى أم العواجز التى يهرعون إليها.. وعندما يفرحون تجدهم قد توجهوا إلى ضريحها المعروف باسمها لتشاركهم فرحتهم يفعلون ذلك فقط لأنهم يعرفون أن السيدة زينب نفسها كانت رمزاً للبطولة.. شجاعتها كانت نادرة واجهت جيوش الظلم لم تخضع لها.. ولم تطلب من أحد الرحمة.. فقد كانت تعلم أن الأمر بيد الله وحده ومنه يكون الفرج.

بدأت مأساة السيدة زينب مبكراً.. ولم تكن كربلاء إلا الحلقة الأولى من الحزن الكبير بعد أن أحاط جيش يزيد بالحسين خرجت السيدة زينب من خيمتها وقالت فى أسى لعمر بن سعد قائد الجيش: يا عمر أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر؟ لم يجبها عمر بشىء فقد كان الموقف أكبر منه وأعظم وما هو إلا فتى مأمور من سيد ظالم وكأنه لم يكن كافيا على زينب أن تشهد مقتل الحسين فشهدته وهو يمثل به شر تمثيل.

مات الرجال إذن.. وبقيت زينب وبدلاً من أن تترك لأحزانها جروها إلى أحزان أعظم.. فبعد المعركة ساق الطغاة ذرية الرسول فى موكب ضم السيدة زينب وأختها أم كلثوم وابنتى الحسين فاطمة وسكينة ومن حظنا جميعا أن بقى فى الركب زين العابدين على بن الحسين ليحفظ ذرية الرسول من الفناء.. خرج الركب الطاهر على أقتاب الجمال بغير غطاء.. وعندما بدأوا السير.. مرت السيدة زينب على ما قطع قلبها.. رأت مصارع الشهداء.. جثث أهل البيت متناثرة وأشلاؤهم يختلط دمها بالتراب فقد بقيت الجثث ثلاثة أيام ملقاة على رمضاء

كربلاء قبل أن يدفنها جماعة من بنى أسد كانوا يقيمون بالقرب من أرض المعركة.

لم تجد السيدة زينب ما تقوله فصرخت والألم يمزق قلبها: يا محمداه.. هذا حسين بالعراء.. مقطع الأعضاء.. وبناتك سبايا.. إلى الله المشتكى وإلى محمد المصطفى وإلى على المرتضى وإلى فاطمة الزهراء وإلى حمزة سيد الشهداء، لم تجد إلا السابقين لتبثهم شكواها.. بعد أن أصمت الدنيا أذنيها عنها وفضلت أن تسمع للطغاة والأشقياء والفجار الذين استباحوا دين الله وجعلوا منه مطية يركبونها.

دخل موكب السبايا إلى الكوفة.. وما أن وقعت أنظار أهلها على آل البيت الشريف حتى أقبلوا يعطون الأطفال وهم على محاملهم بعض التمر والخبز والطعام فصاحت فيهم السيدة أم كلثوم: يا أهل الكوفة إن الصدقة حرام علينا ثم أخذت من أيدى الأطفال وأفواههم ما أخذوه من أهل الكوفة وألقت به إلى الأرض.. بكت نساء الكوفة بحرقة على ما صار إليه أهل البيت النبوى لكن السيدة أم كلثوم ردت لهن الصاع صاعين.. إذ قالت وقلبها يعتصره الألم: صه يا أهل الكوفة يقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء.

وقف أهل البيت أمام بن زياد حاول أن ينال منهم ويحقرهم لكن السيدة زينب تصدت له.. قال لها منتشيا: الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم، فردت عليه بثقة: بل الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيراً إنما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا.. لم يصبر بن زياد على ردها فقال لها: وكيف رأيت صنع الله فى أهل بيتك وأخيك؟ فقالت له رغم حزنها: ما رأيت إلا خيراً هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبروزا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلاح يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة.

لم تخشى السيدة زينب شيئا رغم أنها امرأة مهزومة أمام قائد منتصر لكن من قال إن أهل البيت كانوا يخشون فى الله لومة لائم.. لم يصبر ابن زياد على أهل البيت.. فقد أهانهم عندما أخذ يعبث برأس الحسين أمامهم قبل أن يبعث به إلى يزيد فى دمشق، والتى ما أن اقتربوا منها حتى طلبت السيدة أم كلثوم من شمر بن ذى الجوشن أن يحمل الركب بعيداً عن الناس حتى لا ينظرون إليهم وهم فى هذه الحال، لكن شمر أمر بعكس ما طلبته أم كلثوم

وسلك بهم الدروب الواسعة وكأنه كان يريد أن يجعل الجميع يشهدون على جريمته فى حق أهل البيت الشريف.

دخل الموكب على يزيد وعندما رأت نساء بيت معاوية رأس الحسين صرخن وولولن.. وقبل أن يتحدث يزيد.. صرخت فيه السيدة فاطمة الصغيرة: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد فقال لها: يا ابنة أخى أنا لهذا كنت أكره فقالت له: ما ترك لنا فرد أى اعتبار فى الرأى فقال لها: ما أتى إليكن أعظم مما أخذ منكن ويبدو أن أحد منافقى البلاط أراد أن يجامل يزيد فقال له فى جرأة: هب لى هذه الجارية يا أمير المؤمنين تكن خادمة عندى، سمعت فاطمة ذلك ففزعت ولملمت ثيابها ولم يكن أمامها إلا عمتها السيدة زينب فقالت لها باكية: يا عمتاه أو يتمت وأستخدم. فردت السيدة زينب فى ثبات عجيب على الشامى المنافق: كذبت ولؤمت ما جعل الله لك ذلك ولا لأميرك.

استفز رد السيدة زينب يزيد فقال لها: كذبت والله إن ذلك لى ولو شئت أن أفعل لفعلت فقالت له: كلا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدينت بغير ديننا فزاد غضب يزيد فقال: إياى تستقبليني بهذا الكلام إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، فلم تصبر عليه السيدة زينب فقالت له: بدين أبى وأخى اهتديت أنت وأبوك وجدك إن كنت مسلما؟.. زاد الغضب أكثر فقال يزيد اكذبت يا عدوة الله، ولما لم تكن زينب عدوة لله فقالت له: يا يزيد أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك، فكف عن الكلام وأخذ يعبث بقضيب كان معه فى رأس الحسين الشهيد.

كانت السيدة زينب ثابتة الفؤاد.. فقالتها ليزيد: كيد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك أمرنا ولا ترحض عنك عارها وهل رأيك إلا فند.. وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد يوم ينادى المنادى ألا لعنة الله على الظالمين فالحمد لله رب العالمين الذى ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة.

حفظت السيدة زينب بجرأتها وشجاعتها نسل الرسول من الاندثار وعندما خيروها اختارت مصر لتستقر فيها لما سمعت عن أهلها من محبة لآل بيت رسول الله.. وعندما جاءت أنزلها أهلنا منزلاً كريما حتى ماتت بها.. وهم الآن يسعون إليها محبة وطمعاً فى البركة والخير يفعلون ذلك دون علم منهم بجهادها.. فيكفيهم أن بعضا من عطر الرسول يسكن أرضهم.

القرآن فى مصـــــــــر

القــرآن فى مصــــر

يضع المصريون القرآن فوق رءوسهم، يتعاملون معه بتقديس خاص، فهو كتاب ربهم الذى به يهتدون، لم يكتف المصريون بقراءة القرآن والعمل بما فيه فقط، ولكنهم أسسوا مدرسة لقراءته.. جعلت من ترديد آياته فناً، يسعى القاصى والدانى للتمتع به والتسامى بروحانيــاته، لقد قامت فى مصــر دولــة كاملة اسمها دولــة التــلاوة، تولى رئاستها قراء عظماء.. جعلوا من كتاب الله واحة جميلة يركن إليها المتعبون، وينفض فيها الأشقياء عن كواهلهم تراب السفر.

لم يكن غريباً بعد ذلك أن يقال إن القرآن نزل فى مكة وقرئ فى مصر، فقد اعتنى المصريون بالقرآن الكريم، وخرجت من بينهم أصوات ملائكية تتغنى به، بل وصل الأمر إلى ظهور محاولات لتلحين آياته المفعمة بالموسيقى.. والغنية بالنغمات الحزينة.. والثرية بمواطن الفرح، لقد كان هذا طبيعياً، فالمصريون عندما يحبون يهيمون عشقاً، وقد هاموا عشقاً بالقرآن فاعتنوا به، تباركوا بكلماته، وضعوه فى سياراتهم وتحت وسائدهم وعلى صدور نسائهم، وتميمة فى أسقف بيوتهم.

ولأن للمصريين طبيعة خاصة فى كل شىء.. فقد تعاملوا مع القرآن تعاملاً خاصاً لن تراه فى أى بلد من بلاد العالم، جعل المصريون القرآن حاضراً معهم فى كل وقت، يأخذون منه ما يريدون لما يريدون، كل منا يفهم القرآن على طريقته الخاصة ولتحقيق أغراضه الخاصة أيضاً.. ولن تتعجب عندما أقول لك مثلاً إن المصريين أدخلوا آيات القرآن فى النكت التى يرددونها.. المجمل يحتاج إلى بعض التفصيل.

قد نقرأ القرآن وقد نسمعه من الإذاعة.. لكن عندما نبحث عنه فى حياة المصريين العمليــة، سنجــده فى صالــون الحلاقــة على الحائط مختصراً فى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ بل إن بعض الحلاقين يستخدم الآية الكريمة من ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ ويضع كلمتى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ فقط على اعتبار أن قص الشعر ورد فى القرآن، وعندما تترك صالــونات الحلاقــين وتدخــل محــلات عصير القصــب ستجــد القــرآن تم اختصاره فى ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾.

تسير الأمور هكذا على طول الخط فالقرآن عند بداية الاحتفالات أياً كان نوعها وهدفها ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وعند أى حاكم عادلاً كان أو ظالماً ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ وعند المرضى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ وعند أصحاب الصيدليات وعيادات الأطباء ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وعند الطلبة ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ وعند رجال الأعمال ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ حتى لو كان عملهم هذا لا يرضى الله ولا يرضى رسوله، وعند أصحاب محلات الدواجن ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وفى النهاية عندما تسأل الشباب لماذا يعاكسون البنات يقولون لك ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾!

هذه أمثلة فقط.. حصلنا عليها من الصيدليات وعيادات الأطباء وصالونات الحلاقين ومحلات الدواجن، مكتوبة بالفعل.. يطلب من كتبوها البركة بسر القرآن الكريم، وقد يعتبر بعض المتشنجين أن كتابة هذه الآيات على المحال التجارية فيه نوع من الانتهاك للقرآن، لكن من قال هذا، فالمصريون البسطاء يتباركون بكتاب ربهم، جلباً للرزق وليس بحثاً عن اللعنة، فصاحب محل العصير قد يعتبر كتابته لآية من القرآن على محله تقرباً إلى الله.. بينما يمكن أن يعتبر الآخرون ذلك نوعاً من المعصية.

البسطاء ليسوا وحدهم الذين يأخذون من القرآن ما يريدون لما يريدون، فقد فعلها أيضاً صناع السينما ومبكراً جداً، فقد لجأوا إلى تسمية أفلامهم بكلمات أو آيات من القرآن الكريم. وذلك فى أفلام «المال والبنون» الذى أخرجه إبراهيم عمارة عام ١٩٥٤ وكان يعالج مسألة عقوق الوالدين، وقد قدم حسن الإمام هذا الفيلم قبل عامين فقط أى عام ١٩٥٢، وكان باسم «غضب الوالدين»، وفى عام ١٩٨٣ قدم محمود أبو زيد فيلمه «كيدهن عظيم»، ومن الأفلام التى أخذت أجزاء من الآيات الفيلم الذى قدمه بشير الديك والمخرج محمد حسيب وكان اسمه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾.

صناع السينما لم يستخدموا كلمات القرآن كأسماء لأفلامهم فقط ولكنهم وضعوا فى بدايتها أو نهايتها آيات بعينها للوعظ والإرشاد أحياناً وللتذكير بقوة الله أحياناً أخرى، فى فيلم «الإنس والجن» الذى قدمه عادل إمام عام ١٩٨٥، وضعت الآية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ وفى فيلم العار الذى أخرجه على عبد الخالق وكتبه محمود أبو زيد وضعت الآية ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا *

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فى نهاية الفيلم.. تنعى أبطاله وتحذر من وقوع المشاهدين فى مصائر تشبه مصائرهم.

قد تصف عامة الناس بأنهم جهلة وقد تصف صناع السينما بأنهم لا يعرفون ربنا ولذلك يتعاملون هذا التعامل مع القرآن، لكن المفاجأة أن أهل القرآن والقائمين على تحفيظه لهم أيضاً تعاملهم الخاص ونوادرهم مع القرآن، ولو جالست حفظة القرآن ستجد من أمرهم مع القرآن عجباً، فهذا شيخ يقول لزميله «سمعت اللى بعد يوسف فى ودانك» وعندما تبحث عن اللى بعد سورة يوسف فى ترتيب سور القرآن الكريم ستجدها سورة الرعد.. فبدلاً من أن يقول له سمعت الرعد فى ودانك يقول له سمعت اللى بعد يوسف، بل إن بعض حفظة القرآن يحاولون استعراض مهاراتهم فى الحفظ، سأل أحدهم صاحبه «أين تجد فحم الكوك» فى القرآن، فرد عليه بأن القرآن ليس فيه فحم كوك نهائياً، فقال له السائل.. بل موجود، وإذا أردت أن تعرف فاقرأ قول الله تَعَالَى «وتركوك قائماً»، وعندما تفصل «وتر» عن «كوك» ستحصل على فحم الكوك فى القرآن بسهولة، وكما سأل أحد الحفظة عن «فحم الكوك»، سأل آخر صاحبه قائلاً له: «أين تجد بيض أمك» فى القرآن ولما لم يجد المسئول إجابة، قال له السائل اقرأ قول الله تَعَالَى «بيض مكنون» وستجد فيها بيض أمك.. فإذا حذفت «النون والواو والنون» ستصبح الآية «بيض مك»!

دلال حفظة القرآن على كتاب الله لا ينتهى عند هذا الحد، فهم يتبارون فى الأسئلة والإجابات، سأل أحدهم صاحبه أين تجد «لأجل الورد ينسقى العلاق فى القرآن» ولما عجز المسئول عن الإجابة قال السائل: ألم تقرأ قوله تَعَالَى يخاطب النبى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فالورد فى هذه الآية هو الرسول ﷺ ومن أجله يرحم الله العلاق وهم قومه!

ومن اللطائف التى يعرفها أهل القرآن أن طالباً كان يقرأ على شيخه وعندما جاء عند قوله تَعَالَى «فخر عليهم السقف من فوقهم» قرأها من تحتهم فقال له الشيخ: لا، فقال الطالب من أمامهم، فقال الشيخ: لا، فقال الطالب: من خلفهم فقال له الشيخ: لا ثم صرخ فيه: يا أخى إن لم تكن حافظا فهندس، أى إن لم تكن حافظاً للقرآن بشكل جيد، فهندس المسألة فالسقف لا يسقط إلا من أعلى، وأصبحت هذه الكلمة مثلاً يقال عند أى خطأ غير معقول أو غير منطقى يقع فيه قارىء القرآن.

استعراض عضلات حفظة القرآن جعلهم يدخلون قاموس النكت المصرية الذى لا يترك شيئاً فى حاله، صحيح أن النكت التى تم استخدام آيات قرآنية فيها كثيرة ومتعددة، ومعظمها يدخل تحت طائلة الحساب.. لكن هناك نكتا يمكن أن تروى، فقد اجتمع ثلاثة مشايخ على مائدة واحدة وكانت أمامهم وزة، فقال أحدهم: كل واحد فينا يجيب آية على جزء من الوزة يأخذه، قال الأسرع «فك رقبة»، فحصل على رقبة الوزة وأكلها، وقال الثانى «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» فأخذ الجناح وأكله، وأخذ الثالث يفكر فلم يجد آية واحدة فيها جزء من الوزة، نام الثلاثة وبعد فترة قام الشيخ الثالث وأكل الوزة كلها.. وفى الصباح لم يجدوا الوزة فسألوه لماذا أكلت الوزة كلها.. فقال لهم.. قرأت عليها الآية الكريمة ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾.

* * *

نقطة نظام قبل أن تتسرع وتتهمنا بأننا نسيء إلى القرآن، ونتهكم عليه وننقل النكت التى يقولها العامة عنه، أولاً هذه النكتة لا يرددها العامة، لأنهم ليسوا حافظين للآيات بشكل جيد.. ولكنها نكت تترد فى جلسات المشايخ.. التى لا تخلو من نكت أخرى لا يجوز لنا ذكرها لتطاولها على قدسية القرآن وحرمته، قد يقول البعض إن نقل النكت ونشرها أمر لا يليق، فهو يجعل الذى لا يعرف يعرف، ومن لم يصادفه الحظ ويسمع.. يسمع من جديد.

ورغم صحة ذلك لكن من قال إن المعرفة تضر.. فالمصريون أصحاب ظاهرة فريدة من نوعها، فهم يقدسون القرآن ويضعونه قبلة لهم.. لكنهم فى نفس الوقت لا يترددون فى التندر بآياته والاقتطاع منها لما يفيد تجارتهم وحياتهم ومصالحهم، قد تكون هذه الظاهرة فى حاجة إلى فهم ودراسة وبحث، لا يقوم به علماء الدين وشيوخ الأزهر، فهم سيحرمون كل اقتراب من القرآن ليس على قواعدهم وتفسيرهم ورأيهم، الدراسة يجب أن يقوم بها علماء اجتماع.. أصحاب خبرة بأحوال الناس وتقلباتهم.. ودوافع تصرفاتهم! ما الذى يجعل المصريين يجلسون فى سرادقات العزاء يسمعون القرآن وهم يدخنون السجائر ويضعون قدما على قدم.. وعندما تمر عليهم آية تهز أفئدتهم تجدهم ينتبهون ويرفعون أصواتهم بالثناء على القارئ ويطالبونه بالمزيد!

نعرف أن المصريين لهم بصمتهم الخاصة على كل شيء، فقد جاء الإسلام من مكة..

لكننا أعدنا صياغته وقرأنا قرآنه بطريقتنا، ثم صدرناه مرة أخرى إلى أهله وقمنا بتعليمهم أصوله وقواعده، حتى عندما دخل القراء السعوديون في سباق مع القراء المصريين، لم يثبتوا نجاحاً.. ولم يكن لهم حول ولا طول.. فقد أخذوا وقتهم ثم مضوا وبقيت دولة التلاوة في مصر تتحدى حتى الذين نزل القرآن في أرضهم!

قد تكون هناك تجاوزات في حق القرآن من جانب عدد كبير من المصريين. لكنها في الحقيقة تجاوزات تحدث بحسن نية وبدون سوء قصد، فلا يمكن أن يتصور مواطن مصري بسيط يعمل حلاقاً أنه عندما يعلق على حائط صالونه الآية الكريمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أنه يغضب الله بذلك.. ولو قال لك أحد هذا لرددت عليه بعفوية وبساطة وتلقائية.. يا راجل.. ربك رب قلوب!

حقيقة ......
عمرو بن العاص

حقيقة عمرو بن العاص

غضب كثيرون من مشاهدى مسلسل «رجل الأقدار» عندما وضع مؤلفه سامى غنيم على لسان بطله نور الشريف الذى قام بدور عمرو بن العاص جملة.. إعتبروها لا تليق.. لقد فزعوا عندما رأوا عمرو بن العاص يأخذ بيد زوجته قائلاً لها: تعالى أفسر لك أحلامك يا قطتى التى تأكل وتنكر.. فى إشارة إلى لحظات حميمية يقضيها الرجل مع زوجته.. ومصدر الفزع أن الناس ترفض أى حديث يمكن أن يضع رتوشاً على شخصيات الصحابة.. فهم عندهم كأنهم ملائكة تمشى على الأرض.. وإذا قلت إن الصحابة كانوا بشراً مثلنا يأكلون ويشربون ويمارسون حياتهم الطبيعية بل ويتفننون فيها.. ستجد من ينظر لك شذراً منكراً كل ما تقوله.

ولا أدرى ما الذى يمكن أن يقوله جمهور عمرو بن العاص عندما يتعرفون على الوجه الآخر له، وهو وجه لن أرسمه من عندى.. ولكن ترسمه كلماته ومواقفه.. نقاط ضعفه وطموحه الذى كان بلا حدود.. تطلعاته ورغباته.. حيله ودهاءه، خططه التى رسمها بعناية شديدة كى يحقق أحلامه التى كانت عريضة منذ كان طفلاً يلعب فى شعاب مكة وحتى وصوله إلى قمة السلطة حاكماً لمصر ومسيطراً على مقدراتها وعابثاً بثرواتها من أجل إرضاء السلطة الدينية التى كانت مستريحة فى مكة للأموال التى تتدفق من مختلف الأمصار التى تم فتحها.

دخل عمرو بن العاص الإسلام بعد أن أيقن أن كفته أصبحت راجحة وأن النصر سيكون له لا محالة.. فهو كل يوم يكسب أرضاً جديدة.. ولأن شخصية الفارس عند عمرو كانت تأبى عليه أن يجد نفسه مهزوماً فى يوم من الأيام.. فقد قرر أن يدخل الدين الجديد.. وبالفعل دخله ليس من بابه الواسع حيث الاعتقاد الجازم بسمو الرسالة ولكن من الباب الخلفى له كدين بدأت القوة تدب فى أوصاله.. وتملأ شرايينه.. بما يعنى أن الغلبة لابد أن تكون له فى النهاية.

تحرك عمرو بن العاص إلى الإسلام ليحفظ مشروعه الخاص وهو أن يكون فى الحياة قائداً عظيماً لا يشق له غبار.. ولذلك قبل أن يتفقه فى أمور الدين سارع ليكون قائداً لبعض السرايا التى كان يبعث بها الرسول لتأمين المدينة.. وفى إحدى سراياه حدث وأن قام من نومه جنباً.. وبدلاً من أن يغتسل ليزيل أثار جنابته اكتفى بالوضوء تمهيداً ليؤم المصلين فى صلاة الفجر.. كان يمكن أن يتأخر ليؤم المصلين غيره من الجنود وفيهم من هو أقدم منه

إسلاماً وأكثر منه فقهاً.. لكنه تمسك بحقه حتى النهاية فهو القائد.. فلابد أن يكون الإمام.. وبعد أن عاد إلى المدينة عرض الصحابة الأمر على الرسول.. فسأل عمراً فيما حدث.. فقال للنبى: إننى اكتفيت بالوضوء ولم أغتسل لأن الماء كان بارداً وخشيت إن اغتسلت به أن أهلك.. فاخترت الوضوء فقط أقر الرسول عمراً على ما فعله مبتسماً.. فالرسول القائد كان يعرف أقدار رجاله جيداً ولذلك فهو لم ينتظر من عمرو بن العاص اجتهاداً فقهياً.. ولكنه كان يعتمد عليه كقائد حربى وعبقرية سياسية.

بهذه المساحة السياسى وليس الفقيه عاش عمرو بن العاص طوال حياته.. حتى عندما حاول الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فتح مصر.. دخل له من باب المصلحة.. لا ننكر أنه كان يضع مصلحة الإسلام العليا أمام عينيه.. لكنه وضع أمام عمر بن الخطاب أهمية تأمين الفتوحات الإسلامية فى الشام بالسيطرة على مصر.. لأن الخطر لابد وأن يأتى منها.. ثم أنه وضع أمام الخليفة وجوه الخير المختلفة والمتعددة التى يمكن أن تعود على حاضرة الخلافة إذا سقطت مصر فى أيدى المسلمين.. فجوها عجب ونساؤها لعب ورجالها عبيد من غلب.. وبهذا التصور يمكن أن نقبل ما حدث فى عام الرمادة.

فى هذا العام اعتصرت المجاعة المدينة وما حولها.. نظر عمر بن الخطاب فيمن حوله فوجد الجوع يكاد يأكل بطونهم فأرسل إلى عمرو بن العاص يسأله المدد.. وما بين السطور كان.. أين كل الخير الذى تحدثت عنه قبل أن تقدم على فتح مصر؟ وجاءت الإجابة من عمرو إلى عمر أسرع من البرق.. قال له: سأرسل إليك بقافلة أولها عندك فى المدينة وآخرها عندى فى مصر.. قافلة تحمل من كل ما تلذ الأعين وتشتهى الأنفس.. وأجدنى أسأل نفسى من أين له بكل ذلك.. لقد دخل عمرو مصر وعندما ظهر خراجها أخذه ليوزعه على جوعى المسلمين.. وهو عمل جليل لا ننكره.. لكننى فقط أضع علامة استفهام أمام وضع المصريين الذين كانوا وربما حتى الآن يخرجون من يد مستغل جبار إلى يد مستغل أكثر عتواً وتجبراً.

ظل عمرو بن العاص فى مصر طوال خلافة عمر بن الخطاب.. عاش فيها أيام سعده.. لكن ولأن للأقدار حكماً لا يرده أحد إنقلبت الأيام على عمرو عندما وضع عثمان بن عفان أخاه فى الرضاعة عبد الله بن أبى السرح على كتفى عمرو فى مصر.. كان عثمان يقرب أقاربه ويجعلهم بطانته راجياً أن يكتب له ذلك فى سجل حسناته من باب صلة الرحم.. لكنه أذى الإسلام بما فعله من حيث لا يدرى..

ترك عمرو بن العاص مصر وهو عازم على أن يعود إليها مهما كانت التضحيات.. وعندما اشتعلت الفتنة حول الخليفة الثالث عثمان بن عفان لم يتردد عمرو فى إشعال نارها وإذكائها.. كان يعرف أن عثمان لابد أن يقتل فمضى مع الفتنة حتى أخرها.. ففى اللقاء الذى حضره فى بيت عثمان للتشاور فى إصلاح الأمر وقمع الفتنة.. كان المدعوون إلى المؤتمر هم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص.. وتوالت الكلمات.. قال لهم عثمان: إن لكل إمرىء وزراء ونصحاء وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى.. وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعزل عمالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على»، وقال معاوية: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلى» وقال عبد الله بن عامر: رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمهرهم فى المغازى حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه وقال عبد الله بن سعد: أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم».. كل واحد منهم قال ما عنده بما يحقق أهدافه.. وكان لعمرو بن العاص أن يتكلم قال: أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل.. فإن أبيت فاعتزم عزماً وامضى قدماً».

كان رأى عمرو بن العاص رأى رجل عينه على الخليفة والعين الأخرى على الثوار لا يريد أن يخسر أحداً.. لأنه يرغب فى أن يكسب الجميع.. ليكسب وحده فى النهاية.. ولذلك لم يكن غريباً أن يبقى عمرو إلى جوار عثمان بعد أن يتفرق المجتمعون ثم يقول للخليفة: والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز على من ذلك ولكنى قد علمت أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً».

هل كان عمرو بن العاص مخلصاً فيما يقوله لعثمان بن عفان؟.. بالطبع لا.. فقد كان مخلصاً فقط لعمرو بن العاص يعمل من أجله.. فهو يلعب على كل الحبال.. والحبل الذى يظل مشدوداً يمسك بطرفه فى النهاية ولا يفلته.. ولذلك عندما رأى كعب الثوار يعلو على كعب عثمان ويحاصرونه لم يتردد فى أن ينقلب علانية على الخليفة المحاصر.. وقف ذات مرة فى المسجد يخاطب عثمان بن عفان وهو محبوس فى بيته قائلاً: اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك فتب إلى الله نتب، ثم ترك عثمان فى المدينة بين الذين يطلبون رقبته ومضى إلى فلسطين.. ولا ينكر ما قاله بنفسه بعد ذلك: والله إنى كنت لألقى الراعى

فأحرضه على عثمان.. لم يتوقف دور عمرو بن العاص فى الفتنة عند ذلك.. فبعد أن قتل عثمان إنضم كلية إلى معسكر معاوية وكان ذلك طبيعياً.. فالصراع كان بين الدين والدنيا.. بين على ومعاوية.. وعمرو رغم إسلامه.. لكنه كان يسعى وراء الملك والسلطة والقيادة.. وهذه كان سيمنحها له معاوية وليس على.. لأن عليا لم يكن راضياً عن أداء ولاة عثمان.. ومؤكد أنه عندما يعتلى أريكة الخلافة.. لن يتردد فى إبعادهم وعزلهم.

لعب عمرو بن العاص على المضمون إذن.. ووضع فكره وسيفه فى خدمة معاوية.. ودار القتال ويصل تاريخ الإسلام إلى موقعة صفين. وفى وقعة «الهرير» وبعد أن حاصرت الهزيمة جيش معاوية رفع جنوده المصاحف على الحراب طالبين تحكيم القرآن فى المعركة الدائرة.. لم يرض على بالتحكيم اعتقاداً منه أن فى الأمر خدعة.. لكن أنصار التحكيم تكاثروا عليه وقالوا له صراحة: يا على أجب إلى كتاب الله ﷻ فقبلناه والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك».

قبل على التحكيم وهو كاره.. اختار أهل الشام عمرو بن العاص نائباً عنهم واختار أنصار على أبا موسى الأشعرى.. لكن عليا رفضه لأنه لا يثق فيه قال: لقد فارقنى أبو موسى وخذل الناس عنى ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك.. رد عليه أنصاره: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى إلى الآخر.. وجد على إصرار قومه على أبى موسى فرضخ لهم قائلاً فى تسليم تام: اصنعوا ما بدا لكم.

اجتمع الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى فى منطقة «دوقة الجندل» لتكون وسطاً بين العراق والشام.. كان أبو موسى الأشعرى يرى أن سلامة الإسلام فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال.. تظاهر عمرو فى البداية أن هذا رأيه أيضاً.. اجتمع الحكمان مرات عديدة.. امتدت بينهما الحوارات وتشعبت وفى النهاية اتفقا على يوم يعلنان فيه القرار.. الذى كان يقضى بأن خلع على ومعاوية أمر لا مناص منه.

وجاء اليوم الموعود تقدم أبو موسى الأشعرى قائلاً: أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ونستقبل بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً.. وبعد أبى موسى تقدم عمرو

قائلاً: إن هذا- يقصد أبو موسى- قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلع.. وأثبت صاحبى معاوية فإنه ولى عثمان بن عفان ﷺ والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه».

تحول البحر الهادىء إلى عاصفة.. وجم الحاضرون.. وكان لابد لأبى موسى الأشعرى أن يتحدث فهو المحكم المخدوع والمضحوك عليه قال لعمرو فى غضب: مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.. فابتسم عمرو ابتسامة من يعرف أنه غدر وخدع.. وقال فى هدوء يحسد عليه: إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً!

الموقف مفزع بالفعل فمصير الإسلام كله يحدده كلب وحمار.. وصفا أنفسهما بذلك لم يقدر عمرو بن العاص المسئولية الملقاة على عاتقه.. لقد تحول الإسلام على يد عمرو بن العاص من خلافة راشدة إلى ملك عضوض ركب عليه بنو أمية وزعيمهم معاوية بن أبى سفيان.. هذه الوقائع ليست جديدة.. فهى موجودة فى بطون الكتب التراثية والحديثة على السواء.. وكان الغريب حقاً أن يطالب الأزهر الشريف بحذفها كاملة من حلقات مسلسل «رجل الأقدار» الذى يصور حياة عمرو بن العاص.. وكان المؤسف بعد ذلك أن توافق رقابة التليفزيون على الحذف وتنفذه.

إن أحداث التحكيم ووقائعه ليست إلا وقائع تاريخية ليس من حق أحد أن يحجبها أو يمنعها أو يفرض وصايته عليها.. إنها ليست أمراً مرتبطاً بالعقيدة.. وحتى هذه الأمور فيها نظر.. قد يكون رجال الأزهر تحكمهم رغبة فى الحفاظ على صورة الصحابة التى تعلمناها فى كتب الدراسة المعلية والكتب التى دخل أصحابها إلى حياتهم من باب القداسة.. وهى رغبة ليست فى صالح الإسلام ولا تخدم مستقبله.. إن عمرو بن العاص كان محارباً فذاً لا ينكر ذلك أحد.. بل إنه لم يكن يتردد مطلقاً فى أن يستخدم كل الحيل والأساليب الخداعية لينقذ نفسه.. لقد إلتقى على بن أبى طالب بعمرو بن العاص فى معركة «صفين».. السيف فى مقابل السيف.. والعزم فى مقابل العزم.. حمل على عليه فأسقطه أرضاً.. وقبل أن ينزل على بسيفه على عمرو إذا به يكشف ثوبه عن عورته فيتراجع على بن أبى طالب بسيفه حتى لا يتطلع إلى عورة عمرو.. عرف عمرو أن عليا يغلبه الحياء وأنه لابد وأن يتراجع.. وهذا ما حدث بالفعل.

إن الصحابة الكرام ﷺ جميعاً لم يكونوا فوق مستوى البشر.. بل كانت لهم أخطاؤهم

التى لم ينكروها.. كانت لهم هناتهم التى لم يتبرأوا منها.. كانوا يدركون أنهم ليسوا أنبياء.. بل هم جنود نبى.. كان يصر على أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد فى شعاب مكة.. ولا أدرى هل لا يفهم علماء الأزهر أبعاد الشخصيات الإسلامية ودوافعهم أم أنهم يريدون أن يريحوا رءوسهم؟.. ولذلك فهم يغلقون الباب تماماً.. ويسدون كل منافذ الهواء.. المشاهد تم حذفها من المسلسل.. لكنها لن تحذف من الكتب وهى على ما أعتقد فى متناول أيدى الناس.

مكة .....
مدينة خلقها الله

مكة.. مدينة خلقها الله

من يشد الرحال إليها يظل قلبه معلقاً بها.. ومن يعجز عن زيارتها ولو مرة واحدة يظل من أحلامه القريبة إلى قلبه أن يدخلها ولو مجرد عابر.. إنها مكة.. وما غيرها.. المدينة التى صنعها الله بيده.. ورعى شئونها.. وحفظها على عينه.. وأهداها إلى أحب أنبيائه إليه وعلق فى رقبتها كلمة السر ساحرة المفعول «واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم».. فبدون سابق معرفة.. تجد نفسك تهفو إليها.. بلا سبب ظاهر.. ولا مبرر مقنع.. لكنك لا تجد نفسك إلا محباً لها.. وراغباً فى دخولها.

لا يعرف المسلمون عن مكة إلا أنها بلد الله الحرام.. نزل فيها الوحى على نبيه ﷺ.. وصافحت السماء من خلالها الأرض بكلمات قرآنية سامية وآيات إلهية راقية تأخذ بيد البشر من ورطتهم الدنيوية إلى حيث رحابة الحياة فى الآخرة تحت جناح الله وظله.. تحن إليها القلوب.. فهى البلد الذى كان موطأ قدم الرسول ﷺ.. شهدت طفولته وشبابه وسنوات دعوته الأولى.. وتابعت عن قرب دموعه وهو يتركها مهاجراً قائلاً: «أنت أحب بلاد الله إلىَّ ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» وطلب من الله عنها العوض.. فإذا كان ترك أحب بلاد الله إلى نفسه فلا أقل من أن يسكنه الله أحب البلاد إلى الله.. فكانت المدينة المنورة.

ولأن الرسول ﷺ كان يحمل مكه فى قلبه فى حله وترحاله.. فعندما فتح الله عليه مكه أراد أن يولى عليها أحد أصحابه، فجاء بعتاب بن أسيد وقال له: «يا عتاب أتدرى على من استعملتك؟ على أهل الله تعالى فاستوص بهم خيراً».. وفى ساعة الفتح الأعظم قال ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط إلا من عرفها ولا يختلى خلاها».

مكة قديمة قدم الحياة.. ويرجح مؤرخوها أن السكن بها يرجع إلى أيام سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل عليهما السلام.. اللذين عاشا فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، قصة مكة تبدأ إذن من قصة السيدة هاجر عليها السلام.. تلك المرأة المعجزة التى أهدتها مصر إلى العالم لتكون أماً للأنبياء جميعاً وجدة للرسول ﷺ.

لكن كيف دخلت السيدة هاجر إلى التاريخ؟.. وكيف عاشت فى مكه؟.. تقول أخبار أهل الأخبار إن إبراهيم عليه السلام عندما نجا من نار الملك النمرود بكلمة الله أن تكون برداً وسلاماً عليه، طلب منه النمرود أن يخرج من أرضه حتى لا يفسد عليه شعبه.. صحبته فى رحلته السيدة سارة وكانت قد آمنت به.. وخرج معهما ابن أخيه لوط عليه السلام.. عمل سيدنا إبراهيم بالتجارة فزاد ماله وبعد سنوات قضاها فى أرض حوار شد الرحال إلى أرض مصر.. كانت السيدة سارة شابة جميلة حسناء ذات قد واعتدال.. حتى قيل أنه لم تكن فى زمانها امرأة أجمل منها، وعندما دخل سيدنا إبراهيم بأهله إلى مصر قال له أهلها: إن ملك مصر من عاداته إذا سمع بامرأة جميلة يتزوج بها قهراً وكان اسمه «طوطيس»، وكان له حراس يقيمون على الطرقات ليأخذوا إليه الجميلات من المسافرات!.

عندما دخل سيدنا إبراهيم مصر وضع سارة فى صندوق ليخفيها عن الملك فلما دخل سيدنا إبراهيم بين يدى الحراس أرادوا فتح الصندوق ليروا ما فيه، لم يستطع سيدنا إبراهيم أن يمنعهم.. فتحوا الصندوق فوجدوا السيدة سارة فيه.. حملوها إلى الملك فسألهم: من هذه المرأة؟ فقالوا له كما قال لهم سيدنا إبراهيم عندما سألوه: هذه أخت إبراهيم.. فطلب منه الملك أن يزوجه إياها.. فقال له إبراهيم، إنها متزوجة.. لم ير الملك فى ذلك عيباً فأخذ سارة قهراً.. حاول الملك أن يأخذها أكثر من مرة لكن- وكم تقول الرواية- تيبست يداه، أدرك الملك أنه لن يستطيع أن يحصل من سارة على شيء، فتاب الملك وأكرم إبراهيم وزاد على ذلك أن أهداه السيدة هاجر التى أكرمها الله بإبراهيم عليه السلام فخرجت على يديه من عالم الرق والجوارى إلى أن تكون من سيدات الدنيا كلها.

خرج سيدنا إبراهيم من مصر بزوجته سارة سالمة وجاريته هاجر.. أقام فى منطقة تسمى «وادى السبع»، زاد رزقة وزادت تجارته.. تزوج إبراهيم بالسيدة هاجر بعد أن وهبته سارة إياها.. كانت هاجر مطيعة لسيدتها فهى فى النهاية كانت أدنى منزلة منها.. وكانت سارة تعطف على جاريتها.. لكن الأمر تغير تماماً عندما أصبحت هاجر أماً لإسماعيل وبقيت سيدتها دون ابن، شعرت هاجر بالقوة فأصبحت تعارض سارة وتراجعها.. فغضبت عليها سارة وأقسمت أن تقطع قطعة من لحمها.. لكنها عندما هدأت وجدت نفسها فى حيرة، فكيف تبر بقسمها على بشاعته فأنقذها سيدنا إبراهيم بأن قال لها: اثقبى أذنها ففعلت، لم يهدأ بيت النبى الزوج، وقالت سارة إنها لن تستطيع أن تعيش مع هاجر فى بيت واحد..

فأوحى الله إلى سيدنا إبراهيم ألا يخالف سارة وأن يخرج بهاجر وابنها إلى مد. لحرم.

أركب إبراهيم ولده إسماعيل وأمه على بعير وأخذ معه سقاية وجرابا فيه دقيق وسار إلى مكة التى كانت وقتها وادياً غير ذى زرع.. صنع لهما بيتا من عريش من الشجر وترك لهما السقاية والجراب المملوء دقيقاً.. وقبل أن ينصرف شعرت هاجر أن إبراهيم سيتركها وولدها فى هذه الصحراء القاسية ويمضى، فاستوقفته قائلة: كيف تذهب وتتركنا لهذا المكان الذى لا جليس فيه ولا أنيس.. ولا ماء ولا نبات.. ثم قالت له: هل أمرك الله بهذا؟ فقال لها. نعم. فحسمت الأمر كله: إذن لن يضيعنا.

ترك إبراهيم أهله وقطعة من قلبه ولابد أنه التفت إليهم وهو يدعو لهم بدعائه الذى ظل لأهل مكة حتى اليوم. قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾. أصبحت السيدة هاجر وحيدة تواجه مصيرها الذى وضعه سيدنا إبراهيم فى يد الله ثم انصرف.. بعد ثلاثة أيام فقط فرغ ما معها من ماء وزاد. فجرت تبحث عن عون السماء.. سعت بين الصفا والمروة ست مرات.. وفى السابعة وجدت الماء تفجر بين قدمى طفلها الرضيع.. فرضيت بعطاء ربها قائلة له «زم.. زم.. ليظهر زمزم للوجود».

بعد أن عم الخير المكان مرت على هاجر جماعة من بنى خزاعة من أولاد جرهم.. أقاموا عندها وعندما سألوها: لمن كل هذا الماء؟ قالت لهم: إن الله تعالى خصنى به.. فقالوا لها، أتنزل عندك حتى نجعل لك نصيباً من مواشينا فقالت لهم: نعم. فنزلوا عندها وضربوا حولها المضارب وأقاموا عندها.. وفى حمى بنى خزاعة كبر سيدنا إسماعيل عليه السلام وتعلم منهم اللغة العربية والفروسية.. وتزوج بنتا من بناتهم ورزق منها أولاداً.. ولذلك أصبح طبيعياً أن يعرف إسماعيل عليه السلام بأبى العرب.

لم ينس إبراهيم عليه السلام إسماعيل وأمه السيدة هاجر.. وبعد سنوات استأذن من زوجته السيدة سارة أن يزور ابنه إسماعيل وزوجته هاجر فأذنت له.. لكنها اشترطت عليه ألا يكلم هاجر ولا ينظر إليها.. وعد إبراهيم عليه السلام سارة بأن يفعل.. لم تدخله السماء فى تجربة.. ولم تضعه فى موقف حرج بأن تكون هاجر على مقربة منه ولا يكلمها.. فعندما نزل إبراهيم عليه السلام مكة وجد أن هاجر ماتت ودفنت قريباً من الحجر وكان عمرها وقتها نحو ستين عاماً.

في غمرة الحديث عن مكة ينسى الجميع قصة هاجر المرأة التى ينتهى نسب الرسول ﷺ إليها.. لقد عمرت مكة حولها.. زرعها الله فيها وزرع فى قلوب عباده هوى إلى المكان الذى شهد جهاد امرأة مع الحياة وضعت فى اختبار صعب للغاية.. لكنها تفوقت فيه فاحتفت بها السماء وهنأتها على نجاحها بامتياز..، قد يعتقد البعض أن السيدة هاجر رَضِي اللهُ عَنْهَا قد ظلمت.. فضرتها السيدة سارة أبعدتها عن بيتها وزوجها وأقرتها السماء على ذلك.. ولعل فى ذلك ما يجعلنا على ثقة أن السماء لم تظلم هاجر.. بل ادخرتها وابنها لتحمل نصيبها من رسالة السماء.. تساهم فى انقاذ البشرية.. تمنحها جد الرسول الأعظم ويأخذ المسلمون شعائرهم فى الحج الأكبر منها.. فلا يسعى حاج بين الصفا والمروة إلا ويتمثل بين جناحيه جهاد هاجر وصبرها.

وكما تنسى السيدة هاجر فى غمرة الحديث عن مكة.. فإن أهل مكة بعاداتهم وتقاليدهم وتركيباتهم النفسية ينسون كذلك.. فمكة عند المسلمين هى البيت الحرام وما حوله فقط.. ولهم الحق فى ذلك فقد اهتم الجميع ببيت الله الحرام منذ وضع للناس.

هل أستأذنكم قليلاً فى الجو الأسطورى الذى بنى فيه البيت العتيق.. عندما أراد إبراهيم عليه السلام أن يبنى البيت نزولاً على أوامر السماء رأى حجراً من رخام وعليه ثلاثة سطور:

السطر الأول: مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا، رب البيت، مغليها وهى غزار ومرخيها وهى قفار.

والسطر الثانى: مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا رب البيت، مهلك الطغاة ومفقر الزناة، ومخزى تارك الصلاة.

والسطر الثالث: مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا، رازق من لاحيلة له حتى يعلم من له حيلة أن لا حيلة له.

ثم جاء إبراهيم عليه السلام بحجارة البيت من خمسة جبال: طور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودى وجبل حراء بمكة.. استمر إبراهيم عليه السلام يبنى البيت إلى أن ارتفع البناء ويقال إن الحجر الذى يعرف بمقام إبراهيم كان إذا بنى عليه تارة يرتفع به إذا ارتفع البناء وتارة يهبط به إذا أراد الأرض.

وفى رواية أنس ابن مالك ﷺ أنه رأى أثر قدم إبراهيم عليه السلام فى هذا الحجر. وقد أثر فيه كعبه وأخماص أصابع رجليه غير أنه اختفى رسمه من كثرة لمس الناس له بأيديهم فمحى ذلك من كثرة الأيام والليالى.. تم بناء البيت ولم يبق إلا إخبار زواره به.. أوحى الله إلى سيدنا إبراهيم بأن يصعد إلى سطح البيت ليؤذن فى الناس بالحج كان الطلب غريباً فكيف يصل صوته الضعيف إلى كل الناس، لكن الله حسم الأمر كله.. فعلى إبراهيم النداء وعلى السماء البلاغ.. نادى إبراهيم فوصل نداؤه إلى النطف فى أصلاب آبائهم.. قال إبراهيم عليه السلام: «يا أيها الناس إن الله تعالى قد بنى لكم بيتاً فحجوا إليه» فبلغ مدى صوته المشرق والمغرب فمن أجابه بالتلبية كتب له الحج ومن لم يلب لم يحج».

ظل البيت الحرام على حالته التى بناه عليها إبراهيم عليه السلام حتى عام خمس وثلاثين من ميلاد الرسول ﷺ فهدمته قريش وجعلت بداخله صور أربعة من الملائكة هم جبريل وميكائيل وإسرائيل وعزرائيل وجعلوا فيه عدداً من صور الأنبياء والرسل، فلما فتح الله على نبيه ﷺ مكة طمس تلك الصور جميعها.. أول توسعة للبيت الحرام تمت فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ وشملت إضافة أسوار وأبواب للحرم، ثم قام الخليفة الثالث عثمان بن عفان بتجديد المسجد الحرام وتوسعته وبنى فيه رواقاً مسقفاً.

عندما جاء الأمويون كانت لمكة معهم شأن آخر فرغم أنهم رموا البيت الحرام مرتين بالمنجنيق.. هدموا خلالهما الكعبة وما حولها وقتلوا أهل مكة جميعاً.. إلا أن الدولة الأموية وبعد أن استقرت لها الأمور قامت بإصلاحات عديدة فى مكة منها شق الطرق وتعبيدها.. وقام الوليد بن عبد الملك بتجديد المسجد الحرام وتوسعته وتسقيف أروقته بالصاج المزخرف وجعل أعمدة البيت من الرخام.. وأقام فوق الأعمدة عقوداً مزينة بالفسيفساء.

العباسيون اهتموا بدورهم بعمارة البيت الحرام ومن حوله بيوت مكة.. وجاء التغيير تحديداً على يد أبى جعفر المنصور الذى أقام رواقاً دائرياً يحيط بالمسجد.. فقد اشترى الدور الواقعة شمال المسجد فزادت مساحته واهتم بجمال المسجد حيث زين أسقف رواقه بالنقوش وفرش الأرض بالرخام.. وعندما جاء المهدى اشترى هو أيضاً عدداً من البيوت التى تحيط بالحرم وضمها إليه وكذلك فعل الخليفة المقتدر ليصل اتساع المسجد إلى مداه.. وظل على ذلك عقوداً طويلة.. ففى عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين.. اهتموا فقط خلال سنوات حكمهم بالترميم والإصلاح.

مع بدايات القرن العشرين وعندما كانت شمس الخلافة الإسلامية فى طريقها إلى الأفول، كان الحجاج يجدون الأمرين فى طريقهم إلى الكعبة.. فقد كانت قبائل البدو التى تحيط بالمدينة ومكة المكرمة ترى فى موسم الحج مناسبة لابد من اقتناصها ويرون فى الحجيج غنيمة لابد من إفتراسها.. وهو ما جعل أمير الشعراء أحمد شوقى يستغيث بالسلطان العثمانى عبد الحميد عام ١٩٠٤ بقصيدة مطلعها يقول: «ضج الحجاز وضج البيت والحرم.. واستصرخت ربها فى مكة الأمم».

لم تفعل الدولة العثمانية شيئاً.. لأنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً.. حتى جاء عام ١٩٥٥ وقتها شعرت الدولة السعودية بأهمية ذلك فأمنت الطريق إلى الحج.. ولأن أعداد الحجيج تضاعفت بشدة.. فقرر الملك سعود أن يعتنى بالمسجد بشدة.. أجرى فيه أول توسعة يشهدها الحرم المكى فى عصره الحديث، ظل العمل فى هذه التوسعة ست سنوات كاملة.. أزيلت خلالها المبانى والمنشآت السكنية والتجارية التى كانت قائمة بالقرب من مسعى الصفا والمروة، وبنى للمسجد طابقاً ثانياً ثم بدأ بعد ذلك فى بناء الأروقة المختلفة الجنوبى ثم الشمالى.. وليكتمل على يديه بناء الطابق السفلى الذى أقيم تحت أبنية الحرم.

أصبح المسجد الحرام بعد هذه التوسعة ضخماً وهائلاً.. مساحته وصلت إلى ١٩٣ ألف متر مربع بعد أن كانت ٢٩ ألف متر مربع فقط.. زاد المسجد إذن سبعة أضعاف مرة واحدة، وفيها بلغ عدد أبواب الحرم ٦٤ باباً.. وحفرت حوله الأنفاق من جميع الاتجاهات، لم يكن هذا فقط ما جرى للبيت.. فخلال المشروع السعودى الثانى لتوسعة البيت الحرام والذى بدأه الملك فهد عام ١٩٩٣.. أضيف ٧٦ ألف متر مربع إلى مساحة المسجد وزعت على أدوار المسجد المختلفة لتصل طاقته إلى حوالى مليون مصل.. فى هذه التوسعة أضيفت ثلاثة أبواب رئيسية و٢٧ مدخلاً عادياً للمسجد.. كما أضيفت كذلك مئذنتان تتشابهان فى تصميمهما مع المآذن التسعة التى كانت قائمة قبل ذلك.

الحرم المكى الآن عبارة عن ثلاثة طوابق فى كل منها ٤٩٢ عموداً مكسوة بالرخام.. فيها أجهزة التكييف والصوت ووصلات الكهرباء بحيث يظل الرخام محافظاً على رونقه.. تكاليف توسعة الحرم هذه المرة وصلت إلى رقم فلكى بالأرقام هو ٧٧٥، ١٨١، ١٧٨، ٣٠ ريالاً سعودياً، وهو رقم- كما يقول محمد المنسى قنديل فى حديثه عن رحلته إلى الحج والذى نشر فى مجلة «العربى الكويتية» فى مارس- ٢٠٠٠- لا يعرف أحد كيف ينطقه بواسطة الحروف.

سنخرج بكم من البيت إلى مكة بشعابها وحواريها وشوارعها.. هى مركز اليابسة فى الأرض.. هذا ما وصلنا من كلام العلماء واجتهاداتهم.. ويحكى د. محمد كامل عبد الصمد قصة اكتشاف أن مكة هى مركز الأرض.. فقد كان الهدف من البحث أمراً مختلفاً تماماً كان عن إيجاد وسيلة تساعد كل شخص فى أى مكان من العالم على معرفة وتحديد مكان القبلة.. فكر د. حسين كمال الدين أن يرسم خريطة جديدة للكرة الأرضية لتحديد اتجاهات القبلة عليها، وبعد أن وضع الخطوط الأولى فى البحث التمهيدى لإعداد هذه الخريطة ورسم عليها القارات الخمس، ظهر له فجأة هذا الاكتشاف الذى أثار دهشته، فقد وجد د. حسين- وهو بالمناسبة مصرى- أن موقع مكة المكرمة فى وسط العالم تماماً، أمسك برجلاً وضع طرفه على مدينة مكة ومر بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات فتأكد من أن اليابسة على سطح الأرض موزعة حول مكة توزيعاً منتظماً.. لتكون مكة بذلك هى مركز اليابسة.

لم يكتف د. حسين كمال الدين بذلك.. بل أعد خريطة للعالم القديم قبل اكتشاف أمريكا واستراليا وكرر محاولته فإذا به يتأكد أن مكة ومن خلال هذه الخريطة أيضاً هى مركز الأرض اليابسة حتى بالنسبة للعالم القديم.

يعتبر البعض أن ما توصل إليه العالم المصرى من أفضال مكة وخيراتها.. ويمكن أن نضيف إلى ذلك وهو ما ورد بأحاديث الرسول ﷺ، «فأهل مكة مقدمون على غيرهم.. وسكانها فى ثواب دائم حتى يوم القيامة.. أطلق عليهم الرسول ﷺ أنهم أهل الله، اختارهم الله لجوار بيته وميزهم برحمات عديدة منها الطواف حول البيت والنظر إليه والقرب منه.. حتى مقابر مكة لها فضل.. وهذا هو الرسول ﷺ يقول: نعم المقبرة هذه حتى إن سبعين ألفاً من المدفونين فيها يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفاً وجوههم كالقمر البدر».

شرف مكة عند المسلمين كذلك أن بها مكان مولد الرسول ﷺ.. وهو مكان بسوق الليل.. لا تخطئه الأعين حتى الآن.. والجميع يعرف أنه فى المكان الذى أقيمت عليه مكتبة «مكة المكرمة» الآن.. ولذا يحبها المسلمون.. أما لماذا كان يحبها الرسول ﷺ فهذد قصة طويلة.. ففيها ولد.. وفيها عاش طفولته وشبابه.. وفيها- وهذا هو الأهم- تعرف على زوجته وحبيبته السيدة خديجة.. وعندما دفنت فيها شعر بأن قطعة من قلبه اقتطعت ودفنت فيها.. ظل الرسول ﷺ يحن إلى مكة.. وإلى ديارها.. وإلى قبر زوجته التى فقد بموتها نصيراً ومعيناً على أمور دعوته.

وضع مكة ذلك يجعلها تجذب الأفئدة والأبصار إليها.. فالصلاة فيها أفضل من الصلاة في غيرها.. يقول الرسول ﷺ «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام.. وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة مرة».. ويحرم استقبال مكة أو استدبارها عند قضاء الحاجة.. وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن يوصى بذلك قال: «لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول ولا تستدبروها ولكن شرقوا وغربوا».

تأخرنا كثيراً على أهل مكة.. ناسها الذين يطلق عليهم أهالى السعودية «حج ولم يعد» فأهلها ليسوا سكانها الأصليين.. لكنهم دخلوا حجيجاً متفرقين ثم مكثوا فيها.. دخلوا للحج لكنهم لم يخرجوا منها.. إن البعض يعتقد أن مكة بلا أى سكان.. وأن سكانها هم الحجاج فقط.. لكن المفاجأة أن سكان مكة لهم عاداتهم وتقاليدهم وأمثالهم الخاصة وطرقهم فى الزواج والطلاق.. سكانها يصلون إلى حوالى مليون نسمة على الأكثر.. وهى بذلك ثالثة المدن السعودية من حيث السكان.. درجة الحرارة فيها فى المعتاد تصل إلى ٣١ درجة.. تختلف بين فصل وآخر حتى تصل فى الصيف إلى ٤٨ درجة وتنخفض فى الشتاء حتى تصل إلى ١٨ درجة فقط.

ولمكه أكثر من ثلاثين اسماً أشهرها بكة وأم القرى والبلد الأمين ومكة.. وفى معجم ياقوت الحموى عن البلدان أن مكة سميت بذلك لأنها تمك الذنوب أى تذهب بها كما يمك الطفل ضريع أمه فلا يبقى شيئاً.. ولأنها كذلك تمك من ظلم أى تقصمه.. وهناك سبب جغرافى أيضاً وهو من مك القرى أى مصها لقلة مائها.. صغار مكة يتسلون بلعبة كرة القدم ولعبة البرجوة ولعبة الاستغماية ولعبة الكبت ولعبة الكبوش ولعبة علبة الطيرة ولعبة الدوان ولعبة المرصاع.. أما الكبار فيتسلون بالمزمار والدومينو والطاولة والشطرنج والكوتشينا ولعبة الكيرم.. ولا يسهر أهالى مكة كثيراً.. فلا توجد لديهم أماكن يمكن أن يسهروا فيها حتى الفجر مثلاً.

ولا يتميز أهالى مكه بأكلة معينة لأنهم خليط من الشعوب الإسلامية.. ولذلك أصبح طعامهم خليطاً من أطعمة تلك الشعوب.. ومن المعتاد عند أهل مكة أن يتناولوا طعامهم وهم جلوس على الأرض سواء كان ذلك فى الولائم أو فى الأوقات العادية فى بيوتهم.. ومن بين أطعمتهم الفول والمعصوب والمطبق والسليق والمبشور والهريسة والمقادم والسقط واللقيمات ومرقة الهوى وحتى لا يفهم أحد الأكلة الأخيرة خطأ.. فهى من الأطعمة الخفيفة التى تلجأ إليها

نساء مكة عند انشغالهن، وتسمى مرقة هوى لأنها خالية من اللحم وطريقتها أن يوضع البصل في السمن إلى أن يحمر ثم يطفئ بالماء ويفت الخبز ثم يصب عليه المرق ويقدم بعد ذلك للآكل.

ولأهالى مكة أمثالهم أيضاً.. وهى ليست غريبة.. خذ عندك مثلاً: ضربنى وبكا سبقنى واشتكى، يضرب لمن يتظلم وهو الظالم. مزين بسط استفتح بأقرع. وهو مثل يضرب لمن خاب فى مسعاه، الجنازة حارة والميت كلب، يضرب لمن لا يستحق التقدير ويأخذ أكثر عناية، يأكل ما يشبع ترسله ما يرجع تنهره ما يسمع، ويضرب لمن يكون فى غاية الغباء والبلادة، يا للى تزكى مالك يبكى، يضرب لمن يتظاهر بما لا طاقة له عليه.. وهى أمثال كما ترون عادية للغاية لا تعكس خصوصية معينة.. فأهالى مكة بشر عاديون للغاية.. ولذلك فلهم فنونهم الخاصة ورقصاتهم المميزة ومنها الصعبة وهو فن من فنون التواشيح المكية يؤدى فى أفراح الزواج والأعياد.. ويتميز المكيون بلعب المزمار أيضاً.. وهو لعب اقترن بالأفراح والليالى الملاح.. ويلعبه الكبار والشباب بحركات بدنية ووقع خاص من تحريك رجل ولف عصا باليد على ايقاعات، ويلعب المكيون المزمار عادة فى أى مساحة فضاء من حارات مكة.. ولمزمار المكيين قوانين وآداب.. وفيهم كذلك رجولة وشهامة لا تكسر فيه ولا مجون.. فلا يفعله المكيون إلا تسلية وإظهاراً للفرح والسرور.

يعيش أهل مكه الحياة كما يعيش بقية خلق الله.. لكنهم يشعرون وكأن الله اختصهم وحدهم برحمته وفضله.. فقدروا ذلك.. لا تجد مكياً مغروراً أو متطاولاً على خلق الله لمجرد أنه مكى.. يعلم أن كل المسلمين يحلمون بزيارة بلده.. المشى فى شوارعها.. استنشاق عبيرها.. تنسم عطر ابنها النبى الأكرم.. لقد ذهبت الأيام مع مكة.. وعادت بها.. لكنها مازالت تتمتع بشموخها وقوتها.. فهى مدينة خلقها الله ورعاها وسندها بيده.. يشعر من يمشى فى شوارعها بأن الملائكة تتجول فيها وتنثر على مداخلها الرحمة والبركات.. وتحفظها من شرور الشياطين.. وتحميها من شرور البشر.. الذين هم فى حالات كثيرة أعتى من الشياطين..

وكما بدأت أصل بكم إلى النهاية..

فمن يشد الرحال إلى مكة يظل قلبه معلقاً بها. ومن يعجز عن زيارتها ولو مرة واحدة يظل من أحلامه القريبة إلى قلبه أن يدخلها ولو مجرد عابر.

بيزنس ......
الحج والعمرة !

بيزنس الحج والعمرة!

ينفق المصريون على الثرثرة فى المحمول أكثر من مليارين ونصف المليار جنيه سنويا، وينفقون فى شراء أجهزة جديدة للموبايل نفس الرقم، أى أن المحمول وحده- حتى يظل محمولاً وفى يد الجميع- يلتهم من ميزانية المصريين خمسة مليارات جنيه سنويا.. هذه واحدة..!

وبعد المحمول تأتى الدروس الخصوصية التى تلتهم هى الأخرى ١٣ مليار جنيه سنويا من جيوب الأسرة المصرية، هذا غير ثلاثة مليارات تنفق على الكتب الخارجية، دعك من هذه أيضاً فهناك سبعة مليارات جنيه تنفق على الفياجرا الزرقاء سنويا، صحيح أن وزير الصحة نفى هذا الرقم وقال إن الرقم الحقيقى هى ٦٠٠ مليون جنيه فقط.. لكن هو إنفاق ضخم على أية حال، هل نتحدث عن المخدرات أيضا.؟! ولم لا ونحن ننفق على المخدرات سنويا أكثر من ١٥ مليار جنيه.. وهذا الرقم يشكل أضعف تقدير فالرقم الحقيقى أكبر بكثير.

قد نلتمس العذر لمن ينفقون كل هذه المبالغ الطائلة على مزاجهم الجنسى أو حبهم وعشقهم للكيف أو رغبتهم فى النجاح أو حرصهم على المنظرة ودفع أى شىء من أجل ظهورهم والمحمول فى يدهم لكن ما لا يمكن أن نتصوره أن يصبح التقرب إلى الله وسيلة للإنفاق فيما لا يرضيه.. تصبح المليارات التى يجب أن تنفق من أجل صالح الإنسانية تنفق فى غير موضعها، فى كل عام يعود المصريون من الحج عازمين على ترك المعاصى والذنوب ويعاهدوا الله على ذلك.. لكنهم لا يلتفتون لشئ مهم للغاية.

يدفع المصريون فى الحج والعمرة كل عام حوالى سبعة مليارات جنيه كاملة.. ولا نستطيع أن نمنع الناس من الحج الذى هو فريضة على كل مسلم ومسلمة متى استطاع لذلك سبيلاً. لكن عندما يكون أكثر من ٨٠٪ من الحجاج والمعتمرين المصريين يؤدون الفريضة للمرة الثانية أو الثالثة أو ربما العاشرة فلابد لنا أن نتوقف.. خاصة وأن المجتمع يشهد ظواهر غاية فى الغرابة.. فالمصريون أصبحوا يعملون الجمعيات ويقترضون من أجل الحج أو العمرة ويا ليت ذلك يكون لوجه الله.. ولكن لأن الجارة الفلانية عملت عمرة.. فلماذا لا أكون مثلها.

وحتى لا يحملنا أحد شيئا لم نقله فهذه ثلاثة فتاوى لشيوخ يطمئن إليهم الناس فى مصر نسجلها لأنها تؤكد أن الحج لا يجب أن يكون إلا مرة واحدة فقط.. وأن تكراره ليس ضروريا إلا إذا كان لنذر.

معنا الشيخ يوسف القرضاوى.. وكان نص السؤال..

يحرص بعض المسلمين على أن يحجوا كل عام، وربما حرصوا- مع ذلك- أن يعتمروا أيضاً فى كل رمضان، مع ما يصاحب الحج فى هذه السنين من زحام شديد، يسقط معه بعض الناس صرعى، من كثافة التزاحم- وخاصة عند الطواف والسعى ورمى الجمار. أليس أولى بهؤلاء أن يبذلوا ما ينفقونه فى حج النافلة، وعمرة التطوع، فى مساعدة الفقراء والمساكين، أو فى إعانة المشروعات الخيرية، والمؤسسات الإسلامية، التى كثيراً ما يتوقف نشاطها، لعجز مواردها، وضيق ذات يدها؟ وهل تعتبر النفقة فى تكرار الحج والعمرة أفضل من الصدقة والإنفاق فى سبيل الله ونصرة الإسلام؟ أرجو توضيح ذلك فى ضوء الأدلة الشرعية؟

وكانت الإجابة كالتالى:

ينبغى أن يُعلم أن أداء الفرائض الدينية أول ما يطالب به المكلف، وبخاصة ما كان من أركان الدين، كما أن التطوع بالنوافل مما يحبه الله تعالى، ويقرب إلى رضوانه. وفى الحديث القدسى الذى رواه البخارى: «ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به..» ولكن ينبغى أن نضع أمام أعيننا القواعد الشرعية التالية..

أولاً: أن الله تعالى لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة. وبناء عليه، نرى أن كل من يتطوع بالحج أو العمرة وهو- مع هذا- يبخل بإخراج الزكاة المفروضة عليه كلها أو بعضها، فحجه وعمرته مردودان عليه. وأولى من إنفاق المال فى الحج والعمرة أن يطهره أولاً بالزكاة. ومثل ذلك من كان مشغول الذمة بديون العباد من التجار وغيرهم. ممن باع له سلعة بثمن مؤجل فلم يدفعه فى أوانه، أو أقرضه قرضاً حسناً، فلم يوفه دينه. فهذا لا يجوز له التنفل بالحج أو العمرة قبل قضاء ديونه.

ثانياً: أن الله لا يقبل النافلة إذا كانت تؤدى إلى فعل محرم. لأن السلام من إثم الحرام مقدمة على اكتساب مثوبة النافلة. فإذا كان يترتب على كثرة الحجاج المتطوعين ايذاء

لكثير من المسلمين، من شدة الزحام مما يسبب غلبة المشقة، وانتشار الأمراض، وسقوط بعض الناس هلكى، حتى تدوسهم أقدام الحجيج وهم لا يشعرون، أو يشعرون ولا يستطيعون أن يقدموا أو يؤخروا- كان الواجب هو تقليل الزحام ما وجد إلى ذلك سبيل، وأولى الخطوات فى ذلك أن يمتنع الذين حجوا عدة مرات عن الحج ليفسحوا المجال لغيرهم، ممن لم يحج حجة الفريضة. وقد ذكر الإمام الغزالى من الآداب التى يجب أن يراعيها الحاج: ألا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس (وهو ضريبة تؤخذ ظلماً) وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة. والأعراب المترصدين فى الطريق. فإن تسليم المال إليهم، إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم، فهو كالإعانة بالنفس، فليتلطف فى حيلة للخلاص. فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء- ولا بأس بما قاله- إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة. ولا معنى لقول القائل: إن ذلك يؤخذ منى وأنا مضطر. فإنه لو قعد فى البيت، أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء، فهو الذى ساق نفسه إلى حالة الاضطرار.

وشاهدنا من هذا النقل: أن التنفل بالحج إذا كان من ورائه ارتكاب محرم، أو مجرد معاونة عليه، ولو غير مباشرة، غير محمود ولا مشروع، وتركه أولى بالمسلم الذى يسعى لإرضاء ربه. وهذا هو الفقه النير.

ثالثاً: إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وخصوصاً إذا كانت المفاسد عامة، والمصالح خاصة، فإذا كانت مصلحة بعض الأفراد أن يتنفل بالحج مرات ومرات. وكان من وراء ذلك مفسدة عامة لمئات الألوف من الحجيج معا يلحقهم من الأذى والضرر فى أنفسهم وأبدانهم حتى هؤلاء المتنقلون أيضاً يتأذون من ذلك- كان الواجب منع هذه المفسدة بمنع ما يؤدى إليها وهو كثرة الزحام.

رابعاً: إن أبواب التطوع بالخيرات واسعة وكثيرة، ولم يضيق الله على عباده فيها، والمؤمن البصير هو الذى يتخير منها ما يراه أليق بحاله، وأوفق بزمانه وبيئته. فإذا كان فى التطوع بالحج أذى أو ضرر يلحق بعض المسلمين- فقد فسح الله للمسلم مجالات أخر، يتقرب بها إلى ربه دون أن تؤذى أحداً، فهناك الصدقة على ذوى الحاجة والمسكنة، ولا سيما على الأقارب وذوى الأرحام فقد جاء فى الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم إثنتان صدقة وصلة».

وقد تكون نفقتهم عليه واجبة، إذا كان من أهل اليسار وهم من أهل الإعسار، وكذلك على الفقراء من الجيران، لما لهم من حق الجوار بعد حق الإسلام، وقد ترتفع المساعدة المطلوبة لهم إلى درجة الوجوب، الذى يأثم من يفرط فيه.ولهذا جاء فى الحديث: «ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع». وهناك الإنفاق على الجمعيات الدينية، والمراكز الإسلامية، والمدارس القرآنية، والمؤسسات الاجتماعية والثقافية التى تقوم على أساس الإسلام، ولكنها تتعثر وتتخبط لعدم وجود من يمولها ويعينها. على حين تجد المؤسسات التبشيرية مئات الملايين من الدولارات أو الجنيهات أو غيرها من العملات، ترصد لها، ولإنجاحها فى سبيل التشويش على الإسلام، وتمزيق وحدة المسلمين، ومحاولة إخراج المسلم عن إسلامه، إن لم يكن إدخاله فى النصرانية، المهم زعزعة إسلامه وإن بقى بغير دين. وإخفاق كثير من المشروعات الإسلامية ليس لقلة مال المسلمين، فمن الأقطار الإسلامية اليوم ما يعد أغنى بلاد العالم، ولا لقلة أهل الخير والبذل فيهم، فما زال فى المسلمين الخيرون الطيبون، ولكن كثيراً من البذل والانفاق يوضع فى غير موضعه. ولو أن مئات الألوف الذين يتطوعون سنويا بالحج والعمرة رصدوا ما ينفقون فى حجهم وعمرتهم لاقامة مشروعات إسلامية، أو لإعانة الموجود منها، ونظم ذلك تنظيماً حسناً، لعاد ذلك على المسلمين عامة بالخير وصلاح الحال والمال، وأمكن للعاملين المخلصين للدعوة إلى الإسلام أن يجدوا بعض العون للصمود فى وجه التيارات التبشيرية والشيوعية والعلمانية وغيرها من التيارات العميلة للغرب أو الشرق، التى تختلف فيما بينها، وتتفق على مقاومة الاتجاه الإسلامى وعرقلة تقدمه وتمزيق الأمة الإسلامية بكل سبيل. وهذا ما أنصح به الإخوة المتدينين المخلصين الحريصين على تكرار شعيرتى الحج والعمرة أن يكتفوا بما سبق لهم من ذلك، وإن كان ولابد من التكرار، فليكن كل خمس سنوات، وبذلك يستفيدون فائدتين كبيرتين لهم أجرهما:

الأولى: توجيه الأموال الموفرة من ذلك لأعمال الخير والدعوة إلى الإسلام، ومعاونة المسلمين فى كل مكان من عالمنا الإسلامى، أو خارجه حيث الأقليات المسحوقة.

الثانية: توسيع مكان لغيرهم من المسلمين الوافدين من أقطار الأرض، ممن لم يحج حجة الإسلام المفروضة عليه. فهذا أولى بالتوسعة والتيسير منهم بلا ريب. وترك التطوع بالحج بنية التوسعة لهؤلاء، وتخفيف الزحام عن الحجاج بصفة عامة، لا يشك عالم بالدين أنه قربة إلى الله تعالى، لها مثوبتها وأجرها «وإنما لكل امرىء ما نوى». ومما يذكر هنا: أن جنس أعمال

الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج، وهذا ثابت بنص القرآن، يقول تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وهذه فتوى أخرى.. قالها د. فؤاد على مخيمر كان نص السؤال:

ما واجب المسلمين سواء كانوا حكومات أو أفرادا تجاه الانتفاضة الفلسطينية وما يفعله اليهود بالشعب الفلسطينى الأعزل؟ وهل يحق للمسلمين أن يدفعوا لهم زكاة أموالهم؟ وما حكم المسلمين الذين ينفقون الملايين فى تكرار الحج والعمرة ويتركون المسلمين العزل دون أن يدفعوا لهم شيئاً؟

وكانت الإجابة كالتالى:

فى الحديث: «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له.. ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له».- وقال تعالى: «.. وتعاونوا على البر والتقوى..»- ومن الأولويات في الفقه الإسلامي: «إذا اجتمعت مصلحتان قدمت أيهما أنفع للأمة المسلمة». «وإذا تعارضت المصلحة العامة مع المصلحة الخاصة قدمت المصلحة العامة على الخاصة من باب الإيثار»- ومن الضوابط والأحكام الفقهية: «أن سهم الزكاة فى قوله تعالى: «.. وفى سبيل الله» موطن إنفاقه الجهاد، ونحن فى ساحته فلا يخرج عنها». وهذا قول جمهور أهل العلم. وسهم الغارمين يجب أن يخصص للشعب الفلسطينى، لأنه سهم معطل فى الإنفاق، وهذا الشعب البائس قد وقع عليه الغرم فى نفسه وماله وولده وأرضه التى اغتصبت منه، ويباد الزرع منها لقطع أسباب الحياة عن أهل البلاد.- أولوية الحاجة: إذا اجتمع الفقراء والمساكين وهما المصرفان الأول والثانى للزكاة قدمنا أشدهم حاجة، وليس هنالك على الساحة الإسلامية أحوج من الشعب الفلسطينى، فهو أولى بالإنفاق عليه: وبخاصة أننا نعلم أنه شعب محاصر اقتصادياً وعسكرياً ويباد بالليل والنهار قتلاً وجرحاً، والأسر مشتتة فى الصحراء بلا مأوى ولا طعام ولا كساء ولا غطاء. وإذا اجتمع أيتام المسلمين فى العالم قدمنا من هم أشد بؤساً وفقراً وحاجة بغض النظر عن مسميات الدول، فأمة الإسلام أمة واحدة لا تعرف الحدود. قال تعالى: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون». وفى الحديث: «مثل

المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». ففى الحديث عموم، وليس فيه إشارة إلى تخصيص، ذلك لأن التخصيص تعصب، والعصبية نبع من الجاهلية، وفى الحديث: «من دعا إلى عصبية فليس منا». وفى الحديث أيضاً: «إذا نزل العدو بأرض الإسلام كان الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة». وإذا كنا محاصرين عن الجهاد بالنفس؛ فالجهاد بالمال فرض محتم. وبخاصة إذا توفرت القدرة على أدائه كل بحسب استطاعته.- المجاهدين من هم أشد حاجة إلى المال يؤدى إلى الإثم لما فيه من التعصب وتعطيل أو تعويق الجهاد.- إن المعركة الشرسة التى فرضت علينا تحتاج إلى تجييش الأمة عسكرياً واقتصادياً وعلمياً.

فالعسكرة: مسئولية الحكومات أمام الله والشعوب. وأما الاقتصاد والعلم: فمسئولية الأفراد. وفى ضوء ما سبق بيانه بالنظر لأولوية حاجة المسلمين أقول:

أولاً: الحج فريضة، والجهاد فريضة، والعمرة واجبة عند الجمهور وسنة عند آخرين. والحج فرضه الله.. جلّت حكمته- فى العمر مرة لما فيه من مشقة السفر وبذل المال، فيعد تكرار الحج نافلة؛ فيتقدم إنفاق المال على الجهاد على أداء النافلة. وكذلك العمرة متى أديت مرة فإنفاق ما يبذل فيها على الجهاد أمر واجب وبخاصة عند تكرارها، لأن الجهاد فرض وقد شُرع دفاعاً عن الدين والنفس والمال والعرض وأرض الوطن والمقدسات، ويتأكد وجوبه ويتحتم إذا نزل العدو واغتصب أرض الإسلام. وهذا هو الواقع الذى نعيش فيه على أرض فلسطين واغتصاب المسجد الأقصى، فعندئذ قد أضحى الجهاد فرض عين على كل مسلم كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ. ولذا نقول: إن ما ينفق على أداء الحج المكرر (النافلة) والعمرة المكررة (النافلة)، يجب أن يوجه لإغاثة الشعب الفلسطينى؛ حيث إنهم يعانون من نقص فى الطعام والدواء والمسكن؛ لأنهم عزل أمام عتاة فى الأرض، ورؤيتنا للواقع تغنينا عن الوصف. وإن تركنا العدو وشأنه فسيأتى علينا الدور، وتدور الدائرة على شعوب الأمة المسلمة. ألا فلتفق الأمة من غفلتها، وإن ترشيد الإنفاق فى ضوء مقاصد الشريعة أمر واجب.

ثانياً: يأثم المسلمون القادرون إن تباطأوا فى تقديم الدعم المادى للشعب الفلسطينى المجاهد؛ أو تعصّبوا لأهل بلدهم فى هذه الآونة الجهادية. ولهم- إن شاء الله تعالى- الشرف والعز والفضل ونعيم الجنات متى تسارعوا إلى نجدة إخوانهم المرابطين، بل يُعدُّون- إن شاء الله- من السابقين المقربين. وأرى أنه لا بأس إن أعطوا جزء من زكاتهم إلى من هم فى حاجة

مُلحة من أقاربهم وجيرانهم الفقراء. وبجانب هذا أرى أيضاً أن مقام الرفعة يتجلى فى الإيثار الذى امتدحه ربنا سبحانه فى قوله: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون».

ثالثاً: على الأجهزة المعنية فى دول العالم الإسلامى أن تقف بجوار شعوبها، فإن الشعوب قادرة بإذن الله تعالى على تقديم الدعم المادى بمعناه الواسع فى كل ميدان. وكفانا استهزاء من عدونا وسخرية بنا. إن فى أموال الزكاة عند المسلمين ما يقدم لنصرة الإسلام والمسلمين فى شتى ميادين الحياة، وفيه كفاية. أقول: يجب على حكومات الدول الإسلامية أن تستغل الطاقات الإيمانية- وليست الإرهابية، لحماية مقدساتنا وأرضنا. إن الصهاينة فى العالم يقدمون الدعم المالى والبشرى والإعلامى والحربى لصهاينة إسرائيل لإبادة الشعوب المسلمة. والأمر الغريب والعجيب أن المسلمين لا يزالون يستنكرون ويشجبون وينتظرون الصلح مع أولئك السفهاء، والدماء تسيل، والأرض تغتصب، فأين إباء المسلمين وعزتهم؟!!

رابعاً: إن الاشتغال بالطعام والشراب والشهوات والترف وتعبئة الإعلام بالزيف من المرائى، والعبث من الكلام والمعركة مشتعلة يعد ذلك عبثاً وهزيمة أمام النفس والشيطان والعدو.

تبقى فتوى ثالثة يحدثنا بها الشيخ سيد سابق صاحب كتاب فقه السنة يقول «أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر وأنه لا يجب فى العمر إلا مرة واحدة إلا أن ينذره فيجب الوفاء بالنذر، وما زاد فهو تطوع، فعن أبى هريرة قال «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فقال رجل أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ثم قال ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم» ثم قال «ذرونى ما تركتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه»، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال «خطبنا رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس كتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال أفى كل عام يا رسول الله؟ فقال: لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا الحج مرة فمن زاد فهو تطوع».

ليس هؤلاء فقط فشيخ الأزهر طالب المسلمين ليس فى مصر وحدها ولكن فى كل مكان بأن ينفقوا أموالهم فيما ينفع مجتمعاتهم.. وما داموا قد أدوا الحج مرة واحدة بما يعنى أن

الفريضة سقطت من عليهم.. فلا حاجة لأن يتحملوا مشقته مرة أخرى، لقد رغبنا فى نقل كلام علماء الدين كاملاً حتى لا يدعى أحد أننا نطالب بعدم إقبال الناس على الحج.. وحتى يقتنع الناس مادام أنهم لا يقتنعون إلا بكلام الشيوخ..

لكن ألا يجب أن يقتنع الناس عندما يعرفون أن تكرارهم للحج أضر الاقتصاد المصرى فارتفع سعر الريال السعودى وأذل الجنيه المصرى وهو ما لم يحدث قبل ذلك.. لكنه حدث، ألا يقتنعون وكل ما ينفقونه من أموال لا يذهب كله فى سبيل الله ولكنه يذهب لجيوب شركات السياحة والنصابين والمزورين وبائعى التأشيرات وهؤلاء لا يشغلهم أن يقبل الله حج أحد أو يرفضه، ألا يقتنعون وهناك مئات الجهات التى تحتاج لأموالهم التى تنفق للتفاخر والتظاهر بالغنى.. ففقراء هذا الوطن كثيرون ويحتاجون لمن يعولهم.

لقد تحول الحج إلى بيزنس.. يشترك فيه الجميع الذين يؤدون الحج أكثر من مرة يسعون لاعتراف الناس بهم أتقياء وأنقياء والذين تسهل لهم الحكومة فيحصلون على كل ما يحتاجونه من أموال.. إذا لم يقتنع المصريون بذلك وهم الذين يدفعون أكثر من ٧ مليارات جنيه فى الحج والعمرة فإننا نضع أمامهم هذه الأرقام فالمجلس الأعلى للشباب والرياضة مثلا وهو الذى عليه رعاية ٢٤ مليون شاب يمثلون أكثر من نصف المجتمع لا تزيد ميزانيته على ٢٢٠ مليون جنيه.. أى أن كل شاب يحصل على ستة جنيهات، فقط، فمن أولى بالرعاية؟!.

إن ما ننفقه على الحج والعمرة لأشخاص يصرون على تكرارها يزيد عن دخلنا السنوى من قناة السويس بمراحل؛ معنى ذلك أننا نقضى على جزء من دخلنا القومى دون أن ندرى..

وإذا لم يقتنع المصريون بهذه الأرقام أيضاً.. فأمامهم الفتاوى الدينية التى تؤكد أن التى يحتاجه البيت يحرم على الجامع.. خاصة إذا كنت قد أديت ما عليك للجامع!

الإسلام .....
على طريقة التبليغ والدعوة

الإسلام على طريقة التبليغ والدعوة

قبل سنوات عديدة كنت أسير مع صديقى على شاطئ النيل فى قريتنا البعيدة على فرع دمياط.. استوقفنا رجل أربعينى العمر يرتدى جلباباً قصيراً بعض الشىء وعلى رأسه غطاء غريب، عرفت بعد ذلك أن اسمه قلنسوة.. بدون مقدمات دعانا لصلاة المغرب والاستماع لدرس قصير.. ذهبنا إلى المسجد، فوجدت به وجوهاً عديدة لم تعتد ارتياد المساجد.. لكن هذا الرجل الغريب استطاع أن يجرهم إلى المسجد بكلماته البسيطة وابتسامته التى لم تكن تغادر وجهه..

بعد الصلاة بدأ فى إلقاء درسه.. كان يتحدث عن الأخلاق وكيف يكون المسلم صادقاً مع نفسه ومع الناس ومع الله.. تحسر على الأخلاق التى ضاعت.. لكنه كان متفائلاً من أن الإسلام سيعود إلى قلوب الناس من جديد.. كانت هذه هى المرة الأولى التى عرفت فيها جماعة التبليغ والدعوة.. من وقتها وأنا أتابعهم عن بعد.. أقرأ بعض أخبارهم.. وأصبحت صورتهم عندى أنهم جماعة تدعو الناس إلى طريق الله.. ويخرجون فى جماعات إلى المدن والقرى يرغبون الناس فى العبادات والفضائل ولا يبتغون فى ذلك سوى وجه الله.

لكن، ومنذ فترة تجمعت لدىّ أسباب عديدة للاهتمام بجماعة التبليغ والدعوة.. ففى بعض قرى الصعيد لوحظ أن أعداداً كبيرة من الشباب تسافر إلى الهند وباكستان.. يمكثون ما بين أربعين يوماً وثلاثة أشهر.. وبعد أن يعودوا تتغير حياتهم تماماً.. بعضهم يكون فقيراً، فإذا به يتزوج ويفتح بيتاً ومشروعاً اقتصادياً يدر عليه ربحاً معقولاً.. يقول هؤلاء الشباب إنهم يخرجون للدعوة فى سبيل الله، رغم أن الكثيرين منهم لا يمتلكون حصيلة علمية أو أية مؤهلات تمكنهم من هذه الدعوة.. يرد على ألسنتهم كثيراً اسم جماعة التبليغ والدعوة.. وأنهم أعضاؤها.. وأن خروجهم إلى الهند وباكستان ليس إلا نوعاً من الجهاد.. وهو عندهم جهاد أكبر يفوق كل جهاد.

أبناء الصعيد بظروفهم القاسية ليسوا وحدهم فى هذا المركب.. فأبناء عائلات كبيرة انخرطوا فى أنشطة جماعة التبليغ والدعوة التى دخلت مصر بعد سنوات قليلة من نشأتها فى الهند.. فقد نشأت على يد قندهلوى حوالى عام ١٩١٤.. والأمثلة كثيرة.. شاب يدرس فى

إحدى كليات القمة انقطع منذ أشهر عن الدراسة.. أصبح يغيب عن البيت فترات طويلة.. أطلق لحيته وارتدى القلنسوة وكل كلامه عن الحلال والحرام.. وما يجب وما لا يجب.. كان يخرج فى معسكرات مع زملائه يقول عنها إنها للإعداد والتدريب.. وما أزعج أهله أنه بدأ يخرج إلى محافظات مختلفة وقرى متعددة ليدعو أهلها إلى الإسلام كما يقول.. وتعجبت والدته التى أصبحت لا تفهم كثيراً مما يقوله ابنها.. وعندها حق فهى لا تعرف أن جماعة التبليغ والدعوة من الجماعات التى يطلق عليها جماعات إعادة الدعوة.. وهى حركات ترى أن المجتمعات المعاصرة تشبه مجتمع مكة بعد البعثة النبوية، ولذلك فإن دعوة أو بعبارة أدق إعادة دعوة الناس الموجودين فيها والذين يجهلون الإسلام، كما كان الكافرون فى مكة يجهلونه تعد المهمة الوحيدة التى يجب عليهم القيام بها، كما فعل المسلمون الأوائل.

لا تعرف أم هذا الشاب كيف تتصرف، لكنها حتى الآن تنظر بعين الريبة إلى جماعة التبليغ والدعوة.. تشعر أنهم اختطفوا منها ابنها وحولوا مستقبله لطريق لم تكن تريده.. فهى كانت تعده ليصبح طبيباً ناجحاً، فإذا بها تجده يتحول إلى داعية.. ما حدث مع الشاب الذى يعيش فى القاهرة، يحدث فى محافظات عديدة فى مصر.. صحيح أن الشباب لا يتورط فى أعمال معادية للحكومة.. ولذلك فالجماعة تعيش فى أمان تام.. لكن من يعلم ففى لحظة واحدة يمكن أن يتحول الشاب الذى يعتنق فكر التبليغ والدعوة إلى شاب يعتنق أفكار جماعة الجهاد.

هذه الواقعة تؤكد ذلك، فقبل ثلاث سنوات حوكم عضو من جماعة التبليغ والدعوة أمام محكمة أمن الدولة، كانت مصر قد تسلمته من البوسنة وكان قد حكم عليه غيابياً بالمؤبد فى قضية إحراق نوادى الفيديو فى منتصف الثمانينيات، المتهم رفض التهم الموجهة إليه، وقال للمحققين إنه لم يكن هارباً لكنه خرج من مصر بصورة مشروعة، وأنه كان يعيش فى البوسنة وزار باكستان.. تهمة عضو جماعة التبليغ كانت تشكيل جماعة سرية بهدف اغتيال شخصيات سياسية والاشتراك فى إحراق ٢٥ مكاناً بينها معسكر لتدريب قوات الشرطة وعدد من الملاهى الليلية ومحلات بيع أشرطة الفيديو! هو ابن من أبناء جماعة التبليغ والدعوة إذن، لكنه تطرف بأفكارها.. وهنا يكمن الخطر الذى يمكن أن يحيط بمصر من هذه الجماعة التى ترقد النار تحت رمادها.. لكن قبل الحكم ألا يجب أن نعرف كيف تفكر هذه الجماعة؟

نشأت هذه الجماعة فى الهند فترة خضوعها للاحتلال.. ولم تجد أدنى مقاومة أو

معارضة للاحتلال، ولذلك فإن معارضيهم يميلون إلى اتهامهم بالعمالة للاحتلال الإنجليزى.. ولا يتورعون من القول بأن الجماعة صنعة الاحتلال الذى رأى فى أعضاء الجماعة أدوات تساعده على تهدئة الناس وصرفهم عن مشكلاتهم الحياتية إلى أمور غيبية تتعلق بالآخرة.. وهو اتهام لا نستطيع أن نتبناه.. لكننا فقط نذكره..

أعضاء الجماعة بالفعل لا يهتمون بالسياسة ولا يشغلون أنفسهم بشئون الحكم.. بل أنهم يقللون من أهمية الجهاد ويقولون نحن الآن نجاهد النفس وهذا أقوى جهاد.. ونشاطهم الأساسى هو القيام بجولات لدعوة المسلمين الذين لا يأتون للمسجد للصلاة.. ويهتم أعضاء الجماعة كذلك بدعوة الغير للخروج معهم سواء ٣ أيام أو٤٠ يوماً أو أربعة أشهر، ويعتبرون ذلك أهم من تأدية الصلاة فى المسجد.. ومن أفكارهم كذلك أنهم يعتبرون الاعتكاف فى المساجد أهم عمل يستطيع المسلم القيام به.. يعملون على مذهب الإمام أبو حنيفة النعمان.. ويؤخذ على هذه الجماعة أن طريقتها فى دعوة المسلمين للخروج معهم تعتبر فظة وغليظة فهم لا يراعون أى ظروف أو أعذار.. بل إن المسلم لو لم يخرج معهم وحتى إن كان مداوماً على الصلاة خمس مرات فى المسجد فإنهم ينبذونه ولا يقدرونه!

نشاط الجماعة ينتشر فى دول مختلفة.. والمواقف حيالها مختلفة، فهذا سؤال أرسله طالب من الجزائر إلى موقع «إسلام أون لاين» يقول فيه: ما حكم الشرع فى اتجاه جماعة التبليغ والدعوة؟، والإجابة كانت من الشيخ يوسف تورحومى أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد بجامعة «حمر» بمقديشيو بالصومال يقول: جماعة التبليغ والدعوة هى واحدة من الجماعات الإسلامية التى نشأت فى العصر الحديث. وتقوم بالدعوة إلى الإسلام وفق أساليب وتقاليد تعتبرها هى أنها أسهل الطرق لإيصال رسالة الإسلام إلى الشعوب الأخرى، قد نتفق مع هذه الأساليب أو نختلف عليها. لكنها فى عمومها تسعى إلى تحقيق هدف واحد. وهو إيصال الإسلام إلى الآخرين محلياً أو خارجياً، وبطبيعة الحال ليست هناك جماعة إسلامية تجتمع فيها كل الخصال الإيجابية اللازمة لأداء هذه الرسالة فبعضها يركز على الجانب الروحى والبعض الآخر على الجانب العقائدى، والبعض الآخر على الجانب السياسى والاجتماعى، والهدف واحد كما ذكرنا وبتضافر هذه الجهود تصب فى خدمة الإسلام، ويختم تورحومى رأيه بقوله: وأنا أرى الاستفادة من كل تجارب الجماعات الإسلامية وفق الزمان والمكان والمجتمع الذى قامت فيه لينعكس ذلك على الأداء الدعوى للفرد أو الجماعة.

أستاذ الشريعة الصومالى ينظر إلى الجماعة من الجانب المضيء.. لكن علماء السعودية لا يرون فى جماعة التبليغ والدعوة إلا شراً مطلقاً وشيطاناً رجيماً.. ففى عام ١٣٨٢ هجرية أرسل الأمير خالد بن سعود رئيس الديوان الملكى السعودى إلى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ يسأله الرأى فى التماس رفعه إليه محمد عبد الحامد القادرى وشاه أحمد نورانى وعبد السلام القادرى وسعود أحمد دهلوى يطلبون فيه المساعدة فى مشروع جمعيتهم التى أسموها كلية الدعوة والتبليغ الإسلامية، وكذلك رأيه فى الكتيبات التى نشرتها الجماعة.. وكان رد الشيخ محمد آل الشيخ أن هذه الجمعية لا خير فيها، فهى جمعية بدعة وضلالة وتشتمل أفكارها على الضلال والبدعة والدعوة إلى عبادة القبور والشرك وهو الأمر الذى لا يمكن السكوت عليه.

وهناك من يطعن فى مسلك الجماعة ويعيب عليها سلبيتها ويعزى ذلك إلى أصل نشأتها فى الهند والمعروف عن الهنود المسلمين خصوصاً فى السنوات الأخيرة اعتيادهم الاستكانة والاستضعاف ورضوخهم كالدجاج تحت قهر وسلطة الهندوس والسيخ، ومثل هؤلاء تطبعوا بالخور وخفض الرءوس، ولذلك فقد أرادوا للدعوة لله تعالى مسلكاً أثر فيه طبعهم الذى بات فيهم.. فهم لا يواجهون خصومهم ولا يظهرون لهم مخالفتهم إياهم بالرأى.. وهم كذلك لا ينهون عن منكر ولا يصرحون لأحد بإنكار أى منكر، بل يعتبرون التصريح بالحديث عن بعض المنكرات ينافى الحكمة والعقل.. كما أنهم يعتقدون فى المنامات والكرامات والحكايات والخرافات.. ورغم أن هذه فيها بعض المبالغة، لكن الشباب الذين يخرجون للدعوة مع هذه الجماعة يتحدثون عن خوارق تحدث لهم وعلى أيديهم.. بل إنهم يدعون لأنفسهم القدرة على شفاء المرضى، وذلك من خلال الرقية الشرعية.. ويحكى أحدهم أنه خرج من عند أهله وأغلق عليهم الباب وغاب عنهم أربعة شهور، ثم عاد إليهم فوجدهم على أحسن حال ولما سألهم عن ذلك قالوا له: إن عجوزاً كانت تدخل عليهم وتخدمهم بلا مقابل.. وكان يؤكد بعد ذلك أن الله يرضى عنه وعن علمه وعن جولاته من أجل الدعوة، ولذلك ساق إلى أهله هذه العجوز كى تخدمهم.

فى دول الخليج الوضع مختلف بعض الشيء.. فتأثير الجماعة قوى للغاية، وقد يرجع ذلك إلى أن كثيراً من الهنود والباكستانيين يعملون فى هذه الدول.. وقد كانت للصديق عبد الفتاح على تجربة حية مع هذه الجماعة فى دولة الإمارات.. ظل معهم عدة أشهر.. وخرج معهم فى جولاتهم.. وسجل ملاحظاته عليهم.. كان وقتها طالباً فى المرحلة الثانوية.. ومن

بين ما رصده عبد الفتاح أن الجماعة تجتهد فى استقطاب الشباب فهم قوتها ووقودها الذى به تسير.. ولها منهج فى ذلك، فهى تركز على الشباب العابثين أو العصاة.. تدخل إليهم من باب ضرورة التوبة.. وإذا كانوا مغرورين بشبابهم وأن الحياة لا تزال أمامهم.. فإن الموت يأتى فى أية لحظة.

من بين ما يؤخذ على الجماعة كذلك أنهم يغالون فى التحريم ويرهقون أتباعهم.. فمن بين ما يقولونه إن الشاب إذا احتلم وهو نائم فلا يجب أن يقوم ليغتسل لأنه إذا سار وهو على جنابة فإن كل خطوة يخطوها يلعنه فيها سبعون ألف ملك.. ماذا يفعل إذن يا فقهاء الجماعة؟! يقولون لك: اجعل اثنين من إخوتك يحملانك حتى تصل إلى الحمام فتغتسل وتتطهر.. وهى صورة عبثية بالطبع ولا يقبلها الذوق الإنسانى، ثم إن مبدأهم ذلك ليس صحيحاً، والموقف النبوى الشريف يفسر لنا ذلك.. فيروى أن سيدنا أبا هريرة كان يسير بجوار النبى فناداه الرسول كى يجلس بجواره فرفض أبو هريرة متحججاً بأنه جنب نجس ولا ينبغى أن يجلس بجوار النبى وهو على هذه الحالة.. فقال له الرسول ﷺ بحكمته إن المسلم لا ينجس.. بهذه الطريقة الراقية، كان يتعامل الرسول ﷺ مع أصحابه.. لكن فقهاء التبليغ والدعوة لا يفعلون ذلك رغم أن الرسول ينبغى أن يكون قدوتهم وراعى طريقهم.

فى مصر وضع الجماعة يختلف كثيراً.. فلأنها نشأت بعيداً عن أرضها فليس لها حضور طاغ أو مؤثر فى مصر- ربما حتى الآن- مثل جماعة الإخوان أو الجماعة الإسلامية.. لكن يبدو أن السنوات القادمة ستشهد تأثيراً قوياً لهذه الجماعة.. بعد أن أصبح لها رموز وشيوخ وأتباع.. إن الحكومة لا تجد خطراً من جماعة التبليغ والدعوة.. فهى تضمن لهم على الأقل ألا ينخرط الشباب فى السياسة، بل إنها على العكس من ذلك تماماً، يمكن أن ترد الشباب عن معارضة الحكومة والغضب عليها، وفى ذلك غاية الطلب.. لكن ما لم تعلمه الحكومة أن الجماعة أصبحت تتجه اتجاهاً تكفيرياً حاداً.. فكل شىء عندهم حرام.. الموسيقى، والغناء.. والتليفزيون، بل إن أحدهم لو وقعت عيناه على التليفزيون ولو مصادفة فإنه يصوم أسبوعاً كاملاً تكفيراً عن هذا الذنب.. المصائب تبدأ بهذه الطريقة، ويا ليت من يعنيهم الأمر يأخذون بالهم وحذرهم.

إن جماعة التكفير والهجرة تحاول استيعاب مئات الشباب من المصريين.. ولما كان القائمون عليها يعرفون أن الشباب المصرى يعانون من مشاكل اقتصادية تطحن عظامهم. فإنهم

يدخلون لهم مما يسيل لعابهم ويجعلهم يسلمون دون مقاومة، وقد تسأل من أين تأتى هذه الجماعة بأموالها؟!.. وما هى مصادر تمويلها.. لن نغالى ونقول إن الجماعة تتلقى تمويلاً خارجياً فهذا ليس معنا دليل عليه.. لكن هناك مؤشرات عديدة تشير إليه.. فالشباب يسافرون إلى الهند وباكستان ويعودون وقد تغيرت أحوالهم رغم أنهم لا يعملون شيئاً إلا الدعوة.. فهم لا يعملون حتى نقول إن هذا أجرهم.. لكنهم ينقطعون للدعوة تماماً وقد يظهر سؤال منطقى: لماذا تمول جهات معينة هذه الجماعة وهى لا تعمل فى السياسة ولا تريد أن تصل إلى الحكم.. وببساطة تأتى الإجابة فهناك جهات عديدة تريد أن تظل الأوضاع على ما هى عليه، أن يهتم الناس بآخرتهم ويدوروا فى فلك المعاصى، ثم التوبة ويتركون الدنيا لأهلها.. يفعل ذلك رجال الأعمال الذين يتاجرون فى كل شىء ولا يريدون أن يزاحمهم أحد، ويفعل ذلك سياسيون يريدون أن ينفذوا أفكارهم دون أن يعترض طريقهم أحد.. ويفعل ذلك أيضاً علماء دين يلحون على إفقار تابعيهم رغم أنهم يركبون أغلى السيارات ويملكون أعلى الأرصدة فى البنوك.. ولا يتورعون بعد ذلك عن وعظ الناس بالصبر على المكاره فى الدنيا.. ففى الآخرة ينتظرهم النعيم المقيم.

لجماعة التبليغ والدعوة آراء عديدة فى القضايا الاقتصادية المعاصرة، وتحديداً ما يتعلق منها بالنصوص القرآنية والأحكام الثابتة، مثل ما يخص بعض المحرمات من الطعام والشراب أو ما يمس التعاملات المالية من ربا وفوائد بنكية.. فهى تأخذ منها مواقف عملية حاسمة واضحة دون أن تتوسع فى الحديث عنها فى أدبياتها النظرية.. ويتحرك أعضاء هذه الجماعة داخل مصر وخارجها فى مجموعات تتجول بالمدن والقرى ويأخذون عادة من المساجد الرئيسية والكبرى فى تلك القرى والمدن مقراً لإقامتها والانطلاق منها للتجول فى الأسواق ومناطق التجمعات للقيام بتلك الدعوة.. ومن المعتاد أثناء الجولات أن يحمل أعضاء تلك المجموعات معهم ما يكفيهم من طعام وشراب وأدوات.. ورغم أن الزهد هو الذى يجب أن يحكم تحركات وتصرفات هذه الجماعة.. إلا أنهم يحملون معهم ما لذ وطاب.. ويغدقون على أتباعهم الكثير من الأموال.. وأنت معهم يمكن أن تأكل ما تريد.. وأن تحمل إلى بيتك ما تشاء.

ما يثير الانتباه أن مجموعات الجولة من جماعة التبليغ والدعوة يتوسعون فى حركتهم إلى حد الذهاب إلى بلاد غير بلادهم.. وهنا يعود السؤال عن تمويلهم ليظهر مرة أخرى.. وما

يمكن أن يقال حتى الآن أن أعضاء هذه الجماعة لا يعتزلون الأنشطة الاقتصادية والوظائف والمهن التى يقومون بها فى مجتمعاتهم، بل يواصلون ممارستها ويقيمون فى أحيان كثيرة من دخول وريع تلك الأنشطة لصالح الجماعة، حيث يتم توجيهها واستخدامها فى تمويل أنشطتها.. ولا يختلف هذا المسلك بين جماعات التبليغ والدعوة سواء فى الهند وباكستان أو مصر أو حتى فى بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا وبريطانيا.

إننى لا أخشى على مصر من جماعة التبليغ والدعوة.. فأبناء هذا البلد قادرون على استيعاب كل الأفكار والتعامل مع كل الجماعات.. لكن ما أخشاه أن تتحول الجماعة- ويبدو أنها مشرفة على ذلك- إلى جماعة تكفيرية تعادى المجتمع وتريد أن تنتقم منه.. وساعتها سندفع جميعاً الثمن.. إن القلق بدأ يتسرب إلى بعض البيوت المصرية مما يحدث لأبنائهم.. لا يعرفون كيف يتصرفون ولا إلى أين يذهبون.. يتأملون ما وصل إليه أبناؤهم ويتعجبون.. فالإسلام الذى يعرفون لا يضيق عليهم حياتهم ولا يعسرها عليهم ولا يحرم عليهم كل شىء ولا يجعلهم عازفين عن المشاركة فى الدنيا ومتجهين إلى الآخرة.. دون أن يضعوا وصية الرسول ﷺ أمامهم: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً.. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

إن هذه الجماعة هادئة ووديعة.. لكن لا أحد يضمن ماذا يمكن أن يحدث غداً.. إننى لا أحرض عليهم أحداً.. لكننى أريدهم أن يسيروا على طريق الإسلام الصحيح.. الطريق الذى يتصالح مع الحياة ولا يخاصمها يستفيد من أبنائها ولا يتعامل معهم على أنهم مجرد أشياء.. طريق الإسلام الذى يأخذ من روح الرسول ﷺ منهجاً وطريقاً.. وليس الإسلام السطحى الذى يهتم بتوافه الأمور ويحشد نفسه لحروب ليست موجودة إلا فى خيالات أصحابها فقط!

أكذوبة .....
المهدى المنتظر

أكذوبة المهدى المنتظر!

لا تحتاج ظاهرة المهدى المنتظر التى تفشت فى مصر مثل النار فى الهشيم إلى رجل دين يتلو علينا ما حفظه من كتب التراث من أحاديث وروايات مشكوك فى صحتها يؤكد من خلالها بعد أن يلوى ذراعها أن أمة الإسلام فى انتظار رجل يخلصها من ذنوبها ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، ولا تحتاج الظاهرة كذلك إلى تخاريف بعض من يزعمون أنهم توصلوا إلى حقيقة الرجل الذى ينتظره المسلمون، لكنها تحتاج إلى علماء نفس ومتخصصين فى علم الاجتماع ليدرسوا أوجاع المجتمع المصرى ويصلوا إلى نقطة عجزه التى تجعله ضعيفاً ومهتزاً إلى الدرجة التى تجعله يعقد الأمل فى الخلاص على كتف رجل مجهول الملامح، وأغلب الظن أنه مجرد أسطورة صنعها الخوف من المجهول والشعور بالذنب، ثم العجز وعدم القدرة على مواجهة الأخطار التى تحيط بنا.

إن الحديث عن المهدى المنتظر يزدهر فى الأوقات التى تكون فيها الأمة الإسلامية على شفا حفرة من الهلاك والدمار، نتحدث عنه عندما تحيط بنا الأزمات الاقتصادية والسياسية.. باعتباره المنقذ من الهلاك.. ولأنه فى نظرنا البطل فإننا نضفى عليه من الصفات والملامح والقسمات ما يرفعه لدرجة القديسين والأنبياء.. ولأننا أعطينا العقل إجازة، فإننا نحتفى بهذا الحديث ونفرد له المساحات من أوقاتنا وصفحاتنا ونناقشه بجدية غريبة علينا، لقد اهتم المصريون فى الشوارع بموضوع المهدى المنتظر الذى ورد فى برنامج تليفزيونى عابر أكثر من اهتمامهم بمؤامرة ضرب العراق وسحق عظام أطفال فلسطين، وتحدثوا عنه أكثر مما تحدثوا عن رجال الأعمال الذين نهبوا البنوك وهربوا.

لم يختلف حديثنا عن المهدى المنتظر عن ثرثرة جلساء النميمة الذين اهتموا بشريط دينا الجنسى مع حسام أبو الفتوح.. ووفاة علاء ولى الدين المفاجئة.. فنحن فارغون جداً للدرجة التى تجعلنا نصدق كل شىء.. ونلهث وراء كل شىء.. وكما رزقنا الله بمن يشيعون أن ظهور المهدى المنتظر قد اقترب.. فإنه رزقنا كذلك بمن يدعون أنهم هم المهدى المنتظر بنفسه.. بشحمه ولحمه وأعصابه.

جاءنى واحد منهم.. من العجمى بالإسكندرية اسمه الأول أشرف وبقية الاسم أحتفظ به..

أصر إصراراً لا يقبل الشك أنه المهدى المنتظر وأنه يملك من الأدلة ما يدعم كلامه ويؤكده.. كان كل حلمه أن يصل صوته إلى الرئيس .. لأنه رأى رؤية صالحة وعلى حد كلامه صادقة وواضحة للرئيس.. وإذا ما تحققت فسيتم بها النصر للأمتين العربية والإسلامية دون حرب.

حاول مهدى الإسكندرية المنتظر أن يقابل الرئيس، سلك لذلك كل السبل قابل شيخ الأزهر مرتين، وقف أمام مكتب ممدوح الليثى دون أن يجيبه أحد، رفض محافظ الإسكندرية عبد السلام المحجوب أن يقابله عشر مرات، وأصبح سخرية لموظفى مكتبه، وعندما قابل وكيل وزارة الأوقاف بالإسكندرية قال له ساخراً: «طب ادعى لنا يا مولانا»، ذهب إلى المخابرات العامة بالإسكندرية، فقالوا له إنت تانى، وذهب إلى أمن الدولة فقالوا له: «كل ما نستطيع أن نقوله لك إنك عاقل جداً» فى قصر عابدين الذى تردد عليه أربع مرات قالوا له: «روح ألعب بعيد بلا رؤية بلا كلام فارغ»، وفى قصر القبة الذى تردد عليه أربع مرات أيضاً تعامل معه الحرس بعنف.

لم ييأس مهدى الإسكندرية، ذهب إلى أساتذة قسم الشريعة بحقوق الإسكندرية جلس مع د. مجدى شهاب عميد الكلية، ورجاه أن يتوسط شقيقه د. مفيد شهاب لدى الرئيس حتى يقابله.. لكن د. مجدى لم يستجب له، حاول مقابلة وزير العدل، أرسل خطابات عديدة إلى د. أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب.. لكنه لا يعلم هل وصلت الرسائل إليه أم ضلت الطريق.

فشل مهدينا فى مقابلة رئيس الجمهورية.. لكنه ظل على إصراره أنه هو المهدى.. ولذلك فقد بدأ فى الدفاع عن شرعيته، اتصل بمؤلف كتاب «هرمجدون.. آخر بيان يا أمة الإسلام» وكتاب «عمر أمة الإسلام.. وقرب ظهور المهدى المنتظر عليه السلام» ولم يستفد من هذا الاتصال شيئاً إلا أن ضاعت عليه خمسة جنيهات التهمتها كابينة «ميناتل»، مؤلف الكتابين يصر على أن اسم المهدى المنتظر هو محمد بن عبد الله.. وأن الحرب الفاصلة ستكون بالخيول والسيوف لأن الكمبيوترات التى تعمل بها الطائرات والصواريخ ستتعطل بسبب ما، ولذلك سترجع الخيول للحرب.

ولأن مهدى الإسكندرية ليس اسمه محمد، فقد قال لمؤلف كتاب «هرمجدون» إن العلماء أخطأوا فى ذلك وأجمعوا على ذلك خطأ، كما أجمعوا على أن الحرب ستكون بالخيول

والسيوف. ويؤكد مهدى الإسكندرية أن الحرب ستكون إعلامية عن طريق فيلم أوحى الله له بفكرته وأبعاده، فيلم يحارب به كل الكون، وسيراه العالم أجمع، وسيعرف العالم من خلاله بالدلائل المادية أن الموساد هم مرتكبو أحداث ١١ سبتمبر، وقد فاتح المخرج محمد كامل القليوبى فى فكرة هذا الفيلم.. لكنه تردد وارتبك ارتباكاً غريباً وتقطعت كلماته على لسانه وفر من أمام المهدى المنتظر خائفاً. .

دفاع مهدى الإسكندرية عن حقه فى فوزه باللقب جعله يستعين بحديث يقول إن أبا هريرة هو الذى رواه، يقول فيه الرسول ﷺ «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى إليها، من «تشرف» لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذبه»، فمن تشرف لها تستشرفه فهى كنية الاسم للمهدى، ولذلك يرى مهدى الإسكندرية أنه لا يستشف اسم محمد من «تشرف» ولكن يستشف اسم أشرف.

المسألة أكبر من ذلك فأشرف مهدى الإسكندرية يقول إن المهدى الأمين يخرج ليحارب كل الكون، يجمعون له الضالين والمغضوب عليهم والذين مردوا على النفاق، وهن ممثلات من هوليوود يقمن ببطولة الفيلم الذى سيقدمه وسيدخل فيه حقائق ارتكاب الموساد لأحداث ١١ سبتمبر دون علم المثلين بذلك، لأنهم ضالون ومغضوب عليه ومردوا على النفاق! !

يعود أشرف مرة أخرى إلى فيلمه الذى أوحى له الله بفكرته.. فسيكتب الفيلم بشكل معين إلى أن يتم تصوير أكثر من نصفه، ثم تتغير به أحداث لا تخل بالمضمون الكلى، ثم تدخل عليه مشاهد لا علم لأبطاله بها، حتى أن رسول الله ﷺ يقول فى ذلك «تغزون أنتم والروم عدواً لكم ولهم اليهود من وراء ظهورهم فتغزون وتسلمون ويقول الرسول: سيكون هناك درة شديدة أثناء الغزو (أى الفيلم من وجهة نظر أشرف) وهى اعتراض أبطال الفيلم على اشتراك وجه جديد معهم وهو المهدى.. ويستمر أشرف فى تفسيراته الملتهبة أن الرسول قال: سينتهى الروم ويرجعون إلى بلادهم وفى نيتهم الغدر أى وفى نيتهم عدم عرض هذا الفيلم فى أمريكا، وبالتالى ومع حذف المشاهد الهوليودية الصريحة فى أثناء عرضه فى البلاد العربية يصبح الفيلم بلا قيمة.

هل تريدون المزيد؟! يواصل أشرف مهدى الإسكندرية كلامه عن فيلمه الذى سيحارب به الغرب، فعندما يغدر به الأمريكان.. فإنه سيكون قد أعد العدة كاملة لعرضه فى البلاد

العربية وبكل مشاهده الصريحة فى حيز من العمر لا يقل عن ٢١ عاماً، وقد أراه الله حلاً لهذا اللغز، ويستشهد فى ذلك بما جاء فى كتاب صلاح عيسى «حكايات من دفتر الوطن».. عندما يرى فى الكتاب صورة للنخاس وهو يعرض، الجارية للمشترى وهى عارية كما ولدتها أمها وهى صورة من صور التراث الإسلامى، وعليه فإذا كان الله أتاح للمسلم شرعاً وليس قانوناً أن يشترى الجارية بعد أن يراها كما ولدتها أمها برؤى العين، وهو ليس حراماً، فهل من الحرام أن يراها بالقياس على شاشة السينما؟!

ويكشف مهدى الإسكندرية سبب إصراره على مقابلة الرئيس، من أن تحقيق رؤياه يحتاج إلى ٥٠ مليون دولار لنصرة هذه الأمة على عدوها الصهيونى الذى ارتكب حادثة ١١ سبتمبر، ثم ألصقها بالمسلمين ظلماً وعدواناً، لقد تصدى أشرف لهذه المهمة، لأنه- كما يقول- المهدى المنتظر.. فالمهدى نعم من نسل الرسول ﷺ، لكنه سيكون من أرض مصر.

لم أعرض لكم حكاية مهدى الإسكندرية من باب التسلية. . ولكنها تأتى من باب الأسف لأنه تكشف إلى أى منحدر هبطنا.. إن مهدى الإسكندرية ليس وحده الذى يدعى أنه المهدى المنتظر الذى يأتى خلاص الأمة على يديه.. ولكن هناك آلاف ممن يعتقدون فى أنفسهم أنهم المهديون المنتظرون.. وليس هذا غريباً.. بل طبيعى للغاية فى زمن غاب فيه العقل وأفسحنا الطريق للخرافات والأفكار الهلامية التى لا تقوم على قدمين ثابتتين.

إن فكرة المهدى المنتظر لا تعدو فى نظرنا إلا ترجمة لحالة من العجز نعيشها وتسيطر علينا.. وحالة من التخلف جعلتنا أسرى لروايات افترى بها البعض على الرسول ﷺ واستغلها بعض ضعاف النفوس والعقول وروجوا لفكرة البطل الذى سيخرج من رحم الغيب لينقذنا.. وللأسف الشديد فقد استجاب لذلك علماء الأزهر الشريف.. وعدد كبير من الكتاب الذى نصبوا سرادق لتعاطى الخرافة والنصب بها على خلق الله دون مراعاة لأى ذرة من ضمير.

أعرف أنه ليس عندنا من يمتلك جرأة مناقشة فكرة المهدى المنتظر بتحرر علمى وموضعية وحيدة شديدة.. لكن يظل السؤال هو متى سيظهر من بين علمائنا من يحترم عقولنا.. من يقول لنا إن المهدى المنتظر مجرد معنى جميل نجده فى داخلنا يأتينا من خارجنا.. ولكن نحن قادرون على أن ننتصر ونخرج من عجزنا، دون الحاجة إلى منقذ من الخارج يضحك به علينا تجار العقول.. الذين يتربحون من الخرافات.

وطن فى ضريح

وطـن فى ضـريح

إذا فتحت رأس أى مواطن مصرى ستجد فيه برامج تليفزيون تافهة ومصاريف الدروس الخصوصية وصلاة التراويح وصوت أم كلثوم وإذاعة الشرق الأوسط وصورة الشيخ الشعراوى وذنوبا بالكوم ارتكبها ودعاء أن يغفرها الله.. وأوراق صحيفة صفراء ومشاهد ساخنة من أغنية لنانسى عجرم وأبيات شعر من قصيدة لنزار قبانى وجملة بليغة من مقال لهيكل.. وشخصية غريبة من شخصيات نجيب محفوظ وحلما بأن يصبح غنيا وأمنية أن يقضى شهور الصيف فى مارينا.. وكوب شاى وحجرين شيشة ولا مانع من سيجارة بانجو ونكت فى الغالب جنسية.. وإلى جوار ذلك كله يسكن رأس كل مواطن مصرى.. ولى من أولياء الله الصالحين.

ولى يعتقد كل منا أنه قادر على حل جميع المشاكل وإزالة كل الهموم.. فهم أهل الله الذين وهبوا أنفسهم إليه ولابد أن شفاعتهم ستكون مقبولة عند الله.. ولذلك لا يتردد المصريون فى أن يمرغوا وجوههم على أخشاب الأضرحة والدموع تبلل وجوههم.. فهم فقدوا الأمل فى كل شىء ولم يبق لهم سوى أولياء الله الواصلين.

منذ صغرى تشغلنى صورة الأولياء وقدراتهم وكراماتهم.. وأسماءهم.. لم يكن فى قريتنا مولد لأحدهم على عادة القرى المصرية.. مرة واحدة أقيم مولد كبير استغرق سبعة أيام لسيدى منصور الباز الذى كان يرقد قبره على شاطىء النيل بجوار المسجد الكبير.. ولم يكن المولد من أجل عيون الولى الذى لا نعرف حتى الآن شيئا عن نسبه ولا حياته ولا من أين جاء وهل عاش بالفعل فى بلدنا.. أم جاءها طائرا كما يروج البعض؟.. ولكن المولد أقيم عندنا فى شيخ المسجد الذى خصص عددا من خطبه للحديث عن حرمة الموالد وعدم شرعيتها.. والذنوب التى ترتكب فيها.. كنا نقيم مولدا كل عام فى ذكرى المولد النبوى يحييه أحد المداحين المشهورين مثل الشيخ محمد عبد الهادى أو الشيخ أحمد مجاهد – فعلق شيخ الجامع عليه.. فتصدى له عدد من كبار البلدة وقالوا الشيخ غضب من مولد واحد.. فسنقيم له مولدين وليخبط رأسه فى الحائط!.

فرحت بمولد سيدى منصور الباز.. مثلما فرح غيرى– لكنى لم انس أبدا ما قاله أحد المسئولين عن إقامة المولد.. عندما أحضر أحد المريدين للشيخ منصور– ولا أعرف من أين أتوا-

كسوة من القماش الأخضر ليكسو بها القبر.. فأخذه منه المسئول عن المولد بعنف.. وقال له كسوة إيه.. وزفت إيه أنت فاكر إحنا عملنا المولد ده عشان منصور الباز بجد. ثم كان ما هو أكثر.. فقد سمعت من بعض الحاضرين للمولد أنهم عندما أرادوا توسيع قبر منصور الباز وإعادة بنائه وجدوا فى قبرة ثلاثة جماجم لحمير.. ولم يكن بالقبر أى أثر لعظام إنسان.. قد يكون ما قاله رواد المولد صحيحا لكنى لم أره بعينى كما لم أر بعينى ما يقال فى كل قرى مصر عن أن معظم الاضرحة الموجودة ليست لأولياء الله الصالحين.. ولكنها لحيوانات ونصابين وأفاقين.. أراد البعض أن يستثمرهم ويكسب من ورائهم.. ليس إلا.

المصريون بحسهم الدينى ورغم أنهم يستمعون إلى هذه الشائعات.. لكنهم لا يتركونها تؤثر فيهم أو تشوه علاقاتهم بأولياء الله الصالحين.. وهى العلاقة التى جذبت انتباه أحد الباحثين العظام فى تاريخ مصر وهو د. سيد عويس.. فى عام ١٩٥٨ جمع د. عويس الرسائل التى يرسلها المصريون إلى ضريح الإمام الشافعى بالبريد.. أخضعها للدراسة.. وكانت النتائج مذهلة.

فالناس تخاطب الإمام الشافعى وكأنه شخص حى وذلك رغم مرور أكثر من ألف ومائتى سنة.. وهم فى رسائلهم سواء فى العناوين أو فى بداية الرسائل أو فى خاتمتها يخلعون عليه فى معظم الأحيان ألقاب التعظيم وكأنه شخص ذو سلطان يعيش بينهم، فهو عندهم صاحب المقام الرفيع وصاحب الموكب العظيم وصاحب السيادة والفضيلة المحترم.. صاحب المجد والشرف والسيد تاج الرأس والمولى والسيد الذى يتمتع ببركاته وقاضى الشريعة.

ويعتقد المصريون أن الشافعى ورغم موته يعرف كل شىء.. فالعارف لا يعرف.. بل إن بعض أصحاب الرسائل لا يذكرون أسماء الذين يشتكون منهم للشافعى.. فمؤكد أنه يعرف الظالين والمظلومين.. لأنه ملهم ذو بصيرة تخترق الحجب والأستار.. بل هناك ما هو أكثر من ذلك فبعض أصحاب الرسائل لا يذكرون موضوع الشكاوى أو الطلب معتمدين على فراسة الإمام الشافعى وإلهامه.. فهو سيعرف مم يشتكون ومم يعانون.. هل تريدون ما هو أكثر.. إن بعض الذين كتبوا الشكاوى إلى الإمام الشافعى يصرون على كتابة رسائلهم بكلام غير قابل للقراءة أو كلام لا يبدو عليه شكل الكلام العربى أو تكون الكتابة مضغوطة استعمل فيها سن قلم ليس فيه حبر.. وكأن بينهم وبين الإمام الشافعى أسرارا رهيبة لا يريدون كشفها إلا له، فهم يخاطبونه بلغة الأحاجى والألغاز أو بلغة أقرب ما تكون إلى لغة الشفرة.

والإمام الشافعى كما ظهر فى الرسائل التى درسها د. سيد عويس لديه قدرة هائلة على النظر فى أنواع متعددة من الشكاوى، فهو قادر على التصدى للشكاوى المتعلقة بالإعتداء على الأموال، وفى شكاوى الإعتداء على الأشخاص وفى الشكاوى المتعلقة بمشاكل الأسرة أو بمشاكل العمل.. ولا يقف المصريون فى طلباتهم من الإمام الشافعى على الأشياء العامة.. بل إنهم يطلبون منه أن ينتقم لهم وبشكل شخصى من أعدائهم بالعدل وأنه قادر على رفع الظلم الذى يحيق بهم، بل إنه قادر أيضا على نقل من يريد من مكان إلى آخر، وعلى إجابة طلب من يريد عملا أو يرغب فى العودة إلى عمل، وهو قادر على الشفاء من المرض، وعلى تشجيع رجل ليتزوج من أخرى، وعلى إعادة شخص غائب أو شىء مفقود وهو قادر على فناء إسرائيل.

مفاجآت الرسائل لم تتوقف عند هذا الحد.. فقد وجد د. عويس العجب، فالمصريون فى رسائلهم يتوسل بعضهم بالإمام الشافعى إلى الله، وبعضهم يتوسل به إلى النبى وهذا عادى للغاية.. أما غير العادى فكان فيمن توسل بالله والرسول إلى الإمام الشافعى حتى يرضى، وقد وصف بعض مرسلى الرسائل الإمام الشافعى بأنه الحق وأنه الوكيل المتصرف وأنه السيد الملاذ، وقد يخاطبه شخص بقوله: وحسبى الله وأنت الوكيل.. وتعاتبه سيدة لأنه سبق أن أرسلت إليه ولم يخلص لها حقها ثم تحتج عليه وتقول له: «وإذا كان يخلصك كده يبقى بلاش تشرع بين الناس بالله عليك، بل إن أحدهم كتب إليه قائلا: وأنا زعلان وصعبان على من الله جل وعلا» وهو كلام يكشف مكانة الإمام الشافعى.. التى هى عند المصريين أعلى من مكانة ملوكهم وحكامهم الذين يبدون فى النهاية عاجزين عن حل المشكلات البسيطة التى يتعرض لها المواطن العادى كل يوم فى الشارع.

إرسال المصريين الرسائل للموتى لم يبدأ بأولياء الله الصالحين وآل البيت المنتشرين فى كل مكان فى مصر.. ولكنها ظاهرة مصرية قديمة وخالصة.. فقد كانت الرسائل تكتب إلى الموتى فى العصر المصرى القديم.. وكان ترسل على وعاء أجوف أسطوانى الشكل يشبه السلطانية وهو مصنوع عادة من الخزف أو الفخار.. أما إذا كان مضمون الرسالة طويلا.. فكانت تكتب على ورق البردى أو على ورق مصنوع من الكتاب، كان أجدادنا القدماء يعتقدون أن موتاهم يكونون دائما على سفر وبعيدين عن قبورهم فهم فى السماء العليا فى مركب الشمس أحيانا وهم يروون ضياعهم وحقولهم أو يصطادون فى المستنقعات أحيانا أخرى، ولم تكن

رسائل أجدادنا إلى موتاهم لمجرد الرغبة فى الإتصال بهم.. فمؤكد أنهم كانوا يعتقدون أن للموتى نفوذا كبيرا إلى درجة أنهم يؤثرون فى مصائر الأحياء فى السراء والضراء.. وعليه فهم يطلبون منهم العون.. وقد يطلب البعض من أحد الموتى الأعزاء عليهم. رفع دعوى ضد شخص ميت آخر أذاه أو أضر به على أساس أن الاثنين يسكنان فى مدينة الموتى وأن الكتبة المتخصصين موجودون فى نفس المدينة.

الظاهرة قديمة إذن.. لا تعنى أن أولياء الله وأهل الخطوة من السادة الكبار يستعمرون المصريين ويحتلون عقولهم.. ولكن الموتى جميعا لهم نفس التأثير والمكانة عندنا.. ثم إن لنا طبيعة خاصة فى التعامل مع الأولياء.. ليس الآن ولكن منذ أن عرف شىء اسمه الأولياء على وجه الأرض، فلن تجد شعبا أغرب من الشعب المصرى فهو إن لم يجد ما يضحك عليه ضحك على نفسه، وإن لم يجد ما يسخر منه سخر من نفسه وجعلها عبرة، وإن لم يجد وليا يقدسه اخترع الولى وبنى له المقام وقدم إليه النذور والقرابين وطلب منه العفو والسماح والوساطة ليرضى الله ورسوله، يفعل المصريون ذلك بنفس راضية وبسعادة يحسدون عليها.. فى كل مرة يكتشفون زيف ما فعلوه.. لكنهم لا يتراجعون فكلما مات لنا ولى بعثنا الروح فى ولى آخر!.

لا أجد تفسيرا علميا لذلك وإن كان التفسير الروحى أقرب فالناس فى مصر عندما ييأسون من حياتهم يطلبون التغيير فلا يجدونه.. يشعرون بأزمة مالية خانقة لا مخرج ولا منجى منها، تطاردهم أشباح الإفلاس والفشل تؤرقهم وعود الحكومة الكاذبة.. ينامون على مشاكل ويستيقظون على هموم.. عندما تحاصرهم هذه الحياة يذهبون إلى الدين ويولون وجوههم شطر أضرحة الأولياء.. يختارون الجلوس أمام أعتابهم علهم يجدون عندهم دواء شافيا.. ولا يمر ذلك مرور الكرام إذ يستغله البعض.. فيبيعون للناس بضاعة زائفة تسكن أوجاعهم بعض الوقت.. لكنها لا تشفيهم أبدا!.

لست أرى فى زيارة المصريين للأضرحة والوقوف على أعتاب الأولياء أية مخالفة.. وأشفق كثيرا على من يطلقون على من يصلى فى مسجد به ضريح أنه كافر.. فالمصريون مؤمنون للغاية- لا يشركون بربهم شيئا.. لكنهم يفعلون ذلك على طريقتهم الخاصة.. وإذا حدث وسألت مصريا اعتصم بأحد الأضرحة.. لما تذهب إلى مسجد الحسين أو مسجد السيدة زينب... سيقول لك إننى أفعل ذلك حتى أستريح.. لكى يستريح فقط لا أكثر ولا أقل من ذلك.. فهل نلومه أو نكفره.. أرى ذلك شيئا يخاصم العقل..

الشيء المفزع والذى يجبرنا أن ننتبه إليه.. هو أن الوطن كله الآن يتجه وبكل قوة إلى اللجوء إلى الأضرحة.. الحكومة عاجزة غير قادرة على إنقاذ نفسها من الكوارث التى تحيط بها.. ملايين الشباب جالسون على المقاهى بلا عمل.. الفساد أصبح اللغة السائدة فى مؤسسات الدولة.. شيوخ الدين جعلوا منه سبوبة تكسبوا منها على قدر ما استطاعوا.. ثم خرجوا يعايروننا بذنبونا وكأنهم بلا ذنوب.. إن الفيضان الذى يصب فى أضرحة الأولياء يؤكد أننا نعيش على الماضى.. نغوص فيه.. من حق أولياء الله الصالحين علينا أن نجلهم ونضعهم على رءوسنا.. ونزورهم ونقرأ لهم الفاتحة ونطلب لهم الرحمة.. ثم نمضى لتكمل حياتنا.. التى ينفعنا فيها ما نفعله.. لا ما نتوهمه.

الثقافة الجنسية .....
فى منـاهج التربية الإسلامية!

الثقافة الجنسية فى مناهج التربية الإسلامية!

وقفت تلميذة فى الصف الأول الإعدادى بإحدى مدارس وزارة التربية والتعليم تسأل مدرس مادة التربية الإسلامية، الذى يسمى فى المدارس تجاوزا مدرس الدين، قالت له يعنى إيه «جُنب» يا أستاذ؟ أحمر وجه المدرس خجلاً وقال لها بغضب.. اقعدى يا بنت بلاش قلة أدب!

هذه الإجابة المخجلة لها أسباب عديدة، مدرس الدين واحد منها فقط، وليس كلها، فمدرسو التربية الإسلامية فى مدارسنا فى الغالب من خريجى كلية التربية، قسم اللغة العربية، وخريجو هذا القسم بالتحديد إما فشلوا فى دخول الأقسام المهمة فى كليات التربية، مثل قسم اللغة الإنجليزية، أو انهم كبروا دماغهم عن الدراسة فيدخلون قسماً لا يحتاج إلى تعب أو مجهود، فهم بأقل مذاكرة وأقل نسبة حضور يستطيعون أن يحصلوا على تقدير جيد.

إلى جانب خريجى التربية يأتى خريجو كلية دار العلوم وجامعة الأزهر الذين لا يحتاج مستواهم إلى تعليق، فمستواهم معروف لدى الجميع، فهم لا يهتمون إلا بتصوير المذكرات والنجاح فى الامتحانات، وحتى تعرف مستوى طلبة دار العلوم والأزهر فى الثقافة الإسلامية فإليك فقط نموذجان مما حدث فى امتحان الشفوى فى كلية دار العلوم وكلية اللغة العربية بالأزهر.

فى كلية دار العلوم سأل الممتحن الطالب عن عدد أجزاء القرآن الكريم فرد عليه الطالب بإجابة لا أعرف من أين أتى بها قائلاً: ٣٣ جزءاً، فتعجب الممتحن وقال له يا ابنى اعتقد أنه ٣٠ جزءاً فقط، اعتقد الطالب أن الممتحن يضلله فأكد أن عدد أجزاء القرآن ٣٣ جزءا، وزيادة فى التأكيد أقسم الطالب بالله العظيم أن أجزاء القرآن ٣٣ جزءا لا تنقص واحداً.

وفى امتحانات كلية أصول الدين، أراد الممتحن أن يختبر معلومات الطالب فقال له اقرأ قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم «إنما الأعمال بالنيات ولك امرىء ما نوى» فأكمل الطالب بسرعة، «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وقبل أن يفيق الممتحن من دهشته إذا بالطالب يختم إجابته بـ«صدق الله العظيم»، فهو لا يعرف الفرق بين الآية الكريمة والحديث الشريف.

موقف ثالث قد يصل فى طرافته إلى درجة النكتة، فقد وقفت إحدى المدرسات فى

مدرسة ابتدائية تقرأ للطلبة سورة الشرح بدأت القراءة ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وبدلاً من أن تكمل المدرسة قراءة السورة قالت إحذفوا فإن مع العسر يسراً الثانية لأنه خطأ مطبعى!

هذه ببساطة مواقف تكشف عن مستوى من يدرسون التربية الإسلامية فى مدارسنا، لكن هل المدرسون هم المسئولون فقط عن تخريج طلبة جهلاء، لا يعرفون أحكام الإسلام فى شئون حياتهم الخاصة، بالطبع لا، فالمناهج الإسلامية التى تدرس لتلاميذ وطلبة المدارس تعانى من السطحية الشديدة، مؤلفو هذه الكتب يكتفون فقط بتصدير مقدمات كتبهم بعبارات ضخمة وهذه أيضاً مجرد أمثلة.

فى كتاب التربية الإسلامية المقرر على الصف الثالث الابتدائى قال المؤلفون: إن الكتاب يركز على المفاهيم التى يحتاج إليها التلاميذ فى مجتمعهم مثل: البعد عن العنف والتربية السياسية والعمل الإسلامى الصحيح والأمن القومى وعلاج مشكلات المجتمع وخدمته ومحاربة التلوث، وغير ذلك من المفاهيم التى تتطلبها طبيعة الظروف الراهنة التى تعيشها مصرنا الغالية، ولم نغفل فى عرض المادة العلمية تضمين مفاهيم من القضايا العالمية المعاصرة وربط ما يدرسه بواقع حياته اليومية.

وفى كتاب التربية الإسلامية المقرر على الصف الثالث الإعدادى قال المؤلفون- هم دائما مؤلفون لا مؤلف واحد- إن جوهر التركيز فى هذا المنهج هو مساعدة التلاميذ على تعميق تصورهم الإسلامى وفهمهم لأمور دينهم والقيم الإسلامية والنظم الاجتماعية والتأكيد على الايمان بالغيب وأهمية الجهاد فى سبيل الله، وهذا التصور يحفظ للطلبة تميزهم الإنسانى وتميز مجتمعهم ويحميهم من الإنزلاق إلى السلوك الضار مثل التطرف والعنف والإدمان وغير ذلك من أنواع الانحراف.

الكلام عظيم ولو كان حقيقياً ويراعيه المؤلفون فى كتبهم لما عانينا، ولما فكرنا فى الحديث عن تطوير مناهج التربية الإسلامية فى المدارس، فكلام المقدمات شىء والموجود على صفحات الكتب شىء آخر تماما، يصل به الأمر إلى أنه يكاد يتناقض!

فمضمون كتب التربية الإسلامية يحول آيات القرآن إلى تكدير عام للطلبة حيث يطالبون

بحفظها على طريقة الكتاتيب زمان دون الاهتمام بالمعانى العظيمة التى تتضمنها هذه الآيات، فسورة يس تقرر على طلبة الصف الأول الإعدادى لأنها قلب القرآن، وعسى أن ينتفعوا بها فى يومهم وغدهم، لعل بركات السورة تحل عليهم، إن هذا التقديم لسورة يس فى الكتب الدراسية يقلل من قيمة دروسها العديدة، لصالح التبرك بها على طريقة مجاذيب السيدة والحسين.

وإذا أراد وزير التعليم التأكد من طريقة تحفيظ القرآن فى مدارسه فليسأل الطلبة الذين يكرهون الحصة التى يسمعون فيها حفظهم للسورة المقررة عليهم، مصدر الشكوى ليس سببه فقط أنهم يعتبرون الحفظ ليس مهما بالنسبة لهم لأنه ليس عليه درجات تضاف إلى نتيجتهم آخر العام، ولكن سببه أيضا أن المدرسين يبالغون فى عقاب الطلبة الذين لا يحفظون.

إن تدريس القرآن فى المدارس يجب ألا يكون متعسفاً، يهتم بروح الآيات وعطاءاتها، أكثر من الاهتمام بالألفاظ التى قد لا يفهمها الطلبة، لأن من يقوم بالتدريس أساساً لا يفهم هذه الألفاظ، ولا يعرف تفسيرها، لا كما جاء فى كتب التفسير الكبيرة ولا حتى فى كتب الوزارة، فالمدرسون لا يقرءون يا وزير التعليم.

لا تفصل كتب التربية الإسلامية فى مدارسنا بين معنى الجهاد الحقيقى فى سبيل الله ومعنى الجهاد فى سبيل غيره فهى تعلمهم أن الجهاد واجب دينى، ولكنها لا تقول لهم متى وأين، ولذلك يسهل بعد ذلك أن يتم استقطاب الطلبة من قبل أى جماعة متطرفة وتجنيدهم للجهاد فى سبيل الله، حتى لو كان هذا الجهاد قتل الضحايا والأبرياء والأطفال الذين لا حول لهم ولا طول.

ورغم أن مدرسى التربية الإسلامية يعلمون الطلبة ضرورة الإيمان بالغيب على اعتبار أنه أصل من أصول العقيدة الإسلامية، فإنهم يعلمونهم التغييب لا الغيب، وذلك بالتركيز على قدرات الجن الذى يستطيع أن يسكن الإنسان بسهولة إذا غفل عن ذكر الله.

مدرسة بإحدى المدارس الثانوية كانت تهتم بالحديث عن الأرواح وتحضيرها والاستعانة بها فى معرفة الغيب، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك عندما حاولت إقناع الطلبة بأن هناك زواجا يحدث بين الإنس والجن بلا أدنى مشاكل، التركيز على هذا الجانب يخلق طلبة مشوهين عقليا، يمكن أن يقادوا بسهولة، فهم يسمعون أن الدين يدعو إلى العلم كشعار، لكن فى التطبيق يحدث العكس، فلا حديث الا عن الجن والخزعبلات.

لقد أثبتت معظم الدراسات التى أجريت على المترددين على الدجالين وأوكار الشعوذة أن عدداً كبيراً منهم من المتعلمين والحاصلين على شهادات عليا، والأمر ليس غريبا على الاطلاق فجذور التغييب عند هؤلاء المتعلمين تبدأ من المدارس وتحديداً من مناهج التربية الإسلامية، التى تعلى من قيمة الغيبيات وتحديداً عالم الجن وما يحدث فيه من معجزات وخوارق.

لا تزرع مناهج التربية الإسلامية فى الطلبة روح النقد والإعتراض على ما يعتقدون أنه خطأ، بل ترسخ عندهم روح الطاعة لكل ما يقال لهم، ولذلك ترى توجهات الحكومة واضحة بشدة فى مناهج التربية الإسلامية، فالكتب تدعو إلى تنظيم الأسرة وليس مهما أن تكون الدعوة موجهة لتلاميذ صغار، فالحديث عن تنظيم الأسرة جاء فى أحد كتب التربية الإسلامية، هكذا: «تنظيم الأسرة أن يتخذ الزوجان باختيارهما واقتناعهما الوسائل التى يريانها كفيلة بتباعد فترات الحمل، أو إيقافه لمدة معينة من الزمان يتفقان عليها فيما بينهما، والمقصود من ذلك تقليل عدد أفراد الأسرة بصورة تجعل الأبوين يستطيعان القيام برعاية أبنائهما رعاية متكاملة، فهذا حلال».

قد يكون مقبولاً أن تدخل موضوعات مثل محاربة التدخين والتحذير من إدمان المخدرات إلى مناهج التربية الإسلامية لكن موضوعا مثل تنظيم الأسرة ماذا يفيد الطلاب، إلا إذا كان المؤلفون الذين يصنعون هذه الكتب يريدون أن يفوزوا برضا الوزارة فتقبل كتبهم وتقررها على الطلبة بلا نقاش!

موضوعات السيرة النبوية التى يحرص مؤلفو كتب التربية الإسلامية على الاهتمام بها وتوافق عليها وزارة التعليم، تعرض بشكل تقليدى للغاية، شكل يصبغ القداسة، على كل ما ورد فى كتب السيرة حتى ولو كان يخالف العقل والمنطق، لا يسمح باختلاف أو نقد أو سؤال أو حتى تفكير، فلا مكان لتشغيل العقل وهو الأمر الذى طالب به الإسلام وحث عليه القرآن، السيرة فى كتب وزارة التعليم مجرد مجموعة حكايات تروى، صحيح أن المؤلفين يهتمون بإبراز الدروس المستفادة، مرة من هجرة الرسول ومرة من الغزوات الكثيرة فى الإسلام.

بعض الكتب تبرز دروساً لها قيمة مثل درس الاستعانة بالخبراء المختصين فى الهجرة، فقد استعان الرسول بعبد الله بن أريقط مع أنه مشرك لأنه خبير بالصحراء ومسالكها والسير فيها، لكن للأسف الشديد تضيع قيمة هذه الدروس، لأنه لا يوجد اهتمام كاف بحصة التربية الإسلامية التى يتم السطو عليها غالبا لصالح حصص المواد الأخرى، فالطلبة يستهينون بحصص التربية الإسلامية والمدرسون أيضاً!

نصل إلى النقطة الأهم والتى من أجلها وضعنا فى بداية الموضوع سؤال الطالبة لأستاذها عن معنى كلمة «جُنب»، ليس هذا السؤال وحده هو الذى يحير الطلبة فى المدارس، فقد وضع مؤلفو الكتب أن من نواقض الوضوء الحدثين الأصغر والأكبر.. ولا يفسر المؤلفون لا معنى الحدث الأصغر ولا معنى الحدث الأكبر.

تستطيع كتب ومناهج التربية الإسلامية أن تكون مصدراً مهما من مصادر تعليم الثقافة الجنسية فى مدارسنا، أن تقول للطلبة ما هى الجنابة وكيفية الغسل منها على حسب الشرع، أن تعلم الطالبات ما هو معنى الدورة الشهرية وكيفية التطهر منها، تعرض لهن الأحكام الشرعية فى العلاقات الجنسية المحرمة التى قد تنشأ بينهم.

قد تعتبر وزارة التعليم هذا تدخلاً فى شئونها الداخلية، وقد يعتبر البعض هذا دعوة للإباحية الجنسية من خلال كتب التربية الإسلامية، على اعتبار أن الثقافة الجنسية رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، ولا يجب أن نتحدث عنها فى كتب التربية الإسلامية، فالجنس فى هذه الحالة سيكون مشفوعا برأى الدين فيه، ليس رأى الدين القابع فى كتب التراث التى تحرم كل شىء، ولكن رأى الدين على ضوء الإجتهادات الحديثة فى الدين!

إن تخلى كتب التربية الإسلامية عن توضيح الأمور الجنسية الصغيرة يجعل الطلبة يستعينون بزملائهم فى تعليمهم كل ما يسمعونه عن الجنس المجهول، فتلاميذ المدارس لا يطمعون فى معرفة شىء عن الأوضاع الجنسية حاشاً لله، ولا يريدون أن نحدثهم فى المدارس عن المنشطات الجنسية، لكنهم يريدون أن يعرفوا معنى الكلمات الغامضة التى ترد بين السطور مثل «جنب» و«الجماع» و«الدورة الشهرية».. ونعتقد أن الحديث عن هذه الكلمات ليس عيبا ولا قلة أدب، خاصة إذا كان الكلام على مقاس الدين كما تريد وزارة التعليم.

بوى فريند .....
شرعــى

بوى فريند .. شرعى

مجنون من يعتقد أن هذا المجتمع لا يعانى من مشكلة جنسية خانقة، تؤرقه وتزعجه وتفسد عليه أحلامه، لا أقصد بالطبع مشكلات المتزوجين الرجل الذى لا يعرف.. والمرأة التى تتحول إلى لوح ثلج.. لكنى أتحدث عن الشباب الذين يعانون دون أن يجدوا تفريجا لكبتهم أو متنفسا لعواطفهم المتأججة، أعنى الشباب الذين تزيد معاناتهم ليس بسبب الرغبة المحبوسة فقط. ولكن بسبب تعالى المجتمع عليهم.. ورفضه لأى شكوى منهم.. وتعامله معها على أنها ترف.. فأى جنس هذا الذى يريده الشباب وهم لا يستطيعون أن يفتحوا بيتا أو يتحملوا مسئولية بيت وأطفال، وأى زواج يمكن أن يتم دون شبكة ومهر وشقة وعفش وليلة زفاف لابد أن تعقد فى فندق.. والشباب كما نعلم على فيض الكريم لا يملك شيئا.

هذه المشكلة التى يصر المجتمع على أن يصم أذنيه دونها تفجرت برسالة وفتوى من شيخ يمنى هو المفكر عبد المجيد الزندانى.. ولنبدأ بالفتوى ففى حواره مع موقع «إسلام أون لاين» قال الزندانى أنه يمكن للمسلمين خلق صلة زوجية جديدة تحت اسم «زواج فريند» بدلا من نظام «جيرل فريند» الموجود فى الغرب، ويمكن للشاب والشابة من خلال هذه الصلة الزوجية الجديدة أن يرتبطا بعقد زواج شرعى دون أن يمتلكا بيتا يأويان إليه، إذ يكتفى فى البداية بأن يعود كل منهما إلى منزل أبويه بعد اللقاء.

كان الشيخ الزندانى يوجه كلامه إلى العلماء والباحثين المسلمين الذين يعيشون فى الغرب، وقد قدم لهم هذا الحل حتى يساعدوا به الشباب المسلم فى الغرب على أن يلتزم بالأخلاق الإسلامية وقد أوصاهم بأن يطوروا «فقه الأقليات» على أن يكون أساس التطوير هو التيسير على الناس وتفهم خصوصية المكان والزمان اللذين يعيشون فيهما.

اقتراح الزندانى أو فتواه التى وجهها إلى مسلمى الغرب — لابد أن ننقله بحذافيره إلى العالم العربى والإسلامى كله.. وهو إجراء تفرزه المشاكل العديدة التى يعانى منها الشباب.. الذين يمتلكون الرغبة لكنهم لا يمتلكون شقة ومالا.. ومن بينهم هذا الشاب الذى أرسل برسالة إلى الموقع نفسه وتجعلنا نقف بقوة خلف اقتراح الزندانى.. لكن قبل أن نفسر كيف يمكن أن نقف وراء هذه الفتوى.. ما رأيكم أن نعرض لتفاصيل رسالة الشاب المصرى المسلم

الذى يبلغ من العمر ثلاثين عاما ويعانى من مشكلة جنسية طاحنة.

فى زاوية مشاكل وحلول الشباب التى يشرف عليها د. أحمد عبد الله.. يقول الشاب المصرى:

أنا شاب مسلم مصرى على أعتاب الثلاثين، بدأت خبرتى بالجنس منذ كنت صغيرا أنام على فراش والدى، ولا تزال صورة أبى وأمى فى علاقتهما الخاصة حية فى ذاكرتى، وكنت ابن الثلاث أو الأربع سنوات، ولا أزال أذكر ما كنت أفعل من قفزى على السرير، وأنا يدى على كتفى أمى وهى واقفة على الأرض أمامى وأقول لها: أنا أريد أن أعمل مثل أبى «وكذلك تجسسى بأذنى من وراء الباب عليهما وعدم ردع أى من إخوتى الكبار لى».

ويذكر الشاب المصرى فى رسالته الليلة التى بلغ فيها مبلغ الرجال بشكل إرادى، كان عائدا من السينما ووجد شابا لا يعرفه أهداه إحدى النصائح الجنسية فعمل بها.. وبعدها أحس أن الأرض ترتجف تحته مع عدم معرفته ماذا حدث؟ كان يحس برغبة فى التبول ومعها حرقان، وهكذا بدأت رحلة كفاحه الطويل وجهاده الرهيب مع العادة السرية فى سن الحادية عشرة، كانت وسيلة ممتعة لكنه لم يكن يعرف ما هى؟ ومن قراءاته المستمرة فى مجلة طبيبك الخاص- وربما كما يقول من خطب الجمعة- بدأ يشعر أنها خطأ وحرام.

فى المدرسة الثانوية تغير الحال قليلا يقول: تدينت وشغفت بقراءة كل ما هو جنسى من الفقه، وكان هذا يقع منى موقعين: الإثارة التى أبحث عنها وزيادة لهيب النفس اللوامة، وكذلك المعرفة الفقهية بالأحكام وعلمت حكمها، وبدأت رحلة الإقلاع، صراع رهيب لإزالة الشهوة، ماذا أفعل بك أيها العضو القذر الذى سيدخلنى جهنم؟! صببت على عضوى كحولا خدرته بالمراهم وضعت حوله حلقة معدنية حتى ينطفئ إذا انتصب، ربطته بالأربطة، عرفت بعد ذلك أبو حامد الغزالى واستغرقت فى الدجاهدة والجوع والصوم المتتابع حتى أصابتنى أنيميا الدم والرياضة البدنية والذكر المستمر بالقلب واللسان وزيادة المقابر والإعتكاف بعد الفجر بالمسجد، وحدى أنوح وأجهش بالبكاء فى قراءتى للقرآن، وصراخى وتبتلى أن يرفع عنى الله بأس شهوتى المشتعلة كالبركان المحموم!

لا يذكر صديقنا البائس كم مرة خبط رأسه فى الحائط من فرط غيظه وبكائه وندمه على سقوطه فى الاستمناء، لكم بقبضته الحائط، عض على يديه، ولا يذكر كم مرة تصدق بالمسجد، ولا كم مرة سهر يقوم الليل ويقرأ من المصحف ويبكى ووالده يتعجب وينهره حتى

يستطيع الذهاب إلى المدرسة مبكرا، اقترب من التيار الإسلامى فى المدرسة.. عاش أفضل أيام حياته، ذاق حلاوة القرآن ولذة المجاهدة ولذة الصبر المؤلم جسديا أول الأمر المريح قلبيا آخره.. حتى ترك العادة السرية تركها وهو يعرف نفسه شابا متأجج العواطف والمشاعر.

كان يصوم يومين فى الأسبوع وعندما يأكل يقوم قبل أن يشبع، حباه الله نعمة غض البصر بقوة ومتعة، لكن عندما التحق بالجامعة استمرت معاناته وعاد للعادة السرية وفى الجيش زادت مشاكله وإن كان الضغط النفسى المضاعف أدى إلى زيادة الممارسة وتم ذلك أيضا بفعل ما سمع من قصص من رفاقه عن مغامراتهم الجنسية.

والآن يقول صاحبنا: مازلت متعبا أفوز على نفسى مرة وأخسر أخرى فى انتظار الزوجة الصالحة، مشكلتى ترجع جذورها إلى الإعدادى.. فقد كنت ولازلت أسعى لتعديد مصادر اللذة والمتعة الجنسية فى الجسم وهو ما دفعنى لمحاولة الوصول إلى القذف من خلال الحلمتين دون المشاكل الجسمية المترتبة على الوصول إليها بالشكل الطبيعى.

مشكلته الآن حلمتيه أصبحتا أكثر حساسية عن ذى قبل، فقد أصبح مستثارا معظم الوقت حتى مع انشغاله أثناء العمل أو الحوار مع الآخرين أو حتى الصلاة، لمجرد احتكاك ملابسه بصدره، وهو شيء دائم الحدوث مادام لابسا فانلة، أصبح عنده صداع مستمر وإنهاك نفسى نتيجة الـ٢٤ ساعة إثارة، لاحظ تأثر الحلمتين وخاصة عندما يترك الإستمناء لفترة أو عند الشبع والإستثارة وذلك بوجود ألم مع رغبة شديدة، لم يعد منذ فترة طويلة يستثير نفسه من خلال الحلمتين، ودخل فى برنامج لعلاج ذاتى من ذلك فكريا ونفسيا، وقد وصل بالفعل إلى حالة مزاجية عاليه، فلم يعد يرى الإستمناء متعلقا بالإستثارة، أصبحت النساء جميعهن يثيرونه، ولم يعد الإستمناء أضراره تفوق منافعه.

ختم الشاب رسالته الموجعة بنداء يقول: يا آباءنا وأمهاتنا.. يا من تنعمون بالجنس ولا تحرمون منه ولو حرمتم منه أسبوعا لتلظيتم مثلنا، يا من ألهاكم ما تنعمون به وظننتموه دائما وأنساكم ما نحن فيه، نحن فلذات أكبادكم.. يا من أعمتكم أنانيتكم وعدم معاناتكم من الحرمان عن رؤية وإحساس معاناتنا (ليس منا من بات شبعانا وجاره جائع وهو يعلم.. جاره وليس فلذة كبده) ونحن فى قمة فورة البركان المتأجج الجائع المجنون! اتقوا الله.. اتقوا الله وزوجونا فور بلوغنا، أو على الأقل اخطبوا لنا فور بلوغنا، حصنونا وارحمونا.. بعد أن أتينا

بعدكم ففى عصر صارت الوظيفة المستقرة فيه حلما بعيدا والزواج حلما أبعد والضغوط النفسية مدمرة والبنات يعرضن أنفسهن مجانا، والأولاد يسعون إلى البضاعة الرخيصة هرولة، والزنا والفجور فى كل بيت دخله التليفزيون يدرس بالنموذج العملى والمحاكاة والباليه والسباحة التوقيعية.. فاتقوا الله واقبلوا شابا يريد العفاف مع ابنتكم ولو كان شحاذا.

وحتى تصل الرسالة كاملة يقول الشاب المكبوت موجها كلامه لأرباب الأسر: ولكى تفهموا- إن أردتم أن تفهموا- لا تمارسوا الجنس لمدة شهرين أو ثلاثة ولا تلمسوا أو تنظروا إلى عوراتكم (عدا الوجه والكفين) ولا تتبادلوا الحديث الناعم ولا تناموا متجاورين، حينها ستعلمون أى جحيم يكتوى بناره ملايين من بناتكم وأبنائكم الصالحين، أنتم غارقون فى الغفلة عن الآخرين، على كل متزوج ومتزوجة ألا ينام مطمئنا فى حضن زوجته، بل ينام مهموما مرعوبا متنغصا حتى يشارك فى مساعدة شاب مسلم آخر مثله، لا تركنوا إلى نعمة الزواج الصالح بدون شكرها، بمعاونتكم فى درء ما نحن فيه من فتن وعذاب، «ولئن شكرتكم لأزيدنكم».

هذه الرسالة وكالمعتاد سيتعالى عليها الجميع.. بل يمكن أن يعتبرها البعض وهم كثيرون مع الأسف الشديد مجرد قلة أدب وكلام فارغ خارج من شاب غير مسئول وغير سوى نفسيا.. وهى عادتنا ولن نشتريها.. ولحسن الحظ أن المسئول عن ركن مشاكل الشباب وحلولها فى موقع «إسلام أون لاين» كان رجلا على قدر المسئولية.. فقد فتح الحوار حول مشكلة الشاب.. ليظهر من الرسائل التى وردت للموقع أن الشاب المصرى ليس وحده ولكن هناك آلاف الشباب فى مصر والعالم العربى والإسلامى يعانون مثله.. لم ينكر د. أحمد عبد الله على الفتى مشاعره ورغباته تجاوب معها وقال له ببساطة شديدة ردا على اقتراحه الذى جاء فى ختام رسالته بأن يكون الزواج للجميع: إن مشروع الزواج مهمة نستطيع أن نساهم فيها ببعض الدور والتوجيه، لكن التغيير الذى تحلم به ونحلم مثلك لن يكون بمطالبة الآباء والأمهات بتيسير الزواج وتبكيره، لأن الأمر أوسع من مجرد موقف تتخذه الأسرة، لكنه يحتاج إلى روح عامة تسرى فى المجتمع تغريه بالمصارحة والمراجعة ومواجهة حقائق الحياة بدلا من الكذب على النفس الذى أصبحنا نجيده أكثر من أى شىء وهو يحتاج إلى استعداد للتضحية ببعض الماديات والقدرة على مواجهة مصاعب الحياة بشجاعة فى ظل أزمة اقتصادية طاحنة لم تترك دول الخليج فما بالك بمغربنا ومشرقنا.

طلب د. أحمد عبد الله من الشاب المصرى المكبوت أن يوضح فكرته.. أن يشرح كيف

يرى مشروع الزواج للجميع.. ولم يكذب الشاب خبرا ولم يتأخر فى رسالة ثانية كتب يقول: ليس هناك حرج من الناحية الشرعية والقانونية أن يتزوج الشباب مبكرا مادام هناك رضا الولد والبنت والأسرتين مع وجود الشهود، وتذكروا أنه سيحدث بالحلال وسيحدث بغيره، فالأولاد لم يعد عندهم صبر، وموضوع التسجيل فى ورق يمكن تأجيله أو عمله بشكل أسرى بدون توثيقه رسميا كضرورة شرعية وممكن تدبير حجرة فى مسكن كل منهما يتبادلان المذاكرة والدراسة والعفة فيها، وممكن أن يكون موضوعا مبدئيا تشجيعيا على العفة وربط الولد والبنت نفسيا واشعارهما بأن مسئولية جسدهما الجنسية ليست ملكا لهما فقط، بل هناك آخرون فى حياتهما، وخلال عام أو أكثر يتم فيه تثقيفهما ببرنامج يضعه المتخصصون.

ويبدو أن الشاب المصرى يخشى على المجتمع من الصدمة ولذلك يقترح عمل مطوية ورقية جذابة عن جمال الزواج المبكر وثمراته مسبوقا بعرض سريع لآثار عدم زواج المراهقين سواء فى العادة السرية عند الجنسين أو الشذوذ الذى يبدأ فى هذه السن أيضا أو أعداد الهاربات الباحثات عن الحب أو زنا القاصرات فى مقابل زواج القاصرات والزواج العرفى المنتشر أو الاجهاض أو عمليات استعادة البكارة.

وفى أسوأ الحالات- كما يقول الشاب- يمكن أن يظل الموضوع مجرد ترتيب وعقد وارتباط نفسى واجتماعى ودينى «بوى فريند وجيرل فريند شرعى.. لو جاز التعبير» ويمكن إكماله بالدخول عند الحاجة، بدلا من الوقوع فى المشاكل، وساعتها ستتباهى البنت ولا تتخفى- بأن الولد فلان خطيبها، وأما بخصوص موضوع الإختيار فالولد والبنت تبدو عليهما معظم الصفات النفسية والجسمية الاجتماعية وربما الدينية منذ الطفولة والآباء- وأيضا الأطفال أنفسهم- يشعرون بمن يناسب من.. فالتوافق والحب يأتى من طول العشرة والثقافة والفقه والتدين وهذا كله فى وصفة واحدة هى زواج المراهقين.

ما قاله الشيخ اليمنى فى فتواه التى أشرت إليها.. قاله الشاب المصرى الذى يعانى وله تجربة خاصة ومؤلمة جدا.. وهو ما يعنى أن الفتوى تلتقى مع هموم الناس وقضاياهم ومشاكلهم الحقيقية.. ورغم أن كلام عبد المجيد الزندانى كان موجها إلى مسلمى الغرب فإننا يمكن أن نناقش الفتوى والمشروع على أرضية واقعنا هنا فى مصر وفى العالم العربى، قد يكون فى كلام الشاب بعض المبالغة أو من شدة احتياجه أشفق على الشباب فأراد أن يزوجهم فى مراهقتهم حتى لا يحترقوا بلهيب الشهوة.. فاقترح أن يتزوجوا ولا مانع بعدها من أن يذاكروا سويا

وفى آخر الليل يمارسون الجنس الذى سيكون عفة لهم.

إن المجتمع الذى نعيش فيه والذى يرفع لواء الفضيلة صباح مساء.. والذى يعتقد ناسه أنهم الأتقى والأنقى والأقرب إلى الله.. يجب أن يتخلوا ولو لساعة واحدة عن قناع نفاقهم وزيفهم ويواجهوا الحقيقة- إن الشباب ولن أقول الذى مازال يدرس فى الثانوى والجامعة، ولكنه الشباب الذى تخرج وأدى الخدمة العسكرية ويعمل فى أعمال لا تدر عليه دخلا مناسبا يتحرق شوقا ليتزوج وهؤلاء يتم تعجيزهم بشروط غير معقولة.. وعندما تناقش الأهل يقولون لك إننا لن نرمى ابنتنا.. فهم يريدون كل شىء.. والكارثة أن بعض الشباب يقفون عثرة بأفكارهم فى طريق سعادتهم فتجد الشاب وقد ارتدى مسوح الحكمة يقول لك لن أتزوج حتى تكتمل شقتى.. فإذا دخلت والشقة ناقصة شىء فلن تكتمل أبدا.

إن المشكلة التى نواجهها جميعا حتى تحل يجب أن تتخلى العائلات عن عادات وتقاليد بالية جرتنا إلى الوراء.. إن الاقتراح الذى جاء فى فتوى الشيخ اليمنى ورسالة الشاب المصرى يمكن أن يبنى نظاماً جديداً فى الزواج وهو «زواج فريند»... يمكن أن ينفذ.. فالشاب والفتاة يتزوجان بعد أن يعملا ويكون لهما دخل يستطيعان أن ينفقا من خلاله على حياتهما.. لا يكون لديهما بيت.. يلتقيان فى بيتى عائلتهما حتى ييسر الله لهما الحال.. ويؤسسا شقتهما سويا وهو اقتراح عملى.. لكنه اقتراح سيرفضه الجميع.. سيفضلون أن يتعايشوا مع مشكلاتهم على حالها سيختارون أن يسرقوا لحظات المتعة فى الشوارع المظلمة وفى دور السينما وعلى الكورنيش وفى الشقق المفروشة.. حتى يأذن الله لهم ببيت بعد سنة.. اثنين.. عشرة.. لن تتنازل البنت عن بيت ملكها تغلق بابه عليها، ولن يتنازل الولد عن شقة ملكه وحده.

قد يكون ذلك من حقهما.. وهو ما يجعلنا نقول لماذا يتعسف الناس فى شروط الزواج، ولماذا لا يساعد المجتمع الشباب فى أن يتزوجوا بدلا من الضياع.. إن الأموال التى تنفق على تكرار الحج والعمرة كل عام وهى بالملايين يمكن أن تزوج عددا كبيرا من الشباب ولو وجهت إلى هذا الباب فإنها ستكون صدقة جارية يأخذ ثوابها من يدفعها وهو حى وستظل فى أعقابه حتى بعد أن يموت.. ولماذا لا ينفق جزء كبير من أموال الزكاة على تزويج الشباب.. لماذا نلقى بأموالنا فى وجوه لا طائل من ورائها.. وأمامنا ملايين الشباب الذين لا يطلبون سوى الستر.

مشكلة الشاب المصرى الجنسية حركته.. ودفعته للتفكير.. وللأمانة فمشكلته ليست فريدة من نوعها.. فهى موجودة فى كل بيت مصرى.. ولابد من التجاوب معها والإهتمام بها.. فالتعالى عليها لن يفيد هذه المرة.. فلن أكون مبالغا إذا قلت أن هناك ثورة جنسية عارمة فى الطريق يمكن أن تأتى على الأخضر واليابس.. فى يدنا الحل الآن.. لكننا إذا صمتنا كالعادة واعتبرنا أن كل شىء تمام.. فلا يعلم سوى الله.. ماذا يمكن أن يحدث لنا.. ولا ماذا سيظهر فى هذا المجتمع من صور انحراف نحن جميعا فى غنى عنها.

مسجد عليه دش !

مسجـد عليـه دش!

لم يكن الأمر غريباً بالنسبة لى ففى مصر تستطيع أن تجد أى شىء وكل شىء مهما كان غريباً ومحيراً فى الوقت نفسه.. ولأنى تعودت أن أعرف قبل أن أحكم إيمانا بالحكمة العربية القديمة «من لا يعرف شيئاً لا يملك الحكم عليه».. فإننى لم أصدر حكماً مسبقاً عندما أخبرنى أحد الأصدقاء أنه سجل نفسه فى الدراسات العليا الإسلامية بالجامعة الأمريكية المفتوحة وهى مؤسسة أكاديمية مستقلة ترفع شعار «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

قد تتعجب من ذلك وتسأل نفسك.. ما علاقة جامعة أمريكية بالإسلام.. وهل قررت أمريكا بالفعل أن تدرس الإسلام على طريقتها الخاصة وتخريج دعاة على مقاسها الخاص يرددون ما تريده ويدعون الناس إلى الإسلام الأمريكى؟.. دهشتك لن تتوقف عند الشعار فالرمز الذى وضعته الجامعة الأمريكية المفتوحة على مطبوعاتها وكتبها عبارة عن مسجد وعليه طبق فضائى- دش يعنى- وهو ما يؤكد أن الجامعة الأمريكية تعمل من أجل إسلام منفتح على العالم يتواصل مع الحضارات الأخرى فوضعت الدش دون أن تلتفت إلى أنه يرتبط فى ذهن المسلمين بأنه مصدر للفسق والفجور والعرى والعياذ بالله.

لقد اعتقدت أن هذه الجامعة التى يقع مقرها فى مبنى المجلس العالمى للدعوة والإغاثة بمدينة نصر تم افتتاحها بعد أحداث ١١ سبتمبر التى راحت ضحيتها كرامة أمريكا وسقط البرجان العظيمان وهو الحدث الذى تنبهت أمريكا بعده إلى أن الخطر قادم من الإسلام وبدأ الأمريكان فى دراسته ومحاولة معرفة كل شىء عنه لا ليعتنقوه ولكن ليأمنوا خطره الذى وصل إليهم فى عقر دارهم.. لكن اعتقادى لم يكن صحيحاً فقد افتتحت هذه الجامعة بموجب اتفاق علمى ثقافى تم توقيعه بين جامعة الأزهر والجامعة الأمريكية المفتوحة بالولايات المتحدة الأمريكية فى شهر ابريل عام ٢٠٠٠ وهو ما يؤكد أن المؤسسات الأكاديمية الأمريكية تنبهت مبكراً إلى أن تدريس علوم الإسلام وتخريج الدعاة فى مصر التى هى مصدر لتصدير الدعاة إلى كل دول العالم لا يتم بطريقة صحيحة بل يتم فى الغالب بأسلوب يخاصم العصر ويتصادم معه وربما كانت أحداث ١١ سبتمبر عاملاً أدى إلى الإسراع فقط بتدخل أمريكا ولكن بطريقة ناعمة وغير لافتة للانتباه فى التكوين الثقافى والفكرى للدعاة من خلال برامج وضعوها بعناية وكتب

صيغت تحت ظلال رؤيتهم الخاصة جداً للإسلام.

إن الذين يصرخون الآن ويحذرون من تدخل أمريكا فى مناهج الأزهر ومحاولتها تغييرها لا يدركون أبعاد ما تفعله أمريكا، فالأمريكان لن يضيعوا وقتهم فقد عرفوا منذ البداية أن المحاولات المباشرة لتغيير المناهج وتعديلها سواء فى الأزهر أو فى المدارس المدنية سيلقى مقاومة شرسة ترفع فيها شعارات رنانة لن يكون لها أثر حقيقى ولذلك فإن الأمريكان تركوا المعترضين على سياستها يخوضون معركة طاحنة مع كل من شيخ الأزهر ووزير التعليم وهى معركة أطلقت فيها الاتهامات بين الجانبين بلا رحمة، يحدث ذلك بينما يوقع الأمريكان مع رئيس جامعة الأزهر اتفاقاً يؤسسون من خلاله جامعة على مزاجهم الخاص يدسون من خلال مناهجها السم فى العسل ويبدو أن رئيس الجامعة لا يدرك أبعاد ما يحدث ولذلك لم يكن غريباً أن أراه فى صورة توقيع الاتفاق وهو يضحك ملء شدقيه وكأنه فتح عكا أو بالأقرب حرر القدس.

إن الأهداف التى وضعتها الجامعة الأمريكية والغايات التى تسعى إليها بالنظرة الأولى ستجدها تتجاوب مع ما ينادى به عدد كبير من المفكرين والمثقفين المصريين فهى وبالترتيب تقرير أصول الدين وفروعه على منهج أهل السنة والجماعة، تبنى الوسطية الإسلامية التى تنأى عن كل من التغريب والغلو فى الدين، الجمع بين الأصالة والمعاصرة فى برنامج علمى متميز، إيصال العلم إلى كل بيت وفقا لنظام التعلم عن بعد، توظيف وسائل التقنية الحديثة فى البرامج التعليمية، وفى النهاية تهذيب كتب التراث وفق المعايير الحديثة فى تصميم المناهج.

الأهداف نبيلة كما ترى والغايات سامية وستجدها متناثرة فيما نكتبه.. لكنها جديرة بالمناقشة لسبب بسيط للغاية أنها لم تنبع من جامعة الأزهر، الجامعة العريقة التى تخرج فيها مجتهدون عظام ضاعت أصواتهم مع الأسف الشديد - تحت - كام كلام فارغ يردده شيوخ تقليديون تعاملوا مع التعليم الأزهرى وكأنه «فتة» أو بقرة حلوب يستنزفونها حتى النهاية ويربحون منها بلا حساب ولذلك حافظوا على الوضع العام لهذا التعليم وحاربوا كل محاولات تطويره وأغلب الظن أن جامعة الأزهر لم توافق على هذا النظام الأمريكى من التعليم إلا لأن وراءه مكاسب كبيرة فهو فى النهاية مشروع استثمارى يدر دخلا هائلاً لعدد كبير من أساتذة الأزهر هؤلاء الذين يقومون بتأليف الكتب ومتابعة الطلبة فى مرحلتى البكالوريوس والدراسات العليا من التدريس لهم وتصحيح أوراق إجاباتهم.

فالطالب فى مرحلة بكالوريوس الدراسات الإسلامية والعربية لابد أن يكون حاصلاً على شهادة الثانوية العامة وأن يجيد اللغة العربية كتابة ونطقا وتتكلف دراستة ٤٥ دولاراً للساعتين الدراستين و٦٠ دولاراً للثلاث ساعات دراسية يدفع ١٢ دولاراً كرسوم تسجيل و١٥ دولاراً كرسوم تسجيل متأخر وحتى يتخرج فلابد من دراسة ١٥٩ ساعة معتمدة وأن يكتب بحث تخرج، أما طالب الماجستير فى الدراسات الإسلامية فلابد أن يكون حاصلاً على بكالوريوس دراسات إسلامية واجتياز اختبار المعادلة للحاصلين على بكالوريوس فى تخصصات أخرى وأن يجيد اللغة العربية كتابة ونطقا وتكلفة الدراسة هى ٣٠ دولاراً للساعة الدراسية و ٦٠ دولاراً للساعتين و ٧٥ دولاراً للثلاث ساعات و١٠٠ دولار للأربع ساعات، رسوم التسجيل فى الماجستير ١٥ دولاراً وللتسجيل المتأخر ٢٠ دولاراً وحتى يتخرج طالب الماجستير فلابد أن ينهى ٣٩ ساعة معتمدة فى الشريعة و٥٠ ساعة فى أصول الدين و٣٤ ساعة فى اللغة العربية وكى يتخرج فلابد أن ينجح فى الاختبار الشامل وكتابة البحوث التى يطلبها الأساتذة.

لقد أقدمت الجامعة الأمريكية المفتوحة على هذا المشروع لقناعتها التامة أنه سينجح وسيحقق نتائج مبهرة ومكاسب طائلة لسبب بسيط للغاية أن الدراسات العليا تحديداً فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وكليات جامعة الأزهر بفروعها وتخصصاتها المختلفة جعلت الدراسة فيها قطعة من الجحيم.. تضيق على الطلاب.. وتتعمد إهانتهم والتقليل من شأنهم.. ثم فى النهاية الاعتماد على مناهج تراثية عقيمة لا تجد فيها ظلاً لما يحدث فى واقعنا الآن، إن أساتذة كلية دار العلوم يضعون العراقيل أمام طلاب الأزهر الذين يتقدمون للدراسة فى كليتهم لا لشىء إلا لأنهم درعميون ولذلك سيجد عدد كبير من الطلاب والدعاة الذين ضاقوا بالأزهر ودار العلوم معاً فى الجامعة الأمريكية المفتوحة متنفساً كبيراً.

إن ما يحدث فى هذه الجامعة الجديدة- ونحن على فكرة لا نعارضها بل نحاول أن نفهم ما يريده القائمون عليها- يجعلنا نفكر قليلاً. فالجامعة تتبنى منهج الوسيطة فى الإسلام وهو المنهج الذى تسعى من خلال تدريسه وغرسه فى أذهان الدعاة إلى إبعادهم عن التغريب والغلو فى الدين وتتبنى كذلك تهذيب كتب التراث وفق المعايير الحديثة والسؤال- من وجهة نظر من بالضبط ستوضع هذه المعايير الحديثة؟ هل من وجهة نظر رجال الأزهر وعلمائه القائمين على التدريس فيه وعلى رأسهم رئيس جامعة الأزهر.. قد تكون الإجابة بنعم؟ وهى

إجابة لابد لها من سؤال آخر، فإذا كانت هذه الرؤى متوافرة عند رئيس جامعة الأزهر فلماذا لم يطبقها فى كلياته ومعاهده، على الأقل كان سينقذنا من دعاة يحولون حياتنا إلى جحيم يحرمون علينا كل شيء ويحرموننا من كل سعادة ونعمة فى الحياة.

إن كتب جامعة الأزهر وكتب المعاهد الأزهرية (ابتدائية وإعدادية وثانوية) عندما تتصفحها بسرعة ستجد فيها العجب.. فهى تحمل ثقافة عدائية للآخر أيا كان نوعه أو شكله فكل ما عدا المسلمين أعداء الله بل إن المرأة المسلمة نفسها التى يدعى الشيوخ أن الإسلام منحها حقها كاملا تأتى كتب الأزهر لتؤكد أنها «رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه» أو أنها على أقل تقدير وسيلة من الوسائل التى يمتطيها الشيطان ليفسد على المسلم حياته ودينه وآخرته.. هذه الرؤى التى نثرها رئيس جامعة الأزهر وجعلها تصب فى مجرى الجامعة الأمريكة المفتوحة.. كان أقل القليل منها يمكن أن يصلح حال الأزهر الذى اعوج دون أمل فى أن ينصلح.

لكن الواضح أن الجامعة الأمريكية كان لها الدور الواضح والأكبر فى تحديد المناهج والأساتذة وشرائط الكاسيت فكل شيء محسوب ومدروس.. المفاجأة المذهلة والتى ربما لا ينتظرها أحد ورغم الأهداف الخادعة التى وضعتها الجامعة الأمريكية المفتوحة على مطبوعتها أن هذه الجامعة لن تخرج دعاة مستنيرين فلا فرق بينها وبين جامعة الأزهر فى شيء وأسباب ذلك كثيرة.

فالأساتذة الذين يدرسون فى الجامعة الأمريكية المفتوحة هم أنفسهم الذين يدرسون فى كليات جامعة الأزهر ورغم أنهم أكثر غلظة وفظاظة وعنفا فى مدرجات جامعة الأزهر فإنك ستجدهم أكثر رقة وبشاشة وإقبالاً وهم فى مكاتبهم بمقر الجامعة الأمريكية، فكل دقيقة يقضونها يأخذون عنها مقابلاً مادياً مجزياً.

ثم إننا لم نعد ننبهر بالشعارات البراقة الفضفاضة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع، فالشعارات التى ترفعها الجامعة الأمريكية المفتوحة هى نفسها دون زيادة أو نقصان، الشعارات التى ترفعها أشد الجامعات والجماعات الإسلامية تطرفا وعنفا.. فقد تعودنا أن نسمع كلاماً ونرى أفعالاً متناقضة تماماً.

السبب الرابع والمهم أن الكتب التى تدرس فى الجامعة الأمريكية المفتوحة جعلت

مرجعيتها كتب الوهابيين الذين جرونا بأفكارهم وفتاواهم عدة قرون إلى الخلف، ففى مكتبة الجامعة التى يتسلم منها الطلبة كتبهم وشرائطهم بعد أن يكونوا دفعوا الرسوم جذب انتباهى كتاب «فقة النوازل».. أعجبنى العنوان بشدة، فما أحوجنا إلى فقة يتعامل مع واقعنا.. يتأمل ما يقع على الإنسان من مصانب ليفصل رأى الدين فيها، لكن المفاجأة أن مؤلف الكتاب استعان ليدلل على آرائه بفتاوى لعبد العزيز بن باز شيخ الوهابية الكبير الراحل الذى خاصم العلم وكفر به.. فبالله عليكم: هل هذا منطق.

إننا لانخاف من الحوار مع الآخر والجلوس معه على مائدة واحدة والاستفادة بما أنتجه من تقنيات حديثة ومناهج عصرية فى التعليم لكن ما نرفضه هو أن يمتد الحوار إلى ثقافتنا وأصول ديننا، إننا لا نريد إسلاما يحولنا إلى مجموعة من الدراويش الذين يغوصون حتى آذانهم فى الفتة والخرافات والأساطير، ولا نريد إسلاماً رخواً يجعلنا نتقبل الأمر الواقع ونرضى به ولا نسعى إلى تغييره أو محاولة التمرد عليه .. لا نريد كذلك إسلاماً يفرط أو يتهاون ويترك الحبل على غاربه، وفى النهاية فإننا لا نريد إسلاماً جامداً محنطاً يدفعه إلينا شيوخ الأزهر ورجاله ويطلبون منا أن نأخذه على حاله دون أن نعمل فيه عقلنا.

إننى لا أتحدث عن الوحى السماوى المقدس حتى لا يختلط الأمر على البعض لكنى أنظر إلى إسلام الممارسة، ما يقوله علماء الإسلام وما يفعلونه.. أحاورهم فيه.. أنظر ما تسفر عنه تجربة الجامعة الأمريكية المفتوحة.. انتظر الدعاة الذين دخلوها.. هل سيقدمون شيئاً مختلفاً.. أم سيسيرون فى ركب أمريكا.. وبعد أن سمعنا عن إسلام الدروشة. يمكن أن نسمع عن إسلام المينى جيب.. «ويا خفى الألطاف نجنا مما نخاف».

صلاة الحائض وصيامها

صــلاة الحائـض وصيامهــا

هذا ما حدث...

شيخ يلقى درسه فى أحد المساجد الكبيرة بالقاهرة بعد صلاة العشاء، سألته إحدى السيدات قالت له يا مولانا لقد سمعت أن المرأة الحائض يمكن أن تصلى وتصوم ولا حرج عليها.. فهل هذا صحيح؟، كانت إجابة الشيخ مفاجأة.. قال لها نعم من حق المرأة أن تصلى وتصوم وهى حائض.. ولأن الشيخ لمح استغراباً فى وجوه جمهوره الذى لم يتجاوز المائة من الرجال والنساء، سارع بتقديم أدلته من آيات القرآن الكريم.. فاقتنع بها من اقتنع، ورفضها من رفض.

أحد الذين رفضوا حمل رأى الشيخ إلى إمام مسجد كبير آخر بالقاهرة، فاعترض عليه ودار حوار طويل بين الشيخين أنهاه الشيخ الثانى باتهام الشيخ الأول بأنه مرتد ومنكر للسنة، كانت زوجة الشيخ الأول حاضرة، وهى سيدة مثقفة، وتؤيد زوجها ليس فى رأيه هذا فقط،ولكن فى مدرسته فى الدعوة التى تعلى من شأن العقل، وتعتبر القرآن هو الملجأ الأول. وما جاء فى الأحاديث المروية عن الرسول ليس ملزماً إذا كان فى القرآن ما يتناقض معه.

أرادت زوجة الشيخ أن تستنير أكثر بأحد أساتذة جامعة الأزهر وهو متخصص فى أصول الفقه، وما إن سمع منها رأيها الذى يوافق رأى زوجها حتى سارع باتهامها بالردة، بل وطلب منها أن تذهب إليه وزوجها فى رواق الأتراك بالأزهر ليعلنا توبتهما وعودتهما إلى الإسلام، لأنهما أنكرا ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

لم يتوقف الأمر على ذلك.. فقد وصلت أصداء هذا الخلاف إلى جلسات ودروس العلم فى الجامع الأزهر، بل وسيطر على خطبة الجمعة فى بعض مساجد القاهرة، قابلت الشيخ المجتهد، رأيته مقتنعاً بما يقول.. مصراً عليه، ليس لأنه اجتهد، وبنى اجتهاده على إعمال العقل فى تفسير آيات القرآن الكريم، لم يكن متردداً.. فقد أبدى استعداده للحوار مع أكبر رأس بين علماء الدين.. والحجة أمام الحجة.. والرأى أمام الرأى.

لم يكن رأيه فى مسألة الحيض وحده هو الذى جر عليه المشاكل..؟ اجتهادات كثيرة تقوم على أن القرآن هو المرجع الأول وأن العقل هو الأساس الذى لابد وأن نعتمد عليه.

نأتى بعد ذلك إلى حالة الجدل التى أعتقد أنها لن تنتهى بسهولة- والكلام هنا للشيخ المجتهد- فهو يرى أن الصلاة يمنع من أدائها الجنب حتى يتطهر من الحدث الأكبر بعد الجماع، والحدث الأصغر «البول والغائط» وفى حالة السفر له القصر، وذلك بحكم القرآن فى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾، وفى الآية تحديد دقيق للمرخص لهم بالامتناع عن الصلاة بلا لبس ولا شبهة، وتأتى آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ وفى الآيتين لم يذكر من قريب أو بعيد منع الحائض من الصلاة.

وعن الصوم يقوم القرآن ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وليس فى الآية استثناء للحائض من الصوم، وإذا قال البعض إن الحيض نوع من المرض يجعل المرأة تفقد تركيزها، فهو كلام مردود عليه، فالمرأة إذا ارتكبت جناية أو جنحة وهى حائض، فهل يؤاخذها القانون والشرع أم يعفو عنها؟ والإجابة بالطبع أنها تعاقب مما لا يسقط عنها التكليف الشرعى.

والذين يقولون إن الحائض ليست طاهرة استناداً إلى آية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾، فهم يفسرون ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ أى حتى ينقطع الدم عن المرأة، فهم يجعلون الحيض حدثاً أصغر، ثم إن روايات البخارى ومسلم فى هذا الشأن تفيد أن على الحائض وضوء وتارة يقولون غسلا أو إزالة أثر الدم.. وهذا فى حديث الرسول «خذى قرصة من مسك فتطهرى بها».

ويواصل الشيخ وجهة نظره قائلاً إن المرأة تتساوى مع الرجل فى كفارة القتل الخطأ.. فهى يمكن أن ترتكب جريمة قتل خطأ.. ومن كفارتها كما نص القرآن ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ولم يختلف أحد على التتابع ومعناه، مثلما لم يختلفوا عليه فى حكم الرجل الذى يظاهر زوجته، فكيف يضنب من المرأة إذا قتلت خطأ أن تصوم شهرين متتابعين إذا كان حيضها يمنعها من الصيام، ثم إنه فى حالة القضاء يقولون للمرأة اقض الصوم ولا تقضى الصلاة، على اعتبار أن قضاء الصلاة فيه مشقة على المرأة.. لكن العلماء لم يتجاوزوا فى قضاء الفوائت من الصلاة فى غير أوقات الحيض، فلو لم تصل المرأة شهراً كاملاً طلب منها أن تقضيه.. والسؤال: كيف يشق على المرأة صلاة شهر كامل ويشق عليها قضاء بضعة أيام؟

ثم إن القرآن عندما حذر الرجال من النساء فى المحيض قال لهم صراحة «فاعتزلوا النساء» أى لا تجامعوهن أثناء الحيض فقط، وما كان القرآن يضيق عن أن يضيف إلى الآية متع النساء من الصلاة والصوم «لأن المنع من الجماع ليس للرجال فقط.. فالأمر فيه منع وحرمان للنساء أيضاً من ممارسة الجنس، وكان يمكن للآية أن تمنع النساء من الجماع والصلاة والصوم إذا أراد الله ذلك.

يحاول الشيخ أن يعزز اجتهاده بقوله إن الصلاة والصوم أمر مباشر بالتكليف ولا يسقط هذا الأمر بالدليل الظنى المتروك لمن يفهم، فالحدود فى القرآن ليست مفتوحة للإجتهاد فى الإنشاء والإسقاط، فمن المتفق عليه أن الذى يفرض الصلاة والصوم والذى يرخص للمريض والمسافر بالقصر فى الصلاة وعدم الصوم هو وحده الذى يملك إسقاط هذين الفرضين.

فى كتابه فقه السنة يذهب السيد سابق إلى أنه لا يحل للحائض والنفساء أن تصوم، فإن صامت لا ينعقد صيامها ووقع باطلاً، ويجب عليها قضاء ما فاتها من أيام الحيض والنفاس فى شهر رمضان، بخلاف ما فاتها من الصلاة، فإنه لا يجب عليها قضاءه دفعاً للمشقة، فإن الصلاة يكثر تكرارها بخلاف الصوم، وهذا لحديث أبى سعيد الخدرى قال: «خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: ولم يا رسول الله، قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم، قلن: بلى قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم، قلن: بلى: قال: فذلك نقصان دينها»، وهو حديث رواه البخارى ومسلم.

حديث آخر عن معاذة هذه المرة قالت: سألت عائشة رضى الله عنها، فقلت: ما بال

الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»، هذا كلام السنة أو ما قيل إنه السنة، وهو كلام يراه الشيخ اضطراباً فى النصوص المنسوبة إلى النبى فى البخارى أو مسلم.. ولا يقف أمام أحكام القرآن الواضحة.

عن نفسى لا أقف فى خندق واحد مع الشيخ المجتهد.. وإن كنت أرى فيما يقوله اجتهادا يستحق النظر والمناقشة والتأمل، لقد كان غريباً أن يفتى أستاذ جامعة الأزهر بردة الشيخ لأنه قال رأياً مختلفاً استند فيه إلى آيات القرآن.. وكان مفروضاً أن يدفع الرأى برأى.. لا أن يرفع سيف الإرهاب والتعنت، أعرف أن الناس ليسوا فى حاجة لمن يحيرهم.. لكن عندما نجد من يقول إن المرأة الحائض يمكن أن تصلى وتصوم.. مخالفاً بذلك ما استقر عليه الناس ويقدم لنا ما يدعم كلامه.. فلابد أن يتحرك علماء الدين الذين يحبون الراحة ويعتبرون أى جديد ردة.. وأى اجتهاد خروجا على الإسلام تلزمه توبة!

الحائض لا تصلى ولا تصوم

الحائض لا تصلى ولا تصوم

تقول د. سعاد صالح أستاذه الفقه بجامعة الأزهر: أحكام الشريعة الإسلامية تثبت بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وإجماع المسلمين وبالإجتهاد وإعمال العقل فيما لا نص فيه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥]. وقال جل شأنه: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وبعض هذه الأحكام ورد بأدلة قطعية الثبوت والدلالة كأحكام العبادات، وبعضها ورد بأدلة قطعية الثبوت وظنية الدلالة أو ظنية الثبوت والدلالة كأحكام المعاملات وفقه الأسرة، وما ثبت بأدلة قطعية الثبوت والدلالة يسمى أحكاما تعبدية أى يجب الامتثال لها دون الرجوع إلى العقل لأنها تثبت بما يفيد القطع واليقين. وكل ما كان عبادة فإنه يوقف فيه عند نص ما شرعه الله تعالى لا يزاد فيه ولا ينقص منه ولا يقاس عليه ولا يؤخذ فيه برأى أحد ولا باجتهاده. إذ لو أبيح للناس الزيادة فى شعائر الإسلام باجتهادهم فى عموم لفظ أو قياس لأمكن أن تصير شعائر الإسلام أضعاف ما كانت عليه فى عهد الرسول ﷺ حتى لا يفرق أكثر الناس بين الأصل المشرع والدخيل المبتدع. فكل من ابتدع شعيرة أو عبادة فى الإسلام فهو ممن يصدق عليهم قول الله تعالى ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [الشورى: ٢١]. وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

وإنما الإجتهاد فى مثل تحرى القبلة من العمل التعبدى. ومن العبث أن يعمل الإنسان ما لا يعرف له فائدة كقول من هو مثله وهو مستعد، لأن يفهم كل ما يفهمه. ولا يأتى هذا العبث فى امتثال أمر الله تعالى لأننا نعتقد أنه برحمته لا يشرع لنا إلا ما فيه خيرنا ومصلحتنا

وأنه بعلمه المحيط بكل شيء يعلم من ذلك ما لا نعلم.

وما يتعلق بالحيض والنفاس من أحكام يدخل في دائرة هذا المحرم الذى لا يصلح فيه إعمال العقل أمام النص. لأن هذه الأحكام ثبتت بأدلة قطعية وأهمها إجماع فقهاء الأمة منذ زمن الرسول ﷺ وإلى الآن. وقد اتفق المسلمون على أن الحيض- ومثله النفاس- يمنع أربعة أشياء. الحكم الأول: فعل الصلاة ووجوبها: أى إنه ليس على الحائض قضاؤها بخلاف الصوم فإنه يسقط أداؤه لا قضاؤه. يدل على ذلك:

١- ما روى عن أبى سعيد فى حديث له أن النبى ﷺ قال للنساء: أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟ قلن بلى، قال: فذلكن من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى قال: فذلكن من نقصان دينها. (مختصر من البخارى). ووجه الدلالة قوله: لم تصل ولم تصم فيه إشعار بأن منع الحائض من الصوم والصلاة كان ثابتاً بحكم الشرع قبل ذلك المجلس. والحديث يدل على عدم وجوب الصوم والصلاة حال حيضها وهو إجماع. ومن هنا فإن الحائض لا تأثم بترك صلاتها زمن الحيض لكنها ناقصة على المصلى وتثاب على هذا الترك لكونها مكلفة به.

٢- ما روى عن معاذة قالت: سألت عائشة رضى الله عنها فقلت: ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟ فقالت: أحرورية أنت؟ فقلت: لست بحرورية ولكنى أسأل. فقالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة. (أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة). والحرور نسبة إلى حروراء وهو موضع بظاهر الكوفة اجتمع فيه أوائل الخوارج، ثم كثر استعماله حتى استعمل فى كل خارجي. وإنما قالت ذلك لأن مذهب الخوارج أن الحائض تقضى الصلاة.

وبين ابن القيم الحكمة من إيجاب قضاء الصوم دون الصلاة بقوله: أما إيجاب الصوم على الحائض دون الصلاة فمن تمام محاسن الشريعة وحكمتها ورعايتها لمصالح المكلفين. فإن الحيض لما كان منافياً للعبادة لم يشرع فيه فعلها، وكان فى صلاتها أيام الطهر ما يغنيها عن صلاة أيام الحيض فيحصل لها مصلحة الصلاة فى زمن الطهر لتكرارها كل يوم بخلاف الصوم، فإنه لا يتكرر وهو شهر واحد فى العام. فلو سقط عنها فعله بالحيض فلا سبيل إلى تدارك نظيره وفاتت عليها مصلحته فوجب عليها أن تصوم شهراً فى طهرها لتحصل مصلحة

الصوم التى هى من تمام رحمة الله بعباده وإحسانه إليهم بشرعه.

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على اسقاط فرض الصلاة عن الحائض فى أيام حيضها وعلى أن قضاء ما تركت من الصلاة فى أيام حيضها غير واجب وذلك لقول النبي ﷺ فى حديث فاطمة بنت أبي حبيس: «إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة» . وفى ذلك يقول الغزالى: «العزيمة الحكم الثابت على وفق الدليل، والرخصة الحكم الثابت على خلاف الدليل ولمعارض راجح. وإنما كان سقوط قضاء الصلاة عن الحائض عزيمة، لأنها مكلفة بترك الصلاة.

فإذا تركتها فقد امتثلت ما أمرت به من الترك فلم تكلف مع ذلك بالقضاء، ولا نقول الفرق بين الصوم والصلاة كثرتها وندرته فيكون إسقاط قضائها تخفيفاً ورخصة، بل سبب إسقاط قضائها ما ذكرنا. وهذه يقتضى إسقاط قضاء الصوم أيضاً. لكن للشرع زيادة اعتناء بصوم رمضان فأوجب قضاءه بأمر محدود فى وقت ثان. وتسميته قضاء مجاز وهو فى الحقيقة فرض مبتدأ. فمخالفة الدليل إن حصلت فهى فى وجوب قضاء الصوم لا فى عدم قضاء الصلاة. فتبين أن عدم قضاء الصلاة ليس رخصة.

أما الاستدلال بآيتى ﷻ وﷻ على وجوب الصلاة على الحائض، حيث لم يذكر من قريب أو بعيد منع الحائض من الصلاة فالجواب قياس الحائض على الجنابة من حيث إن كلاً منهما حدث أكبر يمنع الطهارة ويمنع صحة الصلاة ويمنع دخول المسجد والمكث فيه وقراءة القرآن والطواف ومس المصحف وغير ذلك.

أما الإستدلال بآيات الصوم، حيث توجه خطاب التكليف فيها لكل من شهد الشهر، ولم يستثن الحائض، فالجواب دخول الحائض فى عموم قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾، حيث جعل الشارع الحكيم من شروط صحة الصوم القدرة عليه فيسقط عنها الصوم صحة لا أداء. وحيث بين الفقهاء أن المرض المبيح للفطر هو الذى يؤدى إلى ضرر فى النفس وليس المراد عين المرض. ومتى وجد الحيض فى جزء من النهار فسد صوم ذلك اليوم سواء وجد فى أوله أو فى آخره. ومتى نوت الحائض الصوم وأمسكت مع علمها بتحريم ذلك أثمت ولم يجزئها.

أما الاستدلال بآية ﷻ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى

ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ على أن الحيض بعد انقطاعه يعد حدثاً أصغر ففيه مغالطة شديدة وبتر للآية، حيث قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ويكون التطهر بالاغتسال وهذا يؤكد أن الحيض حدث أكبر. وأما الإستدلال بحديث الرسول ﷺ «فخذى فرصة من مسك فتطهرى بها»، فإن ذلك استدلال بالسنة لا بالقرآن إلا أنه يفيد كيفية التطهر من الحيض بعد انقطاعه ولا يفيد أن الحيض حدث أصغر. مع العلم بأن الحدث الأصغر يمنع صحة الصلاة فما بالنا بالحدث الأكبر.

وأما الاستدلال بكفارة القتل الخطأ وهى الصيام شهرين متتابعين وهذا يفيد ضرورة صيام المرأة أثناء الشهرين، وهى حائض فالجواب على ذلك أن كفارة القتل الخطأ، كما ذكرها القرآن الكريم جعلت الصيام عند العجز عن أداء الدية فالأصل هو الدية لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ [النساء: ٩٢].

أما عن تحذير القرآن للرجال بتحريم وطء النساء أثناء الحيض فقط دون منع القرآن للحائض أن تصلى أو تصوم فيؤخذ ذلك الحكم من السنة الصحيحة المتواترة. وما بيناه من شرح وتفصيل يكفى فى الرد على ذلك.

ومن المقرر شرعاً أن السنة النبوية جاءت شارحة ومبينة ومفسرة ومخصصة ومقيدة ومؤسسة لأحكام لم ترد فى القرآن الكريم أصلاً كتوسيع التحريم بالرضاع ليشمل كل ما حرم من النسب على الرغم من أن القرآن لم يحرم من الرضاع إلا الأم والأخت. وتحريم أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير وبيان كيفية الصلاة وكيفية أداء الحج. وما ثبت بالسنة فى ذلك يكون فرضاً، لأنه جاء لبيان فرض. وكذلك بيان أنصبة الزكاة والأموال التى تجب فيها والأصناف التى يجرى فيها ربا الفضل، وغير ذلك كثير وكثير. وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٥]. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

اعتداء على السنة

اعتداء على السنة!

يقول الكاتب الإسلامى إبراهيم عبد اللطيف- قرأت عنوان.. بالقرآن: من حق المرأة أن تصلى وتصوم وهى حائض) والقارىء لهذا العنوان لا تصيبه الدهشة فحسب وإنما يسيطر الذهول على كيانه لاسيما حينما يطالع الموضوع برمته ليرى أن أحد شيوخ وزارة الأوقاف قد تجرأ على الله فأحل ما حرم الله وأباح للمرأة أن تصلى وتصوم وهى حائض وأنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضروة وهو يعلم علم اليقين أن السنة النبوية الشريفة هى ثانى مصادر التشريع بعد القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ فهى آية ممتد حكمها مع الزمان كله ومعنى هذا أنها تشمل سنة الرسول ﷺ فكيف يقف هذا الرجل موقف المعارض تجاه حقيقة دينية ثابتة إلا أن يكون الله عز وجل ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.

كيف يسمح رجل درس فى الأزهر الشريف ويعمل فى وزارة الأوقاف أن يدعو إلى إنكار سنة سيد الخلق ﷺ فيقول بالحرف الواحد يعد استشهاده بأحاديث النبى الكريم ﷺ «هذا كلام يراه الرجل اضطرابا فى النصوص» ويرى الكاتب فيما يقوله هذا الرجل اجتهادًا يستحق النظر والمناقشة ويتعجب من أستاذ بجامعة الأزهر الشريف حكم على الرجل بالإرتداد عن الدين، إن الأمر يشير إلى أبعد من ذلك بكثير، نعم يشير إلى أن ما يحدث هو ترويج لأفكار بعض المذاهب السياسية والإعتقادية ممثلة فى الخوارج والمعتزلة فهذه فرقة الخوارج ترى ضمن ما ترى من الآراء الفقهية أنهم لا يقرون حد الرجم ويقولون ليس فى القرآن إلا حد الجلد للزانى والزانية فحد الرجم لم يجئ فى القرآن، تماما كما أفتى الرجل بأن القرآن لم يتعرض لمنع الحائض من الصوم والصلاة وقد ذهب الخوارج إلى أبعد من ذلك حيث أباحت الميمونية نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الأخوة والأخوات وقالوا فى علة ذلك أن القرآن لم يذكرهن من المحرمات، وعلى الجانب الآخر فإن الرجل بنى اجتهاده على إعمال العقل.

نرى أن ذلك يطابق تماما طريقة المعتزلة فى الإستدلال على العقائد بالعقل، فكانت ثقتهم بالعقل لا حدود لها فما قبله العقل أقروه وما لم يقبله رفضوه، فالمعارف عندهم معقولة بالعقل واجبة بنظر العقل مع أن العقل له نزوات وعرة دفعت الجبائى وهو من أئمة المعتزلة

إلى القول بأن الله تعالى مطيع للعبد إذا أجاب دعاءه مع أنه لو جاز على الله أن يكون مطيعا لعبده لجاز أن يكون خاضعا له تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فتلك هى مصيبة الفلسفة التى تركت الشريعة ولجأت إلى العقل ليقودها إلى الهاوية، ثم أتساءل لماذا أرسل الله الأنبياء وأنزل الكتب ما دام العقل قادرا على إدراك معانى العبودية واستخراج الشرائع بذاته، إن الأفكار الفلسفية تقود الأمم إلى الكفر إذا اعتنقت، فالمعتزلة الذين جعلوا العقل مقياسا للحقائق الدينية أنكروا حقيقة السحر وتأثيره وتمردوا على الإعتقاد بكرامات الأولياء كذلك تمرد بعض أعلام المعتزلة كالنظام على الإعتقاد بوجود الجن، لذلك يجب أن نعرف أن فساد العالم إنما نشأ من تقديمه الرأى على الوحى والهوى على العقل قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ ولنعد إلى مزيد من إيضاح كلام الرجل الذى أحل حرمة منع المرأة من الصلاة والصوم أثناء الحيض فالرجل قد اعتمد فى قوله على أن آية النساء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣].

والآية تتحدث عن حكم من أحكام الصلاة فى المساجد قبل تحريم الخمر ثم بينت أنه لا يصح للجنب الإستقرار فى المسجد إلا إذا كان عابرًا حتى يتطهر بالإغتسال وفى حالة المرض أو السفر الذى يشق معه وجود الماء فاقصدوا التراب الطيب تلك هى الآية التى فى النساء التى يستدل الرجل بعدم إيرادها لحكم الحائض والآية الأخرى التى فى المائدة يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ [المائدة: ٦].

والمعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة ولم تكونوا متوضئين فتوضأوا بغسل وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم كلها أو بعضها واغسلوا أرجلكم مع الكعبين وإن كنت جنبا بسبب ملامسة النساء فاغسلوا جميع جسدكم بالماء وإن كان منكم المريض الذى يتأذى عند استخدام الماء فعليكم بالتيمم عند الأعذار المذكورة.

لقد قدمت الآيتين مع إلقاء الضوء على المعانى ليتسنى للقارىء فهم مراد الحق ﷻ وليتبين له تعسف أهل الضلال فيما يقدمونه للناس من شذوذ فكرى سقيم وأتساءل: هل يجبر

لعبد ربه أن يذكر حكما معينا فى موضع معين حتى وإن أحال القرآن وبيان الحكم المراد إلى السنة؟ فإذا لم يحقق ربنا مرادنا كفرنا بما جاءنا من الحق، هذا هو منهج ذلك الرجل مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ صدق الله العظيم، ويقول تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ ويقول عز من قائل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ والحق ﷺ أوضح أحكام المحيض فى السنة المشرفة إيضاحا لا مجال فيه لشك فى أن المرأة يحرم عليها الصوم والصلاة فى فترة حيضها ونفاسها وصاحب السنة هو الذى قال له ربه ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى أنزلنا القرآن لتكون السنة مبينة له تبين مجمله وتقيد مطلقة وتخصص علمه وتوضح مشكله والسنة هى التى بينت عدد الركعات فى الصلاة ونصاب الزكاة وحرمت الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها وهى التى حرمت من الرضاع ما حرم من النسب والسنة هى التى نهت عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير وهى التى أحلت ميتة البحر فى قوله ﷺ «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» والسنة هى التى اعتبرت الجنين فى بطن الذبيحة قد أخذ حكم أمه فى الزكاة فقال صلوات الله وسلامه عليه «زكاة الجنين زكاة أمه» ولما قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ ﴾ وبقيت البنتان مسكوتا عنهما فنقلت السنة حكمهما.

فعلى هذا الرجل أن يعرف أن تخصيص الشىء بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما عداه ومعلوم أن قضايا القرآن الكريم كلية مطلقة تكفى فيها الإشارة فى مثل قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ليبين مدى ضرورة وغلظ نجاسته التى لا يتناسب معها لقاء الرجل بزوجته فكيف يتناسب معه وقوف الحائض فى حالة تلبسها بدم الحيض بين يدى خالقها ﷻ إن كلام هذا الرجل إذا اعتبر اجتهادا فنحن نعتبره إلحادا بينا وكفرا بواحا وردة عن دين الإسلام وهذه طائفة من سنة رسول الله ﷺ توضح أن احالة أمر أحكام الحيض إلى السنة لكونها تحتاج إلى بيان شامل لا يضيق به القرآن وإنما الأجدر أن تتحمل السنة إيضاحه بقصد التخفيف عن المتلقين والذى سنتلمسه من خلال استعراض بعض الأحاديث الشريفة الواردة.فى هذا الشأن.

وهذا حديث يحدث عن عائشة أن امرأة من الأنصار سألت رسول الله ﷺ عن الغسل من المحيض فقال: تأخذ إحداكن ماءها وسدرها فتطهر، فتحسن الطهور أو تبلغ فى الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكا شديدا حتى تبلغ شئون رأسها ثم تصب عليها الماء ثم تأخذ قرصة ممسكة فتطهر بها، قالت السائلة، كيف أتطهر بها قال سبحان الله «تطهرى بها» قالت عائشة: تتبعى بها أثر الدم.. قالت وسألته عن الغسل من الجنابة فقال تأخذ إحداكن ماءها فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ فى الطهور حتى الماء على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شئون رأسها ثم تفيض الماء على جسدها «فقالت عائشة نعم النساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين.

وحينما استعرض هذا الرجل الحديث الذى سقناه الآن قال «إن روايات البخارى ومسلم فى هذا الشأن تفيد أن على الحائض وضوء «كذا برفع المنصوب» وتارة يقولون غسلا أو إزالة أثر الدم، وهذا فى حديث الرسول خذى قرصة من مسك فتطهرى به».

أقول لهذا الرجل إن أحدا من العلماء لم يقل بهذا ولم نسمع أن النبى ﷺ أمر المرأة بأخذ قطعة من القطن المطلى بالمسك لتسد مسد الطهارة وإنما لتزيل ما أبقى الحيض من تغير رائحة المكان فيكون استخدامها للمسك مبالغة فى إزالة هذا الأثر وليس كما يدعى هو فلا مانع من الجمع بين الوضوء والغسل والتطيب بالمسك لتتم الفائدة من طهارة المرأة فالنبى ﷺ أمرها بالمبالغة فى الطهور وصب الماء على رأسها وتدليك الرأس والبدن.

هذا حديث واحد بين حكما واحدا من أحكام الطهارة من الحيض.. ومعروف أن المرأة تحيض أو تستحيض أو تنفس فلكل حكمه الذى يناسب أن تتولى السنة المشرفة شرحه، وهذا حديث ثالث يبين حرمان الصلاة والصوم على الحائض، عن أن حبيبة بنت جحش، قالت: كنت أستحاض حيضة كثيرة طويلة: قالت فجئت إلى النبى ﷺ أستفتيه وأخبره قالت: فوجدته عند أختى زينب قالت: قلت يا رسول الله إن لى إليك حاجة قال: «وما هى أى هناه يعنى يا هذه، قلت إنى استحاض حيضة طويلة كبيرة وقد منعتنى الصلاة والصوم فما تأمرنى فيها قال: أنعت لك الكرسف، فإنه يذهب الدم «فلولا علم السائلة بحرمة الصلاة والصوم لما قالت للنبى ﷺ «وقد منعتنى الصلاة والصوم» ولو أن الصلاة والصوم جائزان مع الحيض لأشار إليها النبى ﷺ بالمحافظة عليهما وفى هذا الباب أكثر من عشرين حديثا تتحدث عن الحيض وأحكامه وحرمة الصلاة والصيام معه ، ويكفى أن نبينا ﷺ يقول «ما

أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ولا من فاسق بين فسقه ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم يأوله على غير تأويله» وقال صلوات الله وسلامه عليه «يوشك رجل منكم متكئًا على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه إلا وإن ما حرمه رسول الله ﷺ مثل الذى حرم الله» وقال تعالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

تعدد الزوجات فى المسيحية !

تعدد الزوجات فى المسيحية!

لا تتوقف المفاجآت التى ترقد بين صفحات الكتب..

ولأننا شعب لا يقرأ ولا يهتم.. فإن كثيراً من المعلومات تمر علينا دون أن ننتبه لها، وكثيرا من الكتب تصدر دون أن نلقى لها بالاً.. فقط نردد أننا نعرف كل شىء.. مع أن الواقع أننا لا نعرف شيئاً..

هذا الكلام ليست له مناسبة معينة.. سوى كتاب وقع بين يدى عن تاريخ الكنيسة المصرية.. كتبه رفيق حبيب ومحمد عفيفى.. لم يقصد المؤلفان أن يؤرخا لمؤسسة.. أو يفصلا تاريخ عقيدة.. أو ينشرا تاريخاً لجزء من الجماعة المصرية، فالمصريون جماعة واحدة ولهم تاريخ واحد، ولكنهما قصدا أن يكون كتابهما لكل المصريين- لأن الديانتين الإسلامية والمسيحية اختلطتا وامتزجتا.. وصارتا ثقافة واحدة.

المؤثرات الإسلامية على الكنيسة القبطية والأقباط كثيرة عبر صفحات الكتاب، لكن أهمها تلك المؤثرات التى اقتربت من الأحوال الشخصية للأقباط.. ووصلت إلى «شريعة الزوجة الواحدة فى المسيحية»، فنتيجة لطول اختلاط الأقباط بالمسلمين ومعايشتهم لهم ونتيجة لسماح الشريعة الإسلامية بتعدد الزوجات، فقد سار الأقباط نحو المطالبة بتعدد الزوجات بل وحاولوا فرض الأمر بالقوة على المؤسسة الكنسية فى مطلع القرن السابع عشر فى عهد البابا مرقس الخامس.

بل كان هناك ما هو أخطر.. فقد أدت مسألة تعدد الزوجات إلى ثورة وانقسام داخل المؤسسة الكنسية ذاتها، فقد أفتى مطران دمياط بذلك بعض رجال الدين الأقباط، مما أدى إلى انشقاق فى صفوف الكنيسة، ودعا ذلك البابا مرقس الخامس إلى إصدار منشور يحرم فيه تعدد الزوجات، كما أصدر منشوراً بعزل المطران عن مطرانيته وحرمانه من الكنيسة وهى أقسى عقوبة يمكن إيقاعها على مسيحى.

كان رد فعل مطران دمياط وأتباعه عنيفاً وصل بهم إلى حد التطرف، فقد طلبوا من الدولة عزل البابا مرقس لأنه يعطل شرائع العهد القديم، وساندهم فى ذلك بعض كبار الأقباط الذين

يعملون فى دواوين الحكومة، والذين كان تعدد الزوجات يمثل لهم ترفاً إجتماعيا هم بحاجة إليه إلى جانب ثرائهم الإقتصادى، فأصدرت الدولة أوامرها بعزل البابا وإيداعه السجن.

ولأنه كان لابد من تنصيب بابا جديد، فقد نصب المعارضون للبابا مرقس الخامس أحد الرهبان المؤيدين لتعدد الزوجات مكانه.. لكن المفاجأة أن الدعوة لتعدد الزوجات سرعان ما خفتت حدتها، وسرعان ما استطاع أنصار البابا مرقس إعادته من جديد إلى كرسى البابوية.. ولم يكن هذا يعنى القضاء على تعدد الزوجات عند الأقباط كلية.. ولكنه كان يعنى نجاح الكنيسة فى القضاء على الإنشقاق الذى تم فى صفوفها..

بالقرب من هذه المعركة استمر بعض الأقباط فى ممارسة تعدد الزوجات ولكن بعيداً عن أعين الكنيسة.. حيث لجأوا إلى القضاء الإسلامى الذى يبيح ذلك، حيث إن القاعدة الفقهية فى هذا الوقت كانت ترى أن الأحوال الشخصية لأهل الذمة تسير وفقا لشرائعهم، إلا إذا لجأوا إلى القضاء الإسلامى فتطبق عليهم الشريعة الإسلامية، ومن هنا دخل بعض الأقباط من هذا الباب ليبيحوا لأنفسهم تعدد الزوجات بعيداً عن سلطة الكنيسة!

موضوع تعدد الزوجات عند الأقباط فى مصر مثل النار التى تحت الرماد لكنها انفجرت بقوة عندما وجهت السلطات الأمريكية عام ٢٠٠٣ إلى توم جرين– ٥٢ سنة– تهمة تعدد الزوجات.. توم دافع عن نفسه بأن حقوقه الدستورية تكفل له ممارسة قناعته الدينية كما يرغب.. فيمكنه إنجاب ٥٠ طفلاً وطفلة وأن يكون لديه ١٢ زوجة.

توم جرين كان ينتمى إلى طائفة المورمون المسيحية.. وهى طائفة تنتمى إلى كنيسة «قديسين الأيام الأخيرة» ليسوع المسيح التى أسسها جوزيف سميث عام ١٨٣٠، وقد تزوج الأعضاء الأوائل فى الكنيسة الذين استقروا فى ولاية أوتاه فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر من عدة نساء. وكانت وجهة نظرهم فى ذلك أن الله يحثهم على الزواج من أكثر من امرأة لأن أنبياء العهد القديم تزوجوا من أكثر من امرأة.

صحيح أن الكنيسة ألغت هذا التقليد عام ١٨٩٠ عندما كانت أوتاه تسعى إلى الإنضمام للولايات المتحدة، وتم تجريم تعدد الزوجات فى دستور الولاية عام ١٨٩٦، إلا أن مجموعات من المورمون الأصوليين انشقوا عن الكنيسة وشكلوا جماعة لهم فى أوتاه والولايات المجاورة، ولاية أوتاه يعيش فيها الآن ٣٠ ألفا يمارسون تعدد الزوجات، معظمهم فى مدن صحراوية قاصية بعيدة، كى لا يلفتوا الإنتباه.

خلافات الكنيسة المصرية والإنشقاقات التى حدثت فيها فى القرن السابع عشر.. وحادث توم جرين.. لا نضعهما على خلفية من واقع الأقباط الآن.. ولكنى أروى فقط بعض الحوادث التى اقتربت من مسألة تعدد الزوجات وكانت الكنيسة طرفا فيها.

مفاجآت كتاب تاريخ الكنبسة المصرية لا تتوقف.. فبعد أن نتجاوز قضية تعدد الزوجات نصل إلى الجوارى، فمن المؤثرات الإسلامية التى بدأت فى الزحف على الحياة القبطية مسألة التسرى بالجوارى.. أى اقتناء الجوارى وممارسة الجنس معهن، وهو أمر يبيحه الإسلام ويضع له تشريعات تنظم أوضاعه، وعلى العكس من ذلك تماما فى المسيحية فهى ترى أن التسرى بالجوارى يصل إلى درجة الزنى.. والمسيحية وغيرها من الأديان تحرم الزنى، ولكن خطورة الزنى فى المسيحية أنه يفصم عرى الزواج أى أن الزنى يبطل الزواج، فالزواج فى المسيحية علاقة مقدسة بين رجل واحد وامرأة واحدة مثلها مثل العلاقة بين المسيح والكنيسة، وأى خروج على هذه القاعدة بالتعامل جنسياً مع طرف آخر يخرج الزواج عن قدسيته.

ومع طول اختلاط الأقباط بالمسلمين وعاداتهم.. ومع زيادة الثروات فى أيدى بعض الشرائح العليا فى البناء الإجتماعي القبطى نشأت عودة التسرى بالجوارى لدى أثرياء الأقباط فى ظل الحكم الإسلامى، ولعل أبشع الحوادث المرتبطة بالتسرى بالجوارى وأثره على الكنيسة القبطية ما جرت وقائعة فى عهد البابا يوحنا الخامس عشر فى القرن السابع عشر، إذ قام البابا بجولة فى صعيد مصر لتفقد أحوال الأقباط هناك، وعندما وصل إلى أبنوب نزل ضيفاً على أحد الأثرياء القبط ولاحظ وهو فى بيته تسريه بالجوارى، فنصحه البابا بالابتعاد عن ذلك والرجوع إلى المسيحية الحقة، ولكن الثرى رفض نصائح البابا، فترك يوحنا الخامس عشر بيت الثرى غاضبا.

كان لابد من قرار.. أسرع البابا بالفعل وأصدر قرار الحرمان على هذا الثرى ويبدو أن قرار الحرمان قد أزعج الثرى وهز هيبته بين أقباط المدينة، فخطط الثرى لوضع السم للبابا فى الطعام وسرعان ما لقى حتفه.. وليكتب التاريخ بذلك أن يوحنا الخامس عشر هو أول شهيد راح دفاعاً ضد بعض المؤثرات الإسلامية التى دخلت إلى الحياة الاجتماعية للأقباط ولعالم الكنيسة.

المؤثرات الإسلامية فى العقيدة المسيحية ليست بدعة.. ولكنها طبيعة مصرية قديمة..

فالمصريون يستقبلون الأديان نعم.. لكنهم يعيدون صنعها وخلقها على مزاجهم الخاص، فقد تأخر اعتناق عدد كبير من المصريين للإسلام لما يزيد على ثلاثة قرون، ولم يكن ذلك بسبب اعتراضهم على التعبد لله أو على مكارم الأخلاق.. فهم أرض العبادات والتوحيد والرغبة العميقة فى العدل، وإنما كان ذلك رفضاً للمفهوم الدينى المتضمن ثقافة العنف والرعاة.. لكن عندما دخل المصريون الإسلام جودوا القرآن وأبدعوا تلاوته وحسنوا خطوطه، وقدموا الفلسفة الصوفية وأقاموا الأضرحة لآل البيت وقدموا مفهوماً مصرياً سمحاً ومبدعاً مستقراً للإسلام على ضفاف النيل.

كان لابد بعد استئناس الإسلام.. أن يتم الدمج بين الديانتين فتوحدت أشكال القبور وفكرة الأضرحة وطرق البناء وأبراج الكنائس والمآذن والموالد والطقوس الدينية الشعبية والترتيل بالعربية للقرآن وللصلوات الكنيسة.. وكما خرجت فلسفة الرهبنة من مصر خرجت فلسفة الصوفية.. وكان المصريون مسلمين وأقباطا يسعون إلى اعتناق معتقد شعبى واحد فى مواجهة المعتقد الرسمى الذى جاءهم غازياً!

الكلام عن تعدد الزوجات والتسرى بالجوارى فى المسيحية.. لا مقصد من ورائه إلا التأكيد على عبقرية الشعب المصرى.. الذى يمتص كل ما يقدم إليه.. ليخرج منه رحيقاً خاصا به.. قد تهفو نفوس بعض الأقباط إلى تعدد الزوجات وقد يحلم أثرياؤهم بالتسرى بالجوارى.. لكن يظل ذلك فى مساحة إنسانية ضيقة من الأمنيات المسكوت عنها.. فهم يعلمون أن الكنيسة لن تقبل ذلك.. رغم وجود فتاوى وتجارب فى عهود سابقة سعت إلى جعل تعدد الزوجات أمرا مشروعا.. ومن التسرى بالجوارى واقعا ملموساً!

المسيح الإسلامى

المسيـح الإسـلامى

عندما كنت أحفظ القرآن على يد شيخى عبد الجواد غلوش، كنت أتعجل الوصول إلى حفظ سورة مريم التى سحرتنى قصتها وابنها عليهما السلام، كانت القصة تسكن فى ذاكرتى بتفاصيلها وكنت أحكيها لمن حولى كحكاية ينقصها الإستدلال بالآيات القرآنية التى تضفى على القصة سراً خاصاً وروحاً ترفرف على من يسمعها، تصعد به فى أجواء سحرية أسطورية.. طفل يولد من عذراء بغير أب.. وقبل أن تتهم الأم فى شرفها ينطق الطفل ليشهد لها بالبراءة.. وعندما يكبر يمنحه الله من قوته ليبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله.

وعندما بدأت باهتمام شديد فى قراءة قصص الأنبياء من وجهة النظر الإسلامية أدركت أن لعيسى عليه السلام مكانة خاصة ولأمه مريم مكاناً رفيعاً فهى سيدة نساء العالمين. شهد لها القرآن بالعفة والبراءة واستلهم منها الأدباء والشعراء جانب المعجزة فى شخصيتها، وعندما بدأت رحلتى فى التأمل فى ملامح الناس وتفاصيل حياتهم عرفت أن بنات المسلمين يحملون فى صدورهم عشقاً خاصاً للسيدة العذراء ولا تتردد بعضهن فى وضع صورتها بنهاية سلسلة يعلقونها فى رقابهن.

تجسدت هذه المعانى أمامى وأنا أزور دير العذراء بجبل الطير فى سمالوط بمحافظة المنيا، لم يكن الزائرون من الأقباط فقط.. ولكن كان هناك عدد كبير من المسلمين ذهبوا حاملين همومهم ومشاكلهم ليضعوها على أعتاب الدير علهم يجدون لها حلاً شافياً ببركة العذراء مريم، كان المسلمون يحيون السيدة مريم وابنها عيسى عليهما السلام بطريقتهم الخاصة.. يقرأون لهما الفاتحة، ثم يدعون الله أن ينالهم بعضاً من بركتهما التى ترجمها القرآن العظيم ببعض آياته وسنة النبى ﷺ بأحاديث لا تخطئها أذن ولا تجهلها عين.

وضعت كل هذه المعانى أمامى وأنا أقرأ كتاباً مهماً للغاية جمع مادته وعلق عليها طريف الخالدى وصدر عام ٢٠٠١ باللغة الانجليزية.. ثم ترجم إلى اللغة العربية وصدر عام ٢٠٠٤ عن دار النهار البيروتية، الكتاب يحمل عنواناً دالاً هو «الإنجيل برواية المسلمين».. ومنذ البداية يتحدث طريف الخالدى عن هدف كتابه يقول: كان هدفى فى الأساس عند تجميع مادة كتابى إبراز صورة المسيح غير المعروفة بشكل جيد خارج المدونات الإسلامية، وقد تثير

هذه الصورة فضول أولئك الذين يهمهم فهم كيف أن حضارة دينية كالإسلام توقر شخص المسيح وفى ذات الوقت ترفض ألوهيته بشكل قاطع.. والمسيح فى كتابى يشبه فى بعض النواحى المسيح وفقاً للتراث الإنجيلى، كما يختلف عنه فى نواحٍ أخرى.. والسؤال الأساسى الذى يدور حوله الكتاب هو: كيف ومتى ظهر الإنجيل الإسلامى؟ من عادتى عندما أعرض كتاباً جديداً لقرائى ألا أتدخل كثيراً بينهم وبين المؤلف.. كل ما أفعله أننى أقدم لهم عصارة الكتاب دون تعليق ولا أظهر لهم إلا عندما يحتاج الأمر إلى ظهورى.. أضع أمامهم أفكار صاحب الكتاب ثم أترك لهم حرية تكوين الرأى عما قرأوا، لا أصادر عليهم رأيهم.. ولا أقودهم إلى فكرة بعينها.. وهذا ما سأفعله الآن مع كتاب طريف الخالدى.. قد تزعجكم أفكاره.. وقد تقلقكم أخباره.. لكنها فى النهاية أمامكم دون أن يحجبها أحد عنكم.

والآن أنتم وجهاً لوجه مع القصة الكاملة..

تبلورت صورة المسيح فى الإسلام من خلال حديث القرآن عنه.. وقد ظهر الإسلام فى زمان ومكان كانت فيه شخصية المسيح معروفة جداً.. حيث تظهر النقوش والمصادر السريانية والأثيوبية والبيزنطية والدراسات الحديثة للشعر الجاهلى ومؤلفات إسلامية قديمة.. أنه كانت هناك فرق وجماعات مسيحية متعددة فى شبه الجزيرة العربية وما حولها من الأمصار قبل ذلك الإسلام.. ويفسر ذلك وجود صور عديدة ومختلفة للمسيح.. ومنطقى أن نقول إنه عند ظهور الإسلام لم تكن فى الشرق الأدنى كنيسة موحدة تطبق تعاليم المجامع المسيحية بخصوص الإعتقاد المسيحى.. أو بمعنى آخر أكثر دقة فالإسلام ولد وسط تشرذم مسيحى بعضه عدائى جداً لبعضه الآخر وغير منصهر فى إطار كنيسة عالمية واحدة.

إن الصورة التى رسمها المستشرقون للمسيح عليه السلام من خلال القرآن تركز على أن أصولها من الأناجيل المسيحية المنحولة أو على الأقل من أفكار فرق مسيحية هرطوقية أو يهودية.. مسيحية كانت عاملة مع بدايات القرن العشرين.. وقد نما هذا التصور انطلاقاً من حجة اعتمد عليها المستشرقون وهى أنه كانت للرسول ﷺ صورة مشوشة عن المسيحية، ربما أخذها عن فرق مسيحية.. وعليه يرى المستشرقون (ببجاحة لا يحسدون عليها) أن كل القصص والأخبار عن المسيح التى رواها النبى هى خرافات وأوهام.. أو هى مادة مأخوذة من الأناجيل التى على المرء أن يتصور أنها كانت متداولة بسهولة فى المناطق شبه المعزولة من العالم البيزنطى.

وفى خلاف حاد بين المستشرقين رأى بعضهم أن المسيح شغل مكانة مرموقة بين الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن، لكن مستشرقين آخرين رفضوا فكرة أن القرآن من الأساس يبرز المسيح بصورة خاصة مقارنة بأنبياء آخرين كإبراهيم وموسى ويوسف وداود عليهم السلام وهم أنبياء يمتلكون مكانة مرموقة فى القرآن.. وعندما يصل البحث إلى علم اللاهوت المسيحى فإن بعض المستشرقين يزعمون أن مفهوم الفداء عند المسيحيين غائب تماماً عند المسيح القرآنى.. وعليه فمن المستحيل التوصل إلى مصالحة كاملة بين الإسلام والمسيحية.

إن المسيح الإسلامى الذى رسم القرآن صورته بدقة لها ملامح محددة تحملها تفاصيل عديدة، ولا مانع أن تبدأ من سؤال واضح ومحدد فالقرآن يصف المسيح بـ«كلمة الله» و«روح منه».. فهل هذان اللقبان يمنحان المسيح درجة خاصة من الوقار على قائمة الأنبياء أم أنهما من أجناس البيان؟ للإجابة عن هذا السؤال حاول بعض الباحثين تحديد عدد المرات التى يذكر فيها كل نبى فى القرآن كدليل على أهميته مقارنة بغيره من الأنبياء.. لكن هذا الأسلوب لا فائدة ترجى من ورائه وبالتحديد فيما يتعلق بالمسيح عليه السلام.. فهناك أنبياء مثل إبراهيم وموسى ويوسف قد يكون لهم ذكر عددى أكبر. لكن عندما يتعلق الأمر بالتأثير والايحاء والفعالية والدلالة فهذه أمور لا يمكن قياسها عددياً.

النظر إلى المسيح يختلف. ففى حين لا يجد يهودى متدين معاصر شيئاً يعترض عليه فى طريقة وصف القرآن لموسى ويوسف وداود.. فإن اليهودى المتدين يمكن أن يعترض على صورة المسيح القرآنى. لأنه وبالتوصيف الإسلامى شخصية مثيرة للجدل، فهو النبى الوحيد فى القرآن الذى يبتعد بنفسه عما يعتقده أتباعه فيه، فالقرآن يقول عن المسيح: «مطهرك».. أى أن الله سيطهره من المعتقدات الفاسدة لأتباعه، وهناك ما هو أكثر فالمسيح سيلعب بنفسه دوراً فى هذا التطهير.. ففى القرآن ينفى المسيح أية مسئولية له فى إشاعة معتقد الثالوث الأقدس.. والله نفسه ينفى حدوث الصلب، وبذلك فهو ينفى أن يكون اليهود قتلوا المسيح.. فما حدث أن الله رفعه إليه منجياً إياه منهم.. ليظل الرفع وليس الصلب رمزاً لأهم اللحظات فى حياة عيسى وفقاً للقرآن.

إن القرآن ينبذ معتقد الثالوث الأقدس ويصفه بمذهب عبادة آلهة ثلاثة.. وتدلل على ذلك الآية التى تم فيها استنطاق المسيح من قبل الله ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى

بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾، هذه الآية بما تحمله من دلالات هى الأكثر جدلاً.. فالقرآن يلخص عقيدة هدفها وضع حد للنزاع والجدال المستمرين بين أتباع أهل الكتاب.

ويظهر المسيح فى القرآن من خلال أربعة أقسام، قصص عن ولادته وطفولته وأخبار عن عجائبه ومعجزاته وحوارات بينه وبين الله أو بينه وبين بنى إسرائيل، ثم كلام إلهى يؤكد أنه بشر وعبد من عباد الله ويعرف مكانته بين أنبياء الله ويهدف كذلك للتشديد على ضرورة نبذ الغلو فى الإيمان به.. بالنسبة للقسمين الأولين ليس هناك ما يدعو للشك أن القصص الواردة فيهما تشبه كثيراً قصص الأناجيل.. فولادة المسيح من العذراء والتى فى القرآن حدثت تحت جذع النخلة والكلمات التى يقولها وهو رضيع فى المهد هى آيات تشير إلى النعمة الإلهية المعطاة له ولوالدته، أما عجائبه فى القرآن فهى غير موجودة بإسهاب بقدر ما جاءت للتذكير بالقوة التى جعلها الله فيه لشفاء المرضى وإحياء الموتى.

وعلى عكس الأناجيل يميل القرآن إلى التركيز على ولادة المسيح المباركة أكثر من آلامه فى أيامه الأخيرة.. ولذلك يكثر الكلام عنه بعبارة «ابن مريم» وكثيراً ما نجده إلى جوار أمه فهى بجانبه تؤكد ولادته العجائبية، أما موته فهو أمر لا يقل غرابة إذ يرفعه الله إليه لأنه ووفقاً للتصور الإسلامى لا يزال ينتظر تكملة دوره مع قرب نهاية العالم.

أما طريقة كلامه والخطاب الإلهى عنه فتبدو وكأنها تحاكى تجربة النبى محمد وهى تبدو مدبرة لتشير إلى أنه مجرد عبد من عباد الله، والمسيح نفسه لا يستهين بهذه الصفات أو بهذه الحقيقة.. فنحن نجده متواضعاً جداً تجاه والدته.. ونجده يحمل رسالة إلهية تثبت وحدانية الله وتؤكد ما سبقها من رسائل، والعدد الأكبر من الإشارات القرآنية إلى المسيح يأتى فى إطار تصريحات إلهية تتكلم عنه وبالنيابة عنه، وهى تصريحات تذكر المسيح نفسه وتذكر البشرية بأن الله هو الخالق الحقيقى ومقرر حياة ومصير المسيح والبشرية جمعاء.. ويظهر المسيح من خلال ذلك بصورة «المطهر» من تحريفات أتباعه فهو النبى الوفى المطيع لخالقه مخالفاً بذلك صورة المسيح المصلوب.

هذا عن المسيح القرآنى.. أما عن المسيح فى الكتابات الإسلامية وعند رواة الحديث وكتاب قصص الأنبياء فهناك مسيح نهاية العالم يتربع معززاً فى كتب الحديث الصحيحة وهو بذلك

يصبح هامشياً فيما يتعلق بأمور العبادة والتقوى الإسلامية، وهناك مسيح آخر مزدهر في كتب الزهد والتقوى.. ويلعب هذا المسيح الثانى دوراً مركزياً ليس فقط كمعلم للأخلاق..ولكن أيضاً كطرف فاعل في النقاش الإسلامي الداخلي، فالمسيح الآخر هو مسيح التقوى والعبادة الذى استمرت أخباره وقصصه في الظهور في الأدبيات العربية الإسلامية حتى العصر ما قبل الحديث أى حتى القرن الثامن عشر وأخباره وقصصه هى التى نسميها الإنجيل الإسلامى.

ولا يظهر المسيح وحده في أدبيات الزهد والتقوى، إذ معه أنبياء آخرون تنسب إليهم أيضاً أخبار وقصص أهمهم موسى وداود وسليمان وأيوب ولقمان ويحيى.. هذا غير أحاديث في كتب الزهد والتقوى المبكرة منسوبة إلى الرسول ﷺ ومجموعة أقوال منسوبة إلى جماعة من الصحابة ومشاهير الأولياء من صدر الإسلام، وهذا الكم يشبه كتب عيون الأخبار في الأدب وبالعادة هو مقسم إلى أبواب كفضل العبادة والحزن والبكاء وأمور الدنيا والآخرة والخشية والخوف من الله والتواضع وفضائل الصمت والأخلاق وذكر الموت وفضائل الفقر والتوبة، ويمكن اعتبار هذه الأبواب بشكل أو بآخر خلاصة للموضوعات التى شغلت أوساط الزهاد المسلمين الأوائل.

وعند فحص تراجم رواة الأخبار الأولى عن المسيح نجد أن حياتهم العملية هى من فترة نصف القرن الإسلامى الأول إلى نصف القرن الثانى، ووفقاً للتقليد الإسلامى الشائع في علم الطبقات يكون تصنيفهم إما التابعون أو تابعو التابعين وفى معظم الحالات يروى هؤلاء الرواة الأخبار والقصص عن المسيح على مسئوليتهم الشخصية دون إسنادها إلى أحد صحابة النبى ﷺ، وهم الذين يمر عبرهم عادة الحديث النبوى، بمعنى آخر إن أخبار المسيح تم تناقلها في أوساط المسلمين بحرية دون تطبيق للمقاييس المتشددة التى كان يتوقع من الحديث النبوى الالتزام بها.

وتشير كل الإحتمالات إلى أن مكان ظهور المسيح بصورته الإسلامية المحددة هو العراق وبالتحديد في مدينة الكوفة، فمعظم الرواة المؤسسين لأخبار وقصص المسيح في التراث الإسلامى من أهل الكوفة ولم يكن هذا غريباً فالكوفة في صدر الإسلام كانت مسرحاً أساسياً لنشوء وتطور عدد كبير من العلوم الإسلامية كالحديث والتفسير والكلام والفقه وكذلك العلوم العلمانية كالنحو والتاريخ والأنساب والأدب. وكانت الكوفة أيضاً الموطن الرئيسى الذى انطلقت منه المدرستان اللتان أنتجتا فيما بعد المذهبين السنى والشيعى.

ومما يلاحظ أن كتب التراجم تضفى على معظم هؤلاء الرواة الكوفيين صفة الزهاد والعباد وتعرف الكثير منهم بأنهم وعاظ أو قراء وتنسب إليهم خطباً أخلاقية قصيرة، وكان هؤلاء الوعاظ والزهاد أوعية متنقلة للعلم، رحلوا من مكان إلى آخر مؤنبين الحكام المحليين حيث حلوا، أو معتزلين الحياة السياسية ومعلنين صدمتهم ورفضهم لحياة البذخ والتدهور الأخلاقى للطبقة الحاكمة وكان جوهر تعاليمهم يتمحور حول التقوى الذاتية، ولذلك نجد فى المجموعة الأولى من أخبار الإنجيل الإسلامى الكثير من النقد للعلماء الذين يستخدمون الدين للتضليل أو الذين يقولون ما لا يفعلون، ورفض معظم هؤلاء الوعاظ والزهاد المسلمون خدمة الدولة حتى فى أمور كالقضاء والفقه، كما كان الأمر مع زهاد الصحراء المسيحيين فى مصر فى القرنين الرابع والخامس للميلاد الذين كانوا دائماً على خلاف مع الكنيسة الرسمية ورفضوا العمل كأساقفة ومطارنة، لذلك وجد هؤلاء الوعاظ والزهاد المسلمون فى أخبار الأناجيل عن المسيح وصراعه المتكرر مع الفريسيين مادة خصبة بنوا عليها الكثير من أمثلتهم الأخلاقية، ولم يكن هناك من نبى أكثر من المسيح يجسد الصراع بين النص والروح، بين الإنسان والمخلوق لخدمة نهار السبت ونهار السبت الموجود لخدمة الإنسان وبين ممالك الدنيا وملكوت السموات.

إن القصص والأخبار الأولى عن المسيح وعددها يصل إلى ٨٥ خبراً تقريباً نجدها فى كتابين أساسيين فى الزهد والتقوى وهما كتاب: «الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك» وكتاب: «الزهد لأحمد بن حنبل» ويمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات.

– المجموعة الأولى تعلى من دور المسيح فى نهاية العالم وهو ما يشير إليه القرآن بشكل عام وتشير هذه الأخبار إلى أن المسيح ليس بأعلم من أى بشر آخر عن وقت قيام الساعة، فذكر الساعة يثير الرعب فيه ويحمله على تكثيف الصلاة «كان عيسى بن مريم إذا ذكر الساعة صاح ويقول: لا ينبغى لابن مريم أن تذكر عنده الساعة فيسكت» وفى يوم القيامة سيكون المسيح هو الشخص الذى يلتقى حوله المؤمنون تحديداً «الفرارون يُجمعون إلى عيسى عليه السلام يوم القيامة» وبمعنى أوضح سيكون المسيح عراب كل الذين رفضوا الدنيا وما فيها خوفاً من الفساد الأخلاقى.

– المجموعة الثانية تشمل أحاديث وقصصاً من الأناجيل إما موسعة أو معدلة بطريقة تعطيها طابعاً إسلامياً، وهذه الأحاديث والأخبار من أصل إنجيلى كانت متوفرة أساساً كجزء من مجموعة من أقوال المسيح، ربما فى إطار كتاب يتضمن فصولاً من الإنجيل لغرض القداس،

أو كانت معروفة كجزء من مادة الأناجيل فى أوساط حلقات الزهد والتقوى الإسلامية، وتحوى هذه المجموعة أقوالاً مثل: «أنتم ملح الأرض» و«انظروا إلى طيور السماء» و«إذا تصدقت فلا تعلم شمالك ما تفعل يمينك» و«اكنزوا لأنفسكم كنوزاً فى السماء فحيث يكون كنزك يكون قلبك» و«طوبى للبطن الذى حملك وللثديين اللذين رضعتهما» و«تتلمذوا لى فإنى وديع متواضع القلب».

وقد تمت بعد ذلك أسلمة أقوال المسيح ضمن الإنجيل الإسلامى، ففى إنجيل متى يجيب المسيح المرأة التى باركته بقوله: «بل طوبى لمن يسمع كلمة الله ويحفظها».. وفى الإنجيل الإسلامى تأتى إجابة المسيح أكثر تحديداً وبنكهة إسلامية واضحة: «طوبى لمن قرأ القرآن ثم عمل بما فيه».. ثم تعالوا نتفحص الحديث التالى: «قيل لعيسى بن مريم عليه السلام: يا رسول الله لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك؟ قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئاً يشغلنى به» من الصعب للغاية تحديد ما إذا كان لهذا الحديث صلة بدخول المسيح إلى القدس وبالموقف الإسلامى الرافض لرواية أسبوع الآلام.. وهى الرواية التى لا يوجد لها أى أثر فى الإنجيل الإسلامى.

– المجموعة الثالثة تقدم المسيح كعراب للزهاد المسلمين وتركز على رفضه الكامل والمطلق للدنيا، فالتعاطف والتماثل مع الفقراء صلب رسالته.. والعالم عنده حطام وكل ما ينتمى إليه يجب نبذه وعلى المؤمن إبقاء الآخرة فى باله وأمام عينيه كأنه فى هذه الدنيا عابر سبيل أو غريب أو ضيف.

– فى المجموعة الرابعة لا يظهر المسيح كنموذج بعيد المنال للأخلاق، بل هو شخصية أعطت دعمها فى بعض الحالات لفرق إسلامية وضد فرق أخرى بخصوص موضوعات تتعلق بالخلاف الإسلامى الداخلى، فالمسيح يقف موقفاً محدداً من أمور ساخنة وشائكة ومنها مثلاً دور العلماء فى المجتمع وعلاقتهم بالدولة، والجدل الخاص بالإستطاعة والقدر وموضوع الإيمان والمعصية، ومصير صاحب المعصية سواء أكان مؤمناً عادياً أم حاكماً، فموضوعات مثل هذه فرقت المسلمين إلى مذاهب عديدة وكانت من بين الأسباب التى فجرت الحروب والفتن فيما بينهم والتى هيمنت حتى منتصف القرن الثانى للهجرة.

فالمسيح فى الإنجيل الإسلامى يغضب من علماء الدين الذين ابتعدوا عن دورهم وذهبوا إلى حد وضع خدماتهم وعلمهم تحت تصرف الدولة والحكام وأعرضوا عن واجبهم تجاه مجتمعاتهم طلباً للمنفعة الذاتية.. ومن ذلك قوله: لا تأكلوا بكتاب الله.. وهذا الخبر: إذا زل العالم زل

بزلته عالم كثير».. واقرأ أيضاً هذا الخبر: قال عيسى بن مريم للحواريين: «لا تأخذوا ممن تعلمون من الأجر إلا مثل الذى أعطيتمونى»، فالعلوم الدينية من وجهة نظر الإنجيل الإسلامى يجب نشرها من دون أجر وهو مفهوم أثار جدلاً حاداً وطويلاً بين العلماء المسلمين.

فى مرحلة لاحقة دخل المزاج الأدبى على الإنجيل الإسلامى وأثر فيه.. ويظهر ذلك فى أحد كتب المختارات الأدبية وتحديداً فى كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة الذى نقل بعض الأخبار مترجمة حرفياً من الأناجيل وبعضها الآخر من المصادر السابقة للإنجيل الإسلامى، لكنه لا يعلق على وجودهما جنباً إلى جنب فى كتابه الذى تقرأ فيه كلمات للمسيح مثل: قال المسيح عليه السلام: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» وقال المسيح عليه السلام: «كن وسطاً وامش جانباً».. وعند ابن قتيبة أصبح المسيح إضافة إلى دوره كعراب للزهاد المسلمين نموذجاً للسيرة الحسنة والأخلاق، كما فى الحديث التالى: مر المسيح بقوم شتموه فقال خيراً ومر بآخرين شتموه فقال خيراً، فقال رجل من الحواريين: كلما زادوك زدت خيراً كأنك تغريهم بنفسك؟ فقال: كل إنسان يعطى مما عنده.

لم يقتصر الأمر على المسيح الزاهد عراب الزهاد ولا على المسيح الأخلاقى.. بل تأثر الإنجيل فى القرن الثالث للهجرة بما يمكن وصفه بالمزاج الشيعى.. ففى عدد من التيارات الشيعية الأولى استخدمت المقارنة بالمسيح كبراهين لحجج كلامية، بعض الفرق استخدمت فكرة أن المسيح لم يمت، بل رفعه الله إليه لإثبات أن بعض أئمتهم ليسوا موتى، بل أحياء لا يمكن رؤيتهم، ودافعت فرق أخرى عن إمكانية تحقيق الإمام الطفل لدرجة الكمال فى العلم عبر مقارنة ذلك بالمسيح القرآنى الذى يتكلم فى المهد.. وقد أدى مقتل سيدنا الحسين فى الفكر الشيعى المتأخر إلى إنتاج عدد من الأخبار تقارن الحسين بالمسيح.. بل وصل الأمر إلى اتهام بعض الفرق الشيعية كالإسماعيلية باعتناق أفكار مسيحية كالثالوث الأقدس!

ثم يصل المسيح إلى الصوفية.. ففى إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى تبلغ مكانة المسيح درجة عالية من الشفافية كنبى القلب بامتياز، ورغم أن المسيح لم يكن الشخصية الوحيدة المهمة عند أهل التصوف فإننا نجد فى أقوال المسيح عند الغزالى العمق والخيال والنظم البارع ويستشهد بها الغزالى دوماً فى المكان المناسب لخلق ربط داخلى متين بين الحجج الأخلاقية الرئيسية وبين الأحاديث التى لا يحصرها عدد تقريباً، وقد رشح ذلك كله المسيح لكونه النبى الأكثر ملائمة من غيره من الأنبياء للعب دور النموذج للأخلاق.

لم يحدث هذا بالصدفة.. فقد لعب صراع المسيح مع الشيطان دوراً بارزاً فى الأناجيل وكان عاملاً مكوناً للتجربة الروحانية المسيحية الأولى ورشح من هناك كمزاج إلى التصوف الإسلامى، ويجد الغزالى من المناسب ليس فقط نقل عدد كبير من قصص وأقوال المسيح، بل أيضاً التعليق عليها مثل: «روى أن عيسى عليه السلام توسد يوماً حجراً فمر به إبليس فقال: يا عيسى رغبت فى الدنيا» ويضيف الغزالى من عنده: «وعلى الحقيقة فمن يملك حجراً يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه، فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسده فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته إلى النوم، هذا فى حجر فكيف بمن يملك المخاد الوثيرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى».

إن الإنجيل الإسلامى يعرف المسيح باستمرار كنبى مسلم وللتأكيد على ذلك نجده يتلو آيات من القرآن ويفسرها ويصلى صلاة المسلمين ويحج إلى مكة، وتشدد بعض الأخبار الواردة عنه ليس على طبيعته البشرية فقط، بل أيضاً على عجزه وضعفه، وتشدد الأحاديث النبوية على العلاقة المميزة والخاصة بين النبى والمسيح أهمها أنه ليس هناك نبى بينهما وفى إحدى الروايات أن النبى ﷺ دخل مكة فاتحاً وأمر بكسر الأصنام والصور لكنه رأى أيقونة للمسيح وأمه داخل الكعبة فغطاها بعباءته أو بيده وأمر بمحو كافة الصور الأخرى إلا صورة المسيح وأمه، وفى ذلك تظهر مكانة المسيح وأمه لدى الرسول.

قد تكون لدى البعض اعتراضات على رؤية طريف الخالدى للمسيح الإسلامى.. وهى الرؤية التى عرضت ملخصاً حاولت أن يكون وافياً لها.. لكن ما أراد أن يؤكده أن المسيحية والإسلام فى حاجة إلى التخاطب والتكامل، وقد يقال إن المسيح الإسلامى فى الإنجيل الإسلامى ليس إلا شخصية مصطنعة.. كما قد نصل فى يوم من الأيام إلى معرفة شاملة للأوساط التى صنعته والسبب من وراء ذلك، لكنه يبقى مع ذلك شخصية دينية شامخة بحد ذاته ويرتقى بسهولة وبشكل طبيعى فوق ديانتين الأولى أنشأته والأخرى تبنته، وفى خضم التوتر بين المسيحية والإسلام الذى يشهده هذا العصر فى العالم كله فإن الواجب أن نستعيد إلى الذهن فترة طويلة من الزمن وتراثاً أدبياً عريقاً شهد انفتاح المسيحية والإسلام على بعضهما البعض واعتماد كل منهما على شهادة الآخر.

وأعتقد أن هذا يكفى.. الآن على الأقل.

فى حب ستنا مريم العذراء !

في حب ستنا مريم العذراء!

عندما تضيق الدنيا بفقراء هذا الوطن.. وهى كثيرا ما تضيق.. تجدهم يمدون أبصارهم إلى الله، ويحلمون بتجلى العذراء، وعندما تعجزهم الحيل وتتكاثر عليهم الهموم وتهزمهم الكروب ويرهقهم العطش للحظة سعادة، تجدهم يشدون الرحال إلى أولياء الله الصالحين، يتبركون بأهل البيت لا يفرقون بين السيدة زينب والسيدة مريم، يقولون بأصوات ترعشها اللهفة: مدد يا ست يا طاهرة، وقبل أن يبتلعوا ريقهم يصرخون.. بركاتك يا عدرا.

لقد اختارت السماء للسيدة مريم ولطفلها الطاهر أرض مصر سكنا وأمنا، همست فى أذن يوسف النجار أن يحمل العذراء وابنها يسوع ويهرب بهما من الملك الرومانى هيرودوس ورجاله الذين كانوا يريدون رقبة الطفل المبارك، حملوا متاعهم القليل وولوا وجوههم شطر مصر التى بارك الرب شعبها.. ومن يومها والعذراء هى رمز الطهارة وتميمة البراءة، أيقونة الخصب وطوق النجاة، سحابة الرحمة ومأوى البائسين الذين أعجزتهم الحاجة وأعيتهم الأيام.

لم تتغير نظرة المصريين للسيدة الطاهرة، حتى عندما دخلها عمرو بن العاص.. ودخل المصريون الاسلام لم يتخلوا عن حبهم وعشقهم واهتمامهم بالسيدة مريم، عبروا بها بين العقيدتين واعتبروها ملكا خاصا لهم، وظلوا يرددون قصتها بروحانيات سورتها التى تحتل مكاناً عاليا بين سور القرآن الكريم، يعيشون معها لحظات القلق عندما يتمثل لها الملاك بشرا سويا.. ويشعرون بنشوة روحية عندما ينفخ فيها الله من روحه، تهزهم لحظة ولادتها التى ألم بها أثناءها الضعف والخوف من مجهول لا تعرف له بداية ولا نهاية.. ثم يجدون أنفسهم وجها لوجه أمام الواقعة الصدمة.. عندما وضعت المسيح على يديها وقدمته لقومها على أنه ابنها رغم أنها العذراء التى لم تتزوج ولم يمسسها بشر.

لا تجد صور مريم العذراء فى بيوت المسيحيين وحدهم.. ولا يضع شباب المسيحيين دون غيرهم صورهم بين أوراقهم الشخصية.. فشباب المسلمين يفعلون ذلك أيضا.. بحب شديد وتقديس أشد.. أعرف شبابا مسلمين يجمعون الصور المختلفة لمريم العذراء.. وعندما يكتبون خواطرهم لا يترددون فى أن يتمنوا أن يرتبطوا بفتاة فى صفاء وجهها ونقاء قلبها وقوة عزيمتها.. فى تحدى أقسى اتهام يمكن أن تواجهه امرأة فى التاريخ.

لقد رأيت فتيات مسلمات يرتدين سلاسل علقن فيها صورة مريم العذراء، وفى كل مرة كنت اسألهن عن سبب ذلك.. وكانت الإجابة واحدة.. بنحبها قوى.. لا يذكرن سببا محددا لهذا الحب.. لكنها حالة وجدانية يعشنها بكل تفاصيلها يحملن العذراء وهن يصلين.. وهن يدعين الله طلبا للستر والبركة.. وهن يقرأن القرآن، فقد علمن أن حبهن للعذراء.. جزء من إيمانهن بالإسلام.. الذى أخذ مريم من جو الأساطير.. وجعلها امرأة عادية نعم.. لكنها سيدة نساء العالمين.

هذا الإطار البشرى الراقى الذى وضعت فيه العذراء.. لم يمنعنا أن نعتقد فى العذراء ونسعى خلف سرها المكنون، فالرقية الشرعية التى أخذها المسلمون عن الرسول ﷺ، تضع جداتنا بين ألفاظها إلى جوار الملائكة الكرام والأنبياء الأخيار وآل البيت الطيبين.. اسم السيدة مريم العذراء، فهن يطردن باسمها الشرور عن الصغار، ويحاربن شياطين الجن ببركتها، ويطلبن لهم الصحة والعافية بطهارتها وروحها الشفافة.

كنت أعتقد حتى وقت قريب أن مريم العذراء ملكنا وحدنا.. ألسنا نحبها ونتغنى بمعجزتها، ألسنا نراها المثل والرمز.. ألسنا نعتبرها الحلم الذى ننتظره حتى يتحقق وحتى إذا تأخر فإننا نلتمس له العذر.. ألسنا نصلى باسمها ونترنم بقوتها.. ألسنا نترجى تجليها فى أزماتنا.. لقد ذهب إليها جمال عبد الناصر عام ١٩٦٨ بعد هزيمته وانكساره لينتظر نورها وهو يتنزل على كنيسة الزيتون، علها تمده بقوة خفية تنقذه من المستنقع الذى وجد نفسه فيه.. وفى بداية العام ٢٠٠٠ ذهب إليها ملايين المصريين عندما عرفوا أنها تتجلى على كنيستها بجبل الطير فى أسيوط.

ذهب إليها الجميع طامعين وطامحين.. بعد أن شعروا بالعجز، وبعد أن تعرت الحكومة أمامهم، فقدوا الأمل فى أى إصلاح أو انقاذ، فراحوا يتلمسون العون من أنوارها.. حتى الذين أنكروا تجليها باعتباره خرافة.. كانوا يتمنون فى داخلهم أن يكون ما يحدث حقيقيا، فحتى الذين لا يؤمنون بالغيبيات والمعجزات تحيط بهم لحظات يكونون فى حاجة ملحة لمن يأخذ بأيديهم.. ويفرج عنهم كروبهم، فجميعنا حتى ولو كنا ماديين.. نظل حتى النهاية فى انتظار معجزة.

لم تطل معرفتى بأن السيدة مريم لنا وحدنا.. فقد عرفت أنها حلم كل شعوب الأرض،

ولذلك تختلف صورتها وملامحها.. الأفارقة يرونها امرأة إفريقية سوداء تحمل ملامح زنجية، والآسيويون وضعوا صورتها بملامح نسائهم.. والأوروبيون رأوها سيدة مجتمع ملامحها ارستقراطية.. ونحن وضعنا فى صورتها كل سمات البراءة وأحلام الطفولة التى بلا حدود.. لكل مريمه إذن.. لأن لكل منا حاجته وعجزه وضعفه وحلمه الذى يحتاج أن يتحقق.

لا غرابة فى ذلك فكل منا يرسم من يحبه بطريقته، فعندما كنت فى الجامعة ألح على سؤال كنت أراه طبيعيا ويراه من حولى متجاوزا.. كان السؤال هو.. كيف يرى الزنجى المسيح؟ هل يراه أبيض مثلا.. وكانت الإجابة التلقائية هى لا بالطبع! فالمسيح عند الزنجى الأسود لابد أن يكون أسوداً.. وهذا طبيعى للغاية.. فاللون الأبيض عند الزنجى رمز الشر، هو لون الرجل الذى يضطهده ويعذبه ويصادر حقه وليس معقولا أن يكون لون المسيح هو لون الشر.. كل منا يرى مسيحه كما يريد ويحب، وهكذا فعلنا مع السيدة مريم، فهى مرة أفريقية.. ومرة أسيوية ومرة أوروبية، لكنها تظل فى النهاية الحلم والأمل.

لكن أى حلم وأى أمل.. إن الأدبيات الدينية إسلامية ومسيحية تؤكد عودة المسيح المادية، تنتظره حتى يقتل المسيخ الدجال.. وينهى عصر الفتن ويقضى على الشرور.. ويعيد السعادة للأرض، فيملؤها عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.. وهو تصور قاصر لمهمة المسيح ﵇ .. فالمسلمون ينتظرونه على شريعة سيدنا محمد ﷺ.. والمسيحيون ينتظرونه على شريعته هو الذى أرسى قواعدها ورسخ مثالياتها.. فعودة المسيح لن تكون أبدا مادية. لن تكون بجسد ينزل فى القدس ليحررها!

عودة المسيح الحقيقة ستكون بأخلاقه ومبادئه التى خرجت من مشكاة الإله الواحد الذى لا شريك له.. فدعونا ننتظره.. لقد نزل المسيح الأرض.. عاش بين أهلها.. هداهم إلى الله.. أخذ بأيديهم من الظلمات إلى النور، وانتهت مهمته عند ذلك، ولن يعود مرة أخرى ليكمل ما بدأه، فلدينا مبادئه.. فإذا كنا نريده.. فما علينا إلا أن نعيد تعاليمه التى لا تختلف عن الإسلام فى شىء إلى الأرض.. وأعتقد أن هذه معجزته التى لم يدركها أحد لا من المسلمين ولا من المسيحيين.. عودة تعاليم المسيح ستعيد إلينا الحياة التى نحرص عليها ونمسك بتلابيبها دون حتى أن نفهمها.

آيات العنف ......
فى الإنجيل والقرآن !

آيات العنف فى الإنجيل والقرآن!

ستظل أمريكا- وربما لفترة طويلة قادمة- تحاول أن تفهم ما حدث لها فى ١١ سبتمبر، ولأن الإسلام كان المتهم الأول والأساسى فى هز أركان المجتمع الأمريكى الذى اقتربت قواعده من الانهيار.. فإن البحث فى قواعده وتفسير أوامره ونواهيه لن ينتهى.

كينيث أل وودوارد الكاتب الأمريكى حاول أن يقدم رؤية غربية لفهم الإسلام، مجلة نيوزويك بطبعتيها الإنجليزية والعربية أبرزت الموضوع على غلافها، ليس لأهميته كموضوع يجذب القارىء العربى والمسلم فقط، ولكنه موضوع يمثل مفصلاً كبيراً وأساسياً فى الصراع بين الغرب والإسلام.

البداية قد تكون صادمة ويرفضها المسلم العادى الذى لا يريد أن يقلقه أحد أو يؤرقه أو يهز علاقته برسوله ودينه وقرآنه، فالحديث عن النبى محمد ﷺ يأتى هكذا «كان رجلاً يعمل تاجراً فى مكة.. يعتكف بانتظام فى الجبال منقطعاً للصوم والصلاة. وفى عامه الـ ٤٠ وعندما كان يتعبد فى غار حراء تحدث إليه الملك جبريل قائلاً: «محمد أنت رسول الله» وأمره بأن يقرأ، رد محمد محتجاً بأنه لا يستطيع القراءة، فهو لم يكن موهوباً كالشعراء القبليين التقليديين فى الجزيرة العربية، أمره جبريل أن يقرأ مرة أخرى، ثم انسابت من بين شفتيه الآيات الأولى لما أصبح بعد ذلك القرآن الكريم، الذى يعتبر كلمة الله الخالدة عند نحو ١٠٣ بلايين مسلم فى شتى أنحاء العالم.

رؤية كينيث للإسلام لم تكن لتكتمل إلا بوضع رؤيته للإنجيل إلى جوارها آيات الوفاق وآيات الخلاف، فالقرآن عنده كالإنجيل وحى إلهى، وبينما استغرق الإنجيل عدة قرون لتوحيد القبائل العبرية وجعلها أمة عبرانية واحدة. فإن القرآن وخلال ١٠٠ عام فقط. أوجد حضارة كاملة امتدت فى ذروتها من شمال أفريقيا وجنوب أوروبا فى الغرب إلى حدود الهند المعاصرة والصين فى الشرق.

الحيوية تدب فى عروق رؤية الكاتب الأمريكى عندما يقرر من وجهة نظره بالطبع أن القرآن يحتوى على بعض الآيات التى يفهم منها الدعوة إلى العنف، وهى موزعة فى سوره المختلفة،

والإسلام يعنى السلام كما يشدد المسلمون على ذلك، غير أن السلام الذى يعد به الله الناس والمجتمعات، يتحقق فقط لأولئك الذين يتبعون الصراط المستقيم، لكن عندما يواجه المسلمون أية معارضة، وخاصة المسلحة منها، فإن القرآن ينصح بالقتال. ورغم أن الآيات التى تدعو إلى الجهاد والقتال قليلة فى القرآن لكنها ألهبت مشاعر المتعصبين المسلمين فى كل عهد وعصر.

ولا يختلف الإنجيل كثيراً عن القرآن، فهو يحتوى أيضاً على قصص العنف باسم الرب، إن رب الكتب المقدسة عنيف وتحديداً فى مساندته المحاربين الإسرائيليين فهو يغرق أعداءهم فى البحر.

الفرق بين الإنجيل والقرآن، أن قصص الإنجيل التى تؤيد عنف الرب، ليس لديها قوة الأمر الإلهى، كما أنها لا تعتبر كلمات الله الخالدة، كما يعتقد المسلمون بالنسبة إلى القرآن، ولذلك فإنه من الطبيعى عند كينيث أن الفدائيين الإسرائيليين لا يستشهدون بنبيهم اليهودى يوشع حين يخوضون معاركهم غير أن المتمردين المسلمين بوسعهم بسهولة الاستشهاد بقوة نبيهم الذى كان قائداً عسكرياً.

الرؤية الأمريكية الجديدة تسحبنا إلى أعماق جديدة، فالقرآن والإنجيل ككتابين مقدسين لا يمكن أن يكون أكثر اختلافاً، ففى كل آية من القرآن يمكن أن نجد أمراً إلهياً أو قصة عن الأنبياء الأوائل أو وصفاً ليوم القيامة، ولأن السور التى أنزلت على محمد كانت تأتى مسموعة، وتقرأ وتحفظ من أتباعه، فإن القرآن حافل بالتكرار، ليس هناك أى من سوره الـ ١١٤ تركز على فكرة واحدة، وكل سورة من سوره تحمل عنواناً من كلمة واحدة، وحين كتبت السور التى أوحى بها لمحمد وجمعت بعد وفاته فإنه تم ترتيبها تقريباً من الأطول إلى الأقصر فهذه هى أقوال الله على أية حال وكلماته خالدة.

وكالإنجيل فإن القرآن يؤكد سلطاته الإلهية، ولكنه بينما يعتبر اليهود والمسيحيون النص المقدس كلمات لمؤلفين بشر ملهمين إلهياً، فإن المسلمين يعتبرون القرآن كلمة الله الخالدة، وعليه فإن محمداً كان بمنزلة ناقل لكلمات الله، ولم يكن مؤلف هذه الكلمات.

يستند وودوارد إلى رؤى متحدة أستاذ الدراسات الشرق أوسطية فى جامعة هارفارد ليصل إلى أن القرآن ليس مجرد إنجيل المسلمين، بل إنه مثل التوراة الشفوية التى أوحى الله بها أولاً لموسى شفوياً، ثم تم تدوينها بعد ذلك، وبلغة الإنجيل، فإن القرآن يوازى المسيح نفسه،

على أنه الكلمة الخالدة للأب، أو بمعنى أدق فإذا كان المسيح هو الكلمة التى صارت جسداً، فإن القرآن هو الكلمة التى صارت كتاباً.

العلاقة بين الكتب السماوية الثلاثة- التوراة تدخل هنا فى المقارنة- تمثل هاجساً فى الغرب، وتفرض سؤالاً هو.. لماذا يعترف القرآن باليهود والنصارى على أنهم «أهل الكتاب»؟ وعلى هذا الأساس يميزهم عن غير المؤمنين؟ لن نجد إجابة عن هذا السؤال فى مجلة «نيوزويك» ولكننا سنجد تقريراً يؤكد أن الكتاب هنا ليس الإنجيل، بل هو نص سماوى كتبه والقرآن هو نسخته المضبوطة الوحيدة، فالله أنزل برحمته محتويات هذا الكتاب عبر كلمات الأنبياء والرسل الأقدمين، والأشخاص غير معروفين، وهو ما يعنى فى التفسير الغربى أن القرآن ليس النسخة الجديدة لما جاء فى الإنجيل.. بل هو الوحى الذى صحح الأخطاء فى النصين «الإنجيل والتوارة».

وحتى يؤيد كينيث رؤيته تلك فهو يسرب بين سطور رؤيته ما يحاول أن يوجد به علاقة بين الرسول وبين الإنجيل قبل أن ينزل عليه الوحى يقول: إن قدر ما كان يعرفه محمد عن الإنجيل وأنبيائه، ومن أين حصل على معلوماته عن هذا- هو مثار نقاش أكاديمى بحت، القرآن نفسه يقول إن محمدا التقى قبيلة يهودية فى المدينة، بل إنه أمر أتباعه بالتوجه إلى بيت المقدس فى الصلاة إلى أن رفضه اليهود كنبى.

بعض العلماء يدعون أن محمدا كان له أقرباء مسيحيون بالتصاهر، ويعتقدون أنه تعلم صيامه وغير ذلك من التقاليد الزهدية من خلال مراقبته نساك الصحراء. هذه الرؤية طرحها خليل عبد الكريم فى كتابه «فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين» الذى أثار على مؤلفه عواصف الغبار، ويبدو أن الكاتب الأمريكى عرف جيدا رد فعل الشارع على ما قاله خليل عبد الكريم، فهو يعرف أن المسلمين يرفضون أى جهد بحثى للربط بين محتويات القرآن وتعاملات النبى البشرية، وهم يؤكدون على الإعتقاد بأن محمدا كان أميا، لأن فى هذا دليلا على أن القرآن هو وحى إلهى بحت، ويكفيهم فى صباحهم ومسائهم أن يؤكدوا أن الإسلام هو الدين المثالى والقرآن هو النص المثالى.

نأتى إلى النقطة الأهم والتى أعتقد أن الكاتب الأمريكى ما قدم رؤيته إلا من أجل أن يصل إليها، ففى صراعات الإسلام الحالية مع الغرب، فإن المشكلة الرئيسية ليست فى

الكتاب المقدس للمسلمين، بل فى كيفية تفسيره، فالمسلمون فى كل مكان يعانون أزمة مع السلطة الحاكمة فى بلادهم، فكما يظهر فى تاريخهم، فإن المسلمين لم يتمكنوا من حل التوترات بين السلطة الدينية والحكومات الإسلامية.

فحين كان الإسلام حضارة عظيمة فى القرون الوسطى، قرر العلماء الإسلاميون كيفية تطبيق كلمة الله على الظروف التاريخية المتغيرة، وأدت فتاوى هؤلاء إلى حل الخلافات، غير أنه فى الدول الإسلامية الحالية فإن الأصوات الدينية ذات السلطة لا تحظى باحترام كبير، ولذلك فكل مسلم لدية قضية أو برنامج يشعر الآن بأنه حر فى استخدام القرآن لتدعيم معتقداته، ولأن أسامة بن لادن أوجع أمريكا بعنف، فإن الكاتب الأمريكى يأخذ منه مثالا واضحا وكبيرا على استخدام المسلمين للإسلام على مزاجهم الخاص.

ولأن فى نفس الكاتب الأمريكى مرضا، فمن الطبيعى أن يقر بأن هناك أصواتا فى أنحاء مختلفة من الشرق الأوسط نددت بأعمال قتل المدنيين الإرهابية، واعتبروا العمليات الفدائية مخالفة لتعاليم القرآن، وبالعودة إلى نص القرآن نفسه، فإن علماء دين آخرين وجدوا فى القرآن آيات تظهر أن الله خلق شعوبا وثقافات مختلفة لهدف وبالتالى فإنه قصد أن يكون العالم تعدديا فى دياناته أيضا.

وعندما يشير كينيث إلى أن العلماء المسلمين الموجودين فى أمريكا الآن يعتقدون أن القرآن مفتوح على التفاسير المتعددة وأنه يملك دفاعا عن حقوق المرأة فإنه لا ينسى أن هؤلاء العلماء ولدوا فى أمريكا وعرفوا عن قرب فوائد الديمقراطية وحرية التعبير ووثيقة الحقوق، فحتى الفهم السليم للإسلام نسبه الكاتب الأمريكى إلى أمريكا.

قد تنزعج من رؤية الكاتب الأمريكى رتعتبرها اعتداء على الإسلام لكنها فى النهاية مجرد رؤية قدمها كاتب أمريكى فى مجلة سيارة لا تجب مصادرتها ولكن يجب النقاش حولها، فكل بحث يخرج من أمريكا الآن يحاول أن يلصق كل نقيصة بالإسلام وهذا مفهوم الدوافع فلا يجب أن نتعامل بعدوانية.. ولكن يجب أن تسبقنا الأفكار فى الحوار.. فهل يحدث ذلك؟

توكيلات الأمر بالمعروف

توكيلات الأمـــر بالمعروف

لا يوجد فى مصر أكثر من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر..

ورغم ذلك فلا يمر يوم دون حادثة فساد وكلما تعاظم الفساد زادت المواعظ مرة باسم الدين..ومرة باسم الأخلاق.. ومرة باسم العادات والتقاليد ومرة- وهذه عندنا فقط- باسم سمعة مصر، دون أن يحدد من يتحدثون عن هذه السمعة ملامحها وصفاتها وحدودها.. وهل الفساد هو الذى يسىء إلى سمعة مصر.. أم من يهاجمه ويكشفه ويفضحه هو الذى يسىء إليها..

على كل.. لم تخرج عندنا بعد جمعية منظمة وداعية ترافع لواء النهى عن المنكر كما حدث فى أمريكا وأوروبا، ففى عام ١٨٠١ فزع أنصار الرقابة فى بريطانيا من انهيار جمعية البيان الداعية للفضيلة والإصلاح، ولهذا نشروا اقتراحا بإنشاء جمعية لـ«النهى عن المنكر» وتشجيع الدين والحض على الفضيلة، وكان الهدف من وراء هذه الجمعية التى أطلقت على نفسها جمعية النهى عن المنكر هو تحرى سلامة الموازين ووقاية الحيوان من قسوة الإنسان ومعاقبة غواية النساء والأطفال باتباع الرذيلة، ورفع الدعاوى القضائية ضد المنحلين.

تكونت هذه الجمعية من ثلاث لجان فرعية تخصصت الأولى فى ملاحقة المطبوعات المجدفة والبذيئة، والثانية فى التأكد من مراعاة إغلاق المحلات وعدم العمل يوم الأحد، وتخصصت الثالثة فى الإشراف على طرق الطبقة العالية فى التسلية والترفيه عن نفسها.

ركزت هذه الجمعية على تطهير حياة الطبقة العاملة من الشوائب والحيلولة دون قراءة المطبوعات البذيئة، وبذلت جهدا لقمع الكلاسيكيات الأدبية البذيئة وكانت تشك حتى فى موظفيها، الأمر الذى جعلها تصدر تعليماتها إلى إداراتها المختلفة لمراقبة الإنحراف.

لم تكتسب الجمعية شعبية بين الفقراء والأغنياء على حد سواء، لكنها وجدت تأييداً من جانب الطبقة المتوسطة الصاعدة وقتها، وفى عام ١٨٦٨ نشرت الجمعية بياناً مفصلاً عن نشاطها. فقد رفعت منذ ١٨٤٥ مائة وتسعاً وخمسين دعوى قضائية، نجحت فى الحصول على أحكام لصالحها فى مائة وأربع وخمسين قضية منها، ونجحت أيضاً فى إغلاق ٣٧ محلاً وتدمير ١٢٩,٦٨١ مطبوعاً بذيئاً و ١٦,٢٢٠ نبذة وخمسة أطنان من الخطايا المنشورة،

و١٦٠٠٥ ورقات من الأغانى البذيئة و ٥٥٠٣ كروت و٨٤٤ محفورة معدنية.

وفى عام ١٨٧٠ اعترفت الجمعية بعجزها عن تمويل ٢٨ دعوى قضائية ولكنها استمرت فى الوجود حتى عام ١٨٨٠، وهو العام الذى توقفت فيه عن نشاطها،ولكن الجمعية عادت إلى الظهور وبدأت شوكتها تقوى من جديد عام ١٨٨٦ تحت اسم جديد هو جمعية اليقظة القومية.

ومن بريطانيا إلى أمريكا، حيث تأسست جمعية النهى عن المنكر بها فى نيويورك عام ١٨٧٣ وتولى أمانتها الزعيم المناضل المعروف بممارسة الرذيلة «أنتونى كومستوك» وخرجت هذه الجمعية من لجنة كان كومستوك قد أنشأها بهدف محاربة الرذيلة وهى لجنة عملت تحت زعامة جماعة الشبان المسيحيين، وبمقتضى إصدار قانون خاص،منح المشرع الأمريكى هذه الجمعية الحق فى احتكار التصدى للرذيلة وحق التفتيش والضبطية القضائية والقبض على المتهمين، كما أن الجمعية تمتعت بالحق فى الإستفادة من نصف مبالغ الغرامات الموقعة على المتهمين بممارسة الرذيلة، وظل كومستوك يتولى إدارة شئون الجمعية، وقد خلفه بعد وفاته عام ١٩١٥ جون.س.سمر، وفى عام ١٩٢٤ صرح الرئيس الجديد «سمر» أن الجمعية صادرت فى المتوسط كل عام خمسة وستين ألف نسخة وفى الثلاثينيات من القرن العشرين سخرت الجمعية جهودها لرفع قضية ضد سامويل روث، وبالتدريج أخذ كومستوك يفقد نفوده وسيطرته على الجمعية، فبدأ نجمها فى الأفول، وبنشوب الحرب العالمية الثانية كانت الجمعية قد اندثرت.

وفى عام ١٩٧٩ أنشأ القس «جيرى فالويل» جماعة الأغلبية الأخلاقية فى أمريكا، وقد وصفت هذه الجماعة نفسها بأنها حركة سياسية تكرس جهودها لإقناع الأمريكان المحافظين بأن واجبهم المقدس يقتضى منهم التضافر لإنتخاب المرشحين الذين يميلون إلى المحافظة الفكرية والأخلاقية، وقد سخر مؤسس هذه الحركة الراديو والتليفزيون لتوسيع رقعة نشاطه مؤكداً أن هذه الحركة نشأت بطريقة تلقائية فى صفوف اليمين الأمريكى، كرد فعل مضاد للاتجاهات الإباحية التى سادت المجتمع الأمريكى فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وأكد مؤسس الحركة أن جماعته تأسست للوقوف فى وجه الدعوة إلى الإجهاض والشذوذ الجنسى والأدب المكشوف والحركة النسائية، فضلاً عن أن هذه الحركة تناهض الشيوعية بشكل عدوانى وتؤيد الاستعداد للحرب النووية.

وفى انجلترا أيضاً أنشئت محاكم الفحش بعد الغزو النورماندى لها مباشرة، واستمرت هذه المحاكم حتى القرن السابع عشر، وقامت الكنيسة بإدارة هذه المحاكم التى تولت محاسبة المهرطقين والمنحرفين عن الدين، فضلاً عن محاسبة المنساقين وراء شهوات الجسد مثل الزنى واللواط والسحاق والجنس المحرم بين ذوى القربى وإدارة بيوت الدعارة وأحياناً التجارة فى الرقيق الأبيض، ولكن وجهاء المجتمع بحكم مكانتهم ونفوذهم لم يخضعوا لسلطان محاكم الفحش التى اقتصر عملها على الطبقات الدنيا من المجتمع، وفرضت هذه المحاكم على جميع المتهمين دفع أتعاب التقاضى ومثولهم أمامها فى ثياب بيضاء كدليل على التوبة، وأصدرت هذه المحاكم أحكاماً تهدف إلى الحط من شأن المتهمين من الناحية الإجتماعية، وتعين على المتهم أن يشهد على نفسه ويقر بآثامه وإلا تعرض لتهمة أخرى هى الشهادة الزور، وقد استمرت المحاكم فى العمل حتى عام ١٦٦٠.

مازلنا فى إنجلترا.. حيث تقابلنا الجمعية الدستورية وهى جماعة ضغط للتصدى للبذاءة، أنشئت عام ١٨٢٠ تحت رعاية دوق ولنجتون، وتولى رئاستها د. جون ستودارت محرر بجريدة «نيوتايمز» واستهدفت العمل الهادىء السرى نيابة عن الحكومة فى رفع قضايا البذاءة على المستوى الشخصى ضد الهجاء والمعارضة الهازئة والكاريكاتور والمطبوعات المماثلة التى تعترض عليها السلطات دون أن تجرؤ على اتخاذ الإجراءات القانونية حيالها جهاراً وفى وضح النهار، بسبب خوفها مما قد تسيره من عواقب سياسية.

وفى عام ١٩٦٩ تم تأسيس منظمة صليبية من أجل التهذيب، بهدف التصدى للإنحلال السائد فى المجتمع الأمريكى الحديث وشن حملة شعواء ضد الأدب المكشوف والإجهاض وتدريس الجنس بالمدارس وجاء تكوين هذه المنظمة نتيجة رغبة مليون أمريكى وقعوا على التماس رفعوه إلى الكونجرس.

أمريكا ظلت تشهد ظهور مثل هذه الجماعات والجمعيات.. ففى عام ١٩٧٥ ظهرت جماعة حملت اسم النسر، وأعلنت عن نفسها منذ البداية أنها سوف تتصدى لأى هجوم على نظام الأسرة والله والدين ومحاولة استغلال الأطفال والإساءة إلى سياسة وزارة الدفاع الأمريكية وخرجت عن هذه الجمعية لجنة فرعية عرفت باسم لجنة رقابة الكتب المدرسية، وهدفت إلى أن يكون لها رأى فى إعداد الكتب المقررة فى المدارس الأمريكية وقد درجت جمعية النسر على إصدار تقرير شهرى يتضمن نتائج أعمالها.

عندما تسترجع هذه المعلومات عن الجمعيات التى خرجت للنور فى أمريكا وبريطانيا، والتى وردت ضمن موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم التى أعدها وعربها د. رمسيس عوض.. هذه المعلومات ستضعك أمام حقيقة لا يجب أن تتجاهلها وهى أنها خرجت لتحقيق أهداف معينة.. وعلى رأسها محاربة كل ألوان الفساد المالى والجنسى.. لا مكان لغموض.. ولا مساحة للبس.. وكل جمعية تأخذ وقتها وتنتهى طبقاً للظروف والإحتياجات العامة.. وكذلك الحالة النفسية والإجتماعية للمواطنين.

عندنا فى مصر.. ولأن كل شيء مختلف.. فالنهى عن المنكر.. والأمر بالمعروف يختلفان عما يحدث فى كل بلاد العالم.. فليس عندنا جمعيات تضع على قائمة أولوياتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. وذلك لسبب بسيط أنه عندنا أكثر من ٧٠ مليون آمر بالمعروف وناه عن المنكر فى مصر.. كلنا نتحول فى لحظة إلى وعاظ.. وملاك للحقيقة المطلقة.. نأمر وننهى وندافع بحماس منقطع النظير.. ولا مانع أن ندافع بنفس الدرجة من الحماس عن الحق والباطل!

ولن أكون مبالغاً إذا قلت أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يتم فى مصر لوجه الله مطلقاً.. فلابد أن تكون هناك مصلحة.. وإذا أردتم أمثلة على ذلك.. فلا مانع ففى يونيو ١٩٩٥ صدر حكم محكمة استئناف القاهرة للأحوال الشخصية الذى يقضى بالتفريق بين الدكتور «نصر حامد أبو زيد» وزوجته ابتهال يونس، بعد الحكم بارتداده بناء على مؤلفاته وأهمها تأويل النص، وعلى الرغم من وقف تنفيذ الحكم فى ديسمبر ١٩٩٦، فإنه لم يتم إلغاؤه فى حين هاجر الدكتور «نصر أبو زيد» مع زوجته إلى هولندا هرباً من مصير القتل الذى يهدده باعتباره مرتداً، وفقاً لتقرير مجمع البحوث الإسلامية.

وعندما تتأمل قضية نصر بهدوء تكتشف أن هذه الشوشرة التى نزلت على رأسه، لم تكن بسبب خلاف فكرى، ولم تكن غيرة على الإسلام. كما حاول البعض أن يفهمنا، ولكن كل الحكاية أن د. نصر هاجم د. عبد الصبور شاهين واتهمه بالمتاجرة فى الدين بعمله مستشاراً فى إحدى شركات توظيف الأموال.. وعندما وصلت أبحاث د. نصر إلى يد د. عبد الصبور ليقول كلمته فيها ليحصل على الترقية.. منع د. عبد الصبور الترقية ولم يكتف بذلك بل شهّر بنصر.وكانت النتيجة تكفيره وإجباره على الهجرة من مصر كلها.. لا بسبب الخوف على الإسلام.. ولكنها الحسابات اللعينة.

ولم يقم شاب أمي يعمل بائعاً للسمك بقتل د. فرج فودة.. لأنه فقط قام بعمل مناظرة فى معرض الكتاب مع رموز الفكر الإسلامى، فقد قتل فرج فوده بعد حملات تشويه تعرض لها من بعض الكتاب الإسلاميين وصلت إلى ذروتها بتكفيره.. ولم تصل المعركة ذورتها بين تيار الإسلام السياسى وفرج فودة إلا بعد أن ضرب فى شرعيتهم وبدلاً من اتباع القاعدة الإسلامية.. وهى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».. اتبعوا معه قاعدة «اقتل وتوكل على الله.. اقتل يرحمك الله».

ولأننا عشوائيون أكثر مما ينبغى.. فمن الطبيعى أن تظهر على السطح نماذج مثل المحامى الذى يريد أن يجرجر كل مفكر أو كاتب أو كاتبة يقول رأياً إلى المحكمة.. يطعن فى إسلامهم ويتهمهم فى عقيدتهم إن ما يفعله هذا المحامى من رفع القضايا على بعض المفكرين– فعل ذلك مع د. نوال السعداوى– وتعمده الحديث إلى وسائل الإعلام عن إنجازاته تلك يؤكد لدى اعتقاداً أنه وغيره لا يفعلون ذلك إلا للشهرة وجذب الأضواء، لقد قابلته مرة عابرة، ووجهت له سؤالاً عابراً أيضاً: لماذا رفع دعوى قضائية ضد د. نوال السعدواوى وما الذى يريده منا! وهل هو مقتنع تماماً بأنها خارجة عن الدين حتى يعاديها فى المحاكم؟ كان صريحاً جريئاً كعادته.. فهو يعترف بأنه لا يوجد أساتذة يجلس إليهم ليتعلم منهم.. وبدلاً من أن يقضى وقته فى حديقة النقابة بلا عمل جاد.. فلماذا لا يسلى وقته بمثل هذه القضايا.. التى لا يكسبها غالباً.. لكنه فى النهاية يحقق من ورائها شهرة وسمعة من المؤكد أنها تفيده فى عمله.

وكما يفعل هذا المحامى يعمل د. يوسف البدرى وهو الشيخ الذى أخذ أكبر من حجمه بمراحل.. فهو يبادر برفع الدعاوى القضائية ضد الأعمال السينمائية والروايات والكتب.. ويتهم أصحابها بأنهم يتآمرون على الإسلام ويريدون هدمه.. ويشاء الله ألا يستمر د. البدرى دون أن يكشفه.. فعندما أصدر د. عبد الصبور شاهين كتابه «أبى آدم» الذى يحكى فيه قصة الخليقة.. رفع يوسف البدرى عليه دعوى قضائية.. وطالب بمصادرة الكتاب ومحاكمة د. عبد الصبور، لم يصمت د. عبد السبور، فرغم أن الرجلين البدرى وعبد الصبور كانا فى خندق واحد فى مواجهة نصر حامد أبو زيد.. لكنهما اختلفا.. وخرجت طلقات شاهين تتهم البدرى بالسطحية والسذاجة وحب الشهرة.. فهو لا يرفع هذه الدعاوى القضائية إلا من أجل الأضواء التى يعشقها ويدمنها.

هذه النماذج تتصدر الساحة وتحجب ما دونها.. وأبحث فى صفوف المثقفين والمفكرين فلا

أجد رجلاً رشيداً.. لقد كانت بداية القرن العشرين أفضل من أيامنا هذه بمراحل.. على الأقل كان هناك عقلاء.. فحين اتهم الدكتور طه حسين فى بلاغات رسمية بدءاً من ٣٠ مايو ١٩٢٦ بالطعن فى القرآن الكريم فى كتابه «فى الشعر الجاهلى»، قرر محمد نور رئيس نيابة مصر بعد التحقيق حفظ الأوراق إدارياً فى ٣٠ مارس ١٩٢٧، وقال فى حيثيات قراره «إن للمؤلف فضلاً لا ينكر فى سلوكه طريقاً جديداً للبحث حذا فيه حذو العلماء من الغربيين، ولكن لشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم قد تورط فى بحثه حتى تخيل ما ليس بحق، أو مازال فى حاجة إلى إثبات أنه حق، فكان يجب عليه أن يسير على مهل، وأن يحتاط فى سيره حتى لا يضل، ولكنه أقدم بغير احتياط، فكانت النتيجة غير محمودة، وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين، بل إن العبارات الماسة بالدين التى أوردها فى بعض المواضع من كتابه إنما أوردها فى سبيل البحث العلمى مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها، وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائى غير متوافر، فلذلك تحفظ الأوراق إدارياً.

لا أحد يفعل ذلك الآن.. الكل يدين.. وحتى عندما ترفض الدعاوى القضائية التى تحاول تحريم الفن أو رجم أديب كتب رواية أو هدم شاعر حاول أن يبدع، ترفض لأنها رفعت من غير ذى صفة.

لقد أفرزت السنوات الأخيرة فى حياتنا نحن المصريين ألواناً متعددة من النفاق الفكرى والاجتماعى حتى أصبحنا أساتذة فى تشويه كل شىء جميل، فكل كلمة نقد مؤامرة.. وكل مقال يدعو للإصلاح كلام فارغ.. وكان طبيعياً أن يفقد الناس الثقة فى كل ما يقال حتى لو كان حقيقياً، فإذا كانوا ببساطة يجدون مقالاً يدافع عن الفساد أو الإنهيار السياسى أو الضياع الثقافى أو الانحلال الأخلاقى.. فكيف يثق الناس فينا.

لقد حاولت جمعيات النهى عن المنكر فى أمريكا وإنجلترا أن تحمى المجتمع من الانهيار لكن جماعات النهى عن المنكر عندنا تهدم وتدمر ولا مانع عندها أن تقتل.. ولأننا نعتقد أننا على صواب طوال الوقت.. فإننا أغمضنا أعيننا عن الوضع السيىء الذى وصلنا إليه جميعاً.. وراح كل منا يبحث عن مكاسبه الخاصة.. حتى لو تحققت هذه المكاسب بما يخالف ضمائرنا.

وحتى نحمى أنفسنا.. فإننا نمارس حياتنا وكأننا أصحاب توكيلات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. نتهم الآخرين بالخطأ.. أما نحن فملائكة على طول الخط.. هل تريدون أمثلة.

١٨ سنة مع الجن

١٨ سنه مع الجن

تماماً مثلما يحدث فى الأفلام التجارية، يظل البطل يسرق ويقتل ويتاجر فى المخدرات، وفى الدقائق الخمس الأخيرة يموت مقتولاً أو يقبض عليه ليكون بذلك عبرة للناس، ولا مانع من أن يختم الفيلم بآية قرآنية تقدم عظة وموعظة، شيء من هذا فعلته د. نادية رضوان فى كتابها الذى سجلت فيه سيرتها الذاتية وأعطته عنواناً من المؤكد أنه سيجر عليها المشاكل، عنوان الكتاب «رحلتى إلى عالم الجن والعلاج الروحانى».

ود. نادية رضوان لمن لا يعرفها حاصلة على درجة الدكتوراه من قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة عين شمس، ولها عدة مؤلفات وبحوث فى مجال حقوق المرأة والتنمية البشرية، والمشكلات السكانية، ومن مؤلفاتها الأخرى كتاب «الشباب المصرى المعاصر وأزمة القيم» وفازت عنه بجائزة وزارة الثقافة لأفضل كتاب فى مجال البحوث الإجتماعية لعام ١٩٩٨، وتعمل حالياً أستاذاً لعلم الاجتماع بكلية التربية ببور سعيد جامعة قناة السويس.

وقد تسأل نفسك عن هذا التناقض الواضح، فكيف لأستاذة علم اجتماع من المفروض أن تتصدى للخرافات والجهل، وتكشف محاولات الدجالين والمشعوذين والنصابين فإذا بها تروج لهم وتروى قصص قدرتهم على إخراج الجن وفك الأعمال وتسخير العفاريت والعلاج الروحانى، هذا السؤال طرحته على د. نادية رضوان فوجدتها مقتنعة تماماً بما فعلت، بل وتؤكد عليه وترفض كل من يشكك فيه.

تقول: فيه ناس تدخل فى تجارب مرض وتذهب للأطباء، لكنهم يعجزون عن علاجهم.. وعندما تعجز الحلول الطبية يبحث الناس عن الغيبيات يلتمسون فيها الشفاء، أعلم أن العلمانيين يرفضون الحديث عن الغيبيات ولا يعترفون بها، لكن ثقافتنا الشرقية والإسلامية تؤكد أن هناك جناً وغيبيات.. وأنا مرضت بصداع فشل الأطباء فى مصر وإنجلترا وأمريكا فى معرفة سببه، وكلما بدأت رحلة علاج تفشل.. فذهبت إلى الشيوخ والمعالجين الروحيين.

د. نادية تتحدث عن تجربة شخصية خاضتها بنفسها إذن، لكن الموضوع يتحول عندها

من مجرد تجربة إلى اقتناع كامل، فهى ترى أن الإعتقاد ببعض الغيبيات ومنها الإتصال بالأرواح وتجسيدها والوساطة الروحية والجن، أى الإيمان بوجود الكائنات اللامرئية، أمر لا ينبغى أن نصفه بالتخلف، حيث تشير كل الأديان السماوية إلى بعض أشكاله وتؤكده، كما أن الجمعيات الروحية المنتشرة فى العالم الغربى وفى مصر تضم بين أعضائها خيرة العلماء والفلاسفة والمفكرين، كذلك فإن المكتبة العالمية تضم آلاف المؤلفات حول هذه الغيبيات كواقع غير مرئى، لأن قدراتنا وإمكانياتنا العلمية لا تؤهل الكثيرين منا لإكتشاف هذا العالم المجهول، مما يحتم علينا ألا ننفيه لمجرد كونه مجهولاً لنا، إذ لا يعنى كونه مجهولاً أنه لا وجود له، فمنذ عدة عقود وقبل الإكتشافات العلمية الطبية كانت البكتيريا والميكروبات والفيروسات مجهولة لجميع البشر رغم وجودها.

نحن إذن أمام شخصية علمية لكنها تؤمن إيماناً يقينياً بالغيبيات بل وتروج لها وتتهم من يستنكر موقفها هذا بالجهل الشديد، د. نادية تتهم من ينكر الجن ويعيب عليها لجوءها إلى الغيبيات بعدم الانتماء والإنكار التام للقرآن الكريم، لأن الأديان السماوية الثلاث التوارة والإنجيل والقرآن أشارت إلى هذا العالم الغيبى فى كثير من المواضع، وبالتالى فلا ينكر هذا العالم إلا فئة العلمانيين الذين ينكرون العقائد والأديان السماوية!

* قلت لها لكن يا د. نادية الدكتور عبد الصبور شاهين وهو على ما نعرف ليس من فئة العلمانيين بل هو يهاجمهم فى كل مكان ويشوه صورتهم قال منذ سنوات وفى برنامج تليفزيونى إن العلاج بالقرآن والإستعانة بالجن فى العلاج «كلام فارغ».. فما رأيك؟

– كلام د. عبد الصبور ليس صحيحاً.. ولكنه يعبر عن العجز الشديد فى تفسير مظاهر عالم الغيبيات، فهناك ظواهر كثيرة فى حياتنا وقد رأيتها بنفسى مثل إخراج الجن من جسد الإنسان والشفاء بالقرآن.. يعجز أمثال د. عبد الصبور عن تفسيرها أو استيعابها ولذا فهم ينكرونها حتى يريحوا رءوسهم.. وعلى كل حال فرد الفعل على ما كتبته يتوقف على التوجهات الدينية للشخص سواء كان أستاذ جامعة أو صحفياً أو أديباً أو عالماً، ومن خلال مواجهتى لهذه الفئات أدركت بصورة غير مباشرة– وإن كانت حاسمة– التوجهات الدينية لهؤلاء الأفراد، فالمؤمن التلقائى بالفطرة والمتعمق فى الدين بكل أشكاله يعترف تلقائياً بوجود هذا العالم الغيبى.

- لكن كلامك عن الجن والمعالجين بتسخيره فى كتابك أضراره أكثر من منافعه.. فالناس عندنا سيأخذون القصص التى رويتها عن قدرات المعالجين ويتناقلونها بينهم.. وسيصبح كتابك كتاباً يروج للجهل والخرافات وليس تجربة خاصة؟

- أنا حتى الآن لست على ثقة من قدرة الجن على العلاج، لأن الصداع الذى أصابنى وفشل الطب فى علاجه مازلت أعانى منه بعد رحلة استمرت ١٨ سنة مع المعالجين بالقرآن، وليس عندى نظرية تفسر ما يحدث، وكل ما أدافع عنه أننا نعيش فى عالم جزء كبير منه غيبى لا نستطيع أن نعرف حدوده ونقف أمامه عاجزين تماماً، ولأننا لا نستطيع تفسيره، فهو مصدر للتعب والإرهاق والشعوذة والدجل.

- لماذا كان الكتاب إذن؟

- أردت أن أقول إن العالم الغيبى لن نستطيع أن ننفى وجوده لكن فى الوقت نفسه من الصعب أن نؤكد على هذا الوجود، وبخصوص الجدوى من الكتاب فإنى كمتخصصة فى علم الإجتماع أزعم أننى أكثر قدرة على فهم الشخصية المصرية، والخلفية الثقافية التى توسم المؤمنين بالغيبيات بسمة مميزة، وهى الإنصياع الأعمى والتسليم المطلق لذوى القدرة على تسخير القوى الإعجازية، والعجز عن إعمال العقل وعدم الربط بين الأسباب والنتائج، وعدم القدرة على التحليل العلمى المتعقل للظواهر التى قد تبدو خارقة، مما يجعل الكثيرين منها هدفاً سهلاً للنصابين والمشعوذين، فالبسطاء من الناس ذوو القدر الضئيل من التعليم أو الثقافة يميلون إلى التفسيرات الإعجازية والخرافية لكل ما يعجزون عن فهمه أو تفسيره أو مواجهته حتى بالنسبة لأبسط الظواهر.

تعتبر د. نادية ما كتبته بمثابة صفارة تحذير أو جرس إنذار لأن الدخول إلى عالم الغيبيات والإستعانة بالجن يؤدى إلى طريقين لا ثالث لهما الأول أن هذا الطريق أشبه بالباب الدوار الذى لا يحقق الإنسان من ورائه أى نتيجة، إلا من بعض الحالات الشاذة، والتى ربما تعود إلى الصدفة، والثانى أن تلك القوى الغيبية كالأرواح أو الجن على فرض التسليم المطلق بالإستعانة بها لا تنفع وإن كان من الوارد احتمالات ضررها، فالجن على وجه الخصوص من خلال الظواهر الخارقة التى عاشتها والتى قد يكون لها بعض التفسيرات العلمية التى لا نعرفها، لا يستفيد منه سوى الشخص الذى يسخره، حيث يحصل من ورائه على الأموال

الطائلة فى المقام الأول، إذ أن ذيوع اسم ذلك الشخص وانتشار شهرته فى مجال قدرته على الإتيان ببعض الظواهر الخارقة يؤدى إلى تدفق الناس وارتمائهم على أعتابه، والذى يؤدى بدوره إلى مكاسب مادية طائلة.

يبدو من كلام الدكتورة أنها تعى جيداً ما تقول.. وتعرف أيضاً وكما قالت لنا إن ٩٩٪ من الذين ذهبت إليهم طلباً للعلاج مجرد نصابين ومشعوذين وتعرضت فى بيوت بعضهم للإغتصاب والبهدلة.. لكنها كتبت عنهم ما يروج لهم ربما دون أن تقصد، وكان لابد أن نسأل.

- كلامك يا د. نادية عن الوصول لتفسير بعض الظواهر الخارقة فى حياتنا كان الأولى به بحث علمى.. وليس كتاباً يقرؤه عامة الناس، ألم تفكرى فيما يمكن أن يحدثه هذا الكتاب من أثر سلبى؟

- أحب أن أؤكد أننى لم ألجأ للغيبيات إلا بعد أن سدت فى وجهى كل السبل العلمية والطبية، وبعد أن نهشنى العجز بأنيابه وتراجعت فلول الأمل أمام جيوش اليأس وبعد أن تقلصت مساحة الصحة أمام زحف المرض وأنا أتجرع أنات الألم الأخرس، لكن حمانى مستوى تعليمى وخبراتى وتجاربى فى الحياة، فقد أمدتنى بقدر من القدرة على التمييز بين النصب والتحايل، والإدعاء، وبين بعض الظواهر الإجتماعية التى يعجز العلم والمنطق عن إنكارها.

هذا إلى جانب أن تصاريف القدر مضافاً إليها قدراتى الفطرية مشفوعة بتجاربى الكثيرة فى العديد من المجالات، أمدتنى بالقوة والقدرة على مواجهة المواقف الخطيرة والصعبة التى قد لا ينجو منها شخص آخر، مما أتاح لى فرصة النجاة من الفخاخ والشراك الخداعية التى يقع فيها الكثيرون من البسطاء.

أغلب الظن أن د. نادية رضوان كانت حسنة النية وهى تضع هذا الكتاب، فهى تؤكد أن الإنسان عندما يدخل عالم الغيبيات ويطلب العلاج من الجن قد يتعثر للحظة فيسقط وتطحنه التجربة أو تسحقه ولهذا أقول إياكم وهذا الطريق، النية حسنة إذن.. لكن الطريق إلى جهنم- كما يقولون- مفروش بالنوايا الحسنة، فالدكتورة كتبت لتحذر الناس لكنها أوقعتهم فى شر أعمالهم من حيث لا تدرى.. والقصص التى أوردتها فى كتابها تؤكد ذلك وتفعله.

تقول: ناقشتهم، حاورتهم، اعترضت على تحليلاتهم وتفسيراتهم، فأنا آخر ما ينطبق عليه مصطلح مريض نفسى، حياتى مليئة بالأنشطة والهوايات المتعددة، داخلى فى توافق وتواؤم مع خارجى، أحب الحياة وأنفتح عليها بلا حدود، لا شىء يقف أمام تحقيق طموحاتى وإرادتى، أحب أن أحيا بين الناس، وأحيا لهم، أنا لست مريضة نفسياً ولم يستمع لى أحد ولم يصدقنى أحد، وأقنعنى أطبائى أن الذى يعانى من الإكتئاب النفسى لست أنا، بل هو جهازى العصبى اللاإرادى ولعنت هذا الجهاز الذى يتحكم فى إرادتى.

أصابتنى تحليلات الأطباء وأدويتهم فعلاً بالاكتئاب وانسحبت لعدة شهور من الحياة واستسلمت للمرض والصداع الذى احتل رأسى كالاحتلال الإنجليزى، سافرت إلى أمريكا فى مهمة علمية وعرضت نفسى على الأطباء هناك وقرروا كما قرر أطباء مصر قبلهم أننى أعانى من صداع نفسى، وقضيت الشهور الطويلة وأنا أبلبع الأدوية الأمريكانى، وكان الصداع أشد عناداً وأكثر من الدواء ومن أمريكا، ويئست من الدواء مرة أخرى، فقد عجز عن قهر الألم وتوقفت عن تعاطيه.

فشل الطب البشرى فاتجهت إلى الله أنشد رحمة الطب الإلهى، ترددت على أولياء الله الصالحين، سيدنا الحسين، السيدة زينب، السيدة نفيسة، الإمام الشافعى دعوت وتوسلت وبكيت وصليت وتصدقت، وذهبت إليه رغم أننى أعرف أنه موجود فى كل مكان، ذهبت إليه، أدعوه عند بيته الحرام، وطفت حول الكعبة، وقبلت الحجر الأسود وركعت طويلاً فى حجر إسماعيل واغتسلت بماء زمزم، وشكوت إليه آلامى وشكوت عجزى وشكوت ضعف حيلتى، انحنيت لجلاله وأنا أبكى، وشكوت إليه وأنا أبكى، ودعوته وأنا أبكى ولم تشأ لى إرادته الشفاء ولا راد لقدره وإرادته.

لم تستجب السماء لتوسلات د. نادية فهربت من الأطباء والدواء وألقت بنفسها فى أحضان الدجالين والسحرة.. وها هى بقية فصول الحكاية.. تقول الدكتورة: كنت فى زيارة لزوجة عمى فى شقتها بميدان «تريومف» بمصر الجديدة، عندما أقبلت لزيارتها إحدى جاراتها فى العمارة، وتطرق الحديث إلى معاناتى من الصداع وقالت لى الجارة: والله أنا شاكة إن يكون حد عامل لك عمل، ورددت عليها فى استنكار: يا شيخة هوه فيه حاجة اسمها عمل؟ إنتى بتصدقى الكلام ده؟ وعادت تقول فى تأكيد: طبعاً فيه حاجة اسمها عمل هو إنتى مش فى الدنيا واللا إيه؟ ورددت عليها قائلة: المشكلة إنى ما بصدقش الحكايات دى وما باعتقدش فيها، وبعدين ما فيش بينى وبين حد حاجة تخليه يكرهنى ويؤذينى.

وجاء يوم كرهت فيه آلامى وكرهت عجزى وعدم قدرتى على ممارسة حياتى، رفعت سماعة التليفون واتصلت بجارة زوجة عمى، قررت ألا أستسلم للألم، وأن أتمرد عليه حتى ولو كان ذلك عن طريق الجن والعفاريت، ذهبنا إلى الحاج «س» فى شبرا، كان متوسط القادمة يميل إلى الإمتلاء فى نحو الستين من عمره، يرتدى قميصاً وبنطلوناً نظيفين رغم آثار السنين، جلس على الأريكة المقابلة لنا وسأل عن المشكلة التى لجأنا إليه من أجلها، وحكيت له قصتى مع الصداع.

لم يعقب الحاج «س» بكلمة، وبعد فترة خيل إلىّ أنه راح فى غيبوبة، لكنه انتفض فجأة، وارتسمت على وجهه أمارات غضب وانزعاج هائل، وانهالت كلمات الإستنكار الشديدة مختلطة ببعض الآيات القرآنية وهو يقول: يا ساتر يا رب يا مغيث يا حفيظ إيه ده يا بنتى، إيه الحرب اللى عليكى دى، ده إنتى مرشوش لك، ومكتوب لك، ومدفون لك.

وانتقل إلى انزعاجه رغم أنى لم أفهم شيئاً مما قال، وطلبت منه مزيداً من الإيضاح، أخبرنى أننى قد تعرضت لحملة من تسليط وتسخير الجن لإيذائى عن طريق أعمال السحر، وأنه قادر بمشيئة الله على فك هذا السحر، وطلبت منه وأنا بين مكذبة ومصدقة أن يبدأ فوراً وأخبرنى أن ذلك لابد وأن يتم خارج جدران بيته.

ناقشت الأمر مع زوجى فاتهمنى بالكفر والجنون وقرر عدم السماح بممارسة هذه الخزعبلات والتخاريف فى بيتنا، لكنى فكرت وخططت ونفذت، وصل الحاج «س» إلى بيت عمى فى العاشرة صباحاً، طلب منى كوباً نظيفاً مليئاً بالماء وضعه أمامه، وطلب منى أن أحضر من المطبخ «حلة» نظيفة مملوءة إلى نصفها بالماء، وسحبت الحلة من دولاب المطبخ بنفسى، وغسلتها وملأتها بنفسى وحملتها إلى الشرفة بنفسى ولم تلمسها يد سوى يداى!

وجلست فى مواجهته بعيداً عنه، ووضعت الحلة على حجرى وغطيتها بغطائها النظيف الذى غسلته أيضاً بيدى، وجلست زوجة عمى وجارتها تراقبان، كنت قد نبهت عليهما أن ينتبها وأن يفتحا أعينهما فربما كان هناك شىء مخبوء فى جيبه أو كمه أو قميصه، وشمر الحاج «س» أكمامه وبدأ الطقوس، تناول جرعة من الماء بعد أن قرأ عليه بعض الآيات القرآنية ثم أعاد الكوب إلى جوار المبخرة ووجه إلىّ الكلام قائلاً: حطى إيدك على غطاء الحلة وقولى ورايا يا ملك البحار إذا جبت لى حاجتى حأجيب لك رغيف عيش وفعلت

ما طلب ورددت وراءه ما قال كالببغاء، فلم أكن أفهم ما أقول.

وعاد الحاج «س» إلى تلاوة القرآن بضع دقائق وسمعته يوجه كلامه إلى بعض الكائنات المجهولة التى بدا أنه يراها ولا نراها، وطلب منهم أن يحضروا كل أعمال السحر المكتوبة والمدفونة والمرشوشة الخاصة بى، وتوقف للحظة، وكأنما يترك الفرصة لهذه الكائنات أن تتحرك وتنشط لتنفيذ أوامره، وتحول إلىّ وهو يطلب منى أن أضع يدى داخل أحد جوانب الحلة دون أن أزيح الغطاء كلية، راجياً إياى عدم الخوف إذا شعرت بوجود أى شىء داخله، وفعلت مددت يدى فى بطء وحذر وتوجس!

مددت يدى مرة واثنتين لم أجد شيئاً وفى الثالثة رأيت مالم تصدقه عيناى ووجدت مالم يتسع له عقلى، تحول الماء الصافى فى داخل الحلة إلى اللون الطينى المائل إلى السواد كأنما هناك من ألقى فيه بعدة حفنات من الطين المخلوط بأجزاء صغيرة من العشب الجاف والحصى الصغير، ورأيت فى طيات الماء الأسود لفة يغلفها الطين اللزج فى حجم كف اليد. لا يكاد يظهر منها إلا قمتها.

طلب منى الحاج «س» أن استخرج اللفة، ومددت يدى وقد ملأتنى الرهبة الممزوجة بالتقزز بينما فقدت السيطرة على دموعى، وتناولت اللفة بأطراف أصابعى فى هلع وتردد. وأنا أزيل عنها الطين اللزج الذى يغلفها، وتنفست الصعداء، وأنا أضعها جانباً على غطاء الحلة، فقد اعتقدت أن مهمتى المخيفة المقززة انتهت.

عاد الحاج «س» يطلب البحث داخل الماء عن أى شىء آخر قد يكون مستقراً فى قاع الحلة، واستأنف مرة أخرى مهمتى الثقيلة، وخرجت يداى بما هو أغرب وأعجب من اللفافة المغلفة بالطين، خرجت يداى بأكثر من عشر قطع معدنية صغيرة الأحجام بعضها على شكل الماشاء الله وبعضها على هيئة صلبان محفور عليها جميعاً نوع من الكتابة غير المفهومة. وخرجت يداى بمجموعة من قطع الدوبار كل منها يزيد طوله على الشبر، وقد تم عقد كل منها عدة عقد على أبعاد شبه متساوية، كان صوت الحاج «س» يتعالى بالإستنكار والسخط كلما خرجت يداى بشىء من الحلة قائلاً: أعوذ بالله! أعوذ بالله! حوش يا حواش. كل ده سحر؟ كل دى أذية؟.

رفض الحاج «س» أن يطلعنى على أسماء من سعوا لإيقاع الشر بى. وأنا أرجوه وأتوسل

إليه بصوتى المختنق بالبكاء، وطلبت منه أن يترك لى الورقة والأشكال المعدنية وقطع الدوبار التى وجدناها فى الحلة حتى يراها زوجى، ورفض قائلاً: مستحيل يا بنتى، كل الحاجات دى حأحطها فى رغيف عيش وحأرمى الرغيف فى البحر، إنتى مش وعدتى ملك البحار إنه إذا جاب حاجتك، حتجيبى له رغيف عيش؟.

سألته عن المبلغ الذى يطلبه، ورفض بشدة فى البداية، ولكنى ألححت عليه، فقد كنت فى حالة نفسية تجعلنى أتنازل عن كل ما أملك، حتى إذا كان ذلك ثوبى الذى أرتديه، وأخيراً لم يقبل أن يأخذ أكثر من عشرة جنيهات، وبدأت أراقب آلام الصداع بعد أن قمت بإجراء كل الطقوس التى كان قد طلبها الحاج «س» حتى يتم شفائى، أحسست أن الآلام قد أصبحت محتملة، وارتفعت معنوياتى بصورة غير مسبوقة، فأخيراً وجدت الخلاص فقد حقق لى الجن ما عجز عن تحقيقه الطب.

تجربة د. نادية الأولى مع الجن طالت أكثر من اللازم، ولكن كان هذا ضرورياً للغاية فروايتها لهذه القصة وبهذ التفاصيل ستجعل من يقرأ ينبهر بالتفاصيل، خاصة والدكتورة ترويها بانبهار شديد لن يلتفت أحد بعد ذلك لما توصلت إليه الدكتورة،ـ فهى لم تشف نهائياً وحتى الآن، ولن يهتم أحد بالنتيجة التى وصلت إليها.

فعندما حاصرها الصداع من جديد ذهبت للحاج «س» ليفسر لها ما حدث وقال لها الرجل ما أفقدها إيمانها بالجن والعفاريت والشياطين والشيوخ والدجالين والمشعوذين قال لها: هناك بعض الناس القادرين على تسخير الجان، وأن الجن قادر على جمع بعض المعلومات عن الأشخاص وعن مشكلاتهم، كما أنه قادر على إعداد بعض الأشياء المادية مثل الورق أو القطع المعدنية أو الطين، حيث يقوم بإلقائها فى الماء عند استحضاره، وأن هذه التمثيلية التى تتم بالاتفاق بين الجن والشخص الذى يقوم بتسخيره تعد نوعاً من العلاج النفسى للأشخاص أصحاب الحاجات والمشكلات.

عادت الدكتورة من عند الحاج «س» تحمل صداعها معها وقد ملأها الإيمان بأن ما تم على يديه كان مجرد تمثيلية محبوكة الأطراف أعدها وأخرجها الحاج بالتعاون مع أتباعه من الجن والعفاريت كان من المفروض أن تعلن توبتها وترتدع، لكنها عادت لتستنجد بالجن والعفاريت، فربما– كما تقول– أجد من بينهم جنياً أو عفريتاً «ابن حلال» لا يكذب ولا يحب التمثيل.

تركت الدكتورة نفسها للشيوخ والدجالين يفعلون بها ما يشاءون، ذهبت إلى الشيخ «ك» فى المرج الذى خرجت من عنده، وهى تسخر من نفسها ومن شهادة الدكتوراه التى تجرجرها معها بين المشعوذين والدجالين، ثم ذهبت إلى الشيخ عامر فى كوبرى القبة وقد رمزت له الدكتورة فى كتابها بالشيخ «ع» لكنها قالت لنا اسمه لأنه مات منذ سنوات ولأنها شعرت أنه لم يكن دجالاً، فقد رأته بنفسها يستخرج الجان من أجساد صديقاتها ومعارفها، ورغم أن الشيخ عامر لم ينجح فى علاج الصداع الذى كانت تعانى منه رغم محاولاته المتكررة، لكنها ظلت تتردد عليه بين الحين والآخر من أجل علاج بعض الحالات التى يهمها أمرها، ومن بينها حالة ابن شقيقها المهندس الذى عجز الأطباء عن علاجه وشفاه الشيخ عامر!

ومن كوبرى القبة ذهبت د. نادية إلى المحلة الكبرى ليعالجها الطبيب القادم من عالم الجن، رمزت له الدكتورة بـ«ش» وحكت قصته قائلة: كان الدكتور «ش» طالباً فى السنوات النهائية بكلية الطلب، وفجأة اختفى، تلاشى، خلت منه جدران بيته الريفى، لم يترك وراءه أى أثر يشير إلى سبب اختفائه، وفى أحد الأيام وذات صباح عاد فجأة، كما ذهب فجأة عاد بعد سبع سنوات ليكشف السر الغامض وراء اختفائه، قال إن الجن اختطفوه واحتفظوا به معهم طوال هذه السنوات فى عالمهم المجهول، وأنه عاش حياتهم واستكمل بينهم دراسته فى مجال الطب، ولقنوه أسرارهم وعلومهم فى مجال العلاج من الأمراض وأنواع المس الشيطانى والتى يقال إنها أكثر تقدماً بين الجن عنها بين البشر، وذاع صيته بعد أن نجح فى علاج الكثير من الحالات بكفاءة تعادل كفاءة كبار الأطباء.

أخذت الدكتورة علاج د. «ش» لكن لم يستطع دواء الجان أن يطرد الصداع.. فذهبت إلى الشيخ «ح» ومن الشيخ «ح» إلى الشيخ «م» الذى تعرضت فى بيته إلى محاولة اغتصاب نجاها الله منها.

تقول الدكتورة، لم أكن أعرف طبيعة العلاج الروحانى الذى سيقوم به الشيخ «م» ولم تكن لدى أية فكرة عن الخطوة التالية التى يقدم عليها، وأزعجتنى نظراته الفاحصة المحدقة وأرخيت عينى إلى الأرض، ومد يده ورفع ذقنى بطرف إصبعه ليعاود التحديق فى عينى، وانتابتنى حالة من التوتر والقلق والشعور بعدم الراحة، وهو يمد يديه ليستقر بها على كتفى، بينما أخذ يردد فى بطء ورتابة وبلهجة مطوطة: عايزك تسترخى، انسى كل حاجة حواليك، بصى فى عنيه، بصى كمان، استرخى، اهدى، ما تخافيش، رخرخى اكتافك،

رخرخي جسمك، شعرت مع كل كلمة من كلماته بأن يديه اللتين استقرتا على كتفى تجذبنى إليه فى خفة وبطء، وشعرت بكتفى يتصلبان تحت ملمس يده وأنا أرجع بهما إلى الوراء.

عاد يجذبنى تجاهه وهو يردد قائلاً فى لهجة رتيبة آمرة: أنا عايزك تسترخى ما تقاوميش إيديه، خليكى مع حركة إيدى، ما تنزليش عينيكى فى الأرض، بصى جوه عينيه، بصى فيها كمان، بصى كمان، استرخى، وحاولت قدر إمكانى أن أنفذ تعليماته، وأن أجبر جسدى على الإسترخاء، وقد انتابتنى حالة أشبه بالدوار، وتناهى لى صوته الذى أصبح همساً وهو يقول فى لهجة إيحائية: أيوه، كده كويس، جسمك بيسترخى، وعقلك بيسترخى. غمضى عينيكى، غمضى عينيكى، إنتى جسمك تعبان، إنتى تعبانة استندى عليه، ما تخافيش استندى عليه.

أدركت وأنا مازلت محتفظة بجزء من وعيى أنه يشدنى ويجذبنى إليه وغمرتنى رائحة عطرية نفاذه تنبعث من جسده ومن ملابسه، وقد انحدرت يداه على كتفى لتحيط بظهرى، ووجدت جسدى يتصلب بين يديه وأنا أجذب جسدى بعيداً عنه، وشد قبضته على ظهرى يجذبنى إليه وهو يردد: إنتى حتبوظى الشغل كده خليكى معايا،- ركزى معايا، اسمعينى بأقول إيه، ركزى استرخى، وانتابتنى حالة من التحفز والهياج، وأنا أدفعه بعيداً عنى بكل ما أوتيت من قوة بينما أخذت أردد فى استنكار وغضب: إيه اللى بتعمله ده؟

وعاد يحاول الإمساك بى وهو يردد فى نعومة وإلحاح: لو عايزة تخفى لازم تطاوعينى، إنتى مش حتخفى إلا بكده، وتعالى صوتى وأنا أصيح بينما كنت أدفعه فى صدره بكلتا يدى وأنا أجرى وأفتح باب الحجرة: مش عايزة أخف إن شاء الله عنى ما خفيت.

اندفعت أهبط السلم قفزاً وكأنما كان هناك جنى يطاردنى لم أتوقف عن الجرى حتى بلغت سيارتى، أكاد لا أصدق أننى نجوت من هذه التجربة المريرة القاتلة، وأصبحت أوقن أن مثل هذا الرجل لن تتعد أهدافه جمع الأموال من وراء الممارسات التى كان يقوم بها بمساعدة الجن وإشباع شهواته من خلال النساء اللائى كن يقعن فى قبضته.

كان من المفروض أن تصبح هذه الحادثة هى نهاية المطاف فى رحلة الدكتورة مع الجن والعفاريت لكنها لم تهدأ.. وتحولت من الجن إلى عالم الأرواح والعلاج الروحانى. الغريب أن الدكتورة تفعل ذلك باقتناع تام وغميق.

قلنا لها يا دكتورة إن تجربتك إغراق فى الخرافة نحن نؤمن بالغيب.. ولكننا نرفض الخرافة.. فكيف يتفق العلاج الروحانى مع شخصيتك التى من المفروض أن تكون علمية؟

- قالت.. ما أقوله عن العلاج الروحانى ليس بدعة، فلدينا فى مصر د. رءوف عبيد وكان من كبار أساتذة القانون بكلية الحقوق بجامعة عين شمس، كما كان من أوائل الرواد الذين وهبوا حياتهم لاختراق أسرار عالم الروح، وللدكتور عبيد كتاب بعنوان «الإنسان روح لا جسد» وهو مكون من ثلاثة أجزاء ضخمة يقع كل جزء فى نحو ١٥٠٠ صفحة، ويوضح د. عبيد أن الإنسان روح لا جسد وفسر على أساس ذلك اتصال الأرواح سمعياً بالأحياء أو تجسدها لهم فى صورتها الشفافة الأثيرية، وهو ما يسمى بالجلاء البصرى، حيث يرى أن الإنسان ليس مجرد كيان يفنى ويتحلل وينتهى بانتهاء الحياة، وإنما هو فى جوهره يتكون من مكونين أساسيين أحدهما مادى والآخر أثيرى، وأن المكون المادى أى الجسد هو الذى يفنى ويتحلل.

كان كتاب د. عبيد دافعاً لانخراط ط د. نادية فى طريق العلاج الروحانى.. وتأكد لها أنها على شىء من الشفافية والروحانية، وعزز عندها ذلك أنها رأت الرسول فى المنام وهى فى الثانية عشرة من عمرها، حيث بدا لها فى لباس أبيض وغطاء رأس أبيض وقد امتطى أيضاً جواداً أبيض وتقدم ناحيتها وهو على ظهر جواده ووضع يده على رأسها يباركها ثم انصرف.

ظلت د. نادية تجرب كل الشيوخ والمعالجين بالقرآن والذين يسخرون الجن ثمانية عشر عاماً متواصلة لكنها لم تشف من الصداع، ولهذا كتبت تجربتها فى كتاب لتحذر الآخرين من الوقوع فى شرك الجن والسحر، لكنها عملت.. وعفواً فى التشبيه مثل الدبة التى قتلت صاحبها لأنها تريد أن تحميه.. فهى روجت لهذا العالم من حيث لا تدرى.. وسيصبح كتابها علامة على التفكير العلمى عندما يضل طريقه.

- قلت لها بعد أن انتهيت من كتابك يا دكتورة: ما الفكرة التى سيطرت عليك؟.

- قالت: أنا أحتاج لمن يفسر لى ما حدث أثناء رحلتى مع الدجالين والمشعوذين.. لا من يرفض الكلام من البداية ويتهمنى بالجهل وترويج الخرافة، لقد رأيت بعضهم يطرد الجن ويطارده ورأيت آية خارقة فى الحلة.. أريد أن يفسر لى أحد هذه الخرافات، أنا لم أعد أؤمن بالجن وقدرته على العلاج، لكن هذا العالم موجود ويحتاج لمن يكشف عنه.

- وهل تعتقدين أنك ساهمت فى كشف هذا العالم أم زاد غموضاً على يديك؟.

- قالت: أطرف تعليق قاله لى صديقى الكاتب الكبير السيد ياسين، قال: احنا ما صدقنا تخرج أستاذة جامعة تقدم بحوثاً لها قيمة.. تقومى ترجعى وتجرى وراء السحرة والدجالين.. ما فيش فايدة الستات همه الستات.

هلافيت الجن

هـلافيت الجـن

د. نادية رضوان أستاذة علم الاجتماع الشهيرة صاحبة كتاب «رحلتى إلى عالم الجن والعلاج الروحانى»، وهو الكتاب الذى يسجل تجربتها لمدة ثمانية عشر عاما مع المعالجين بالقرآن والسحرة والدجالين والمشعوذين الذين أوهموها أنهم قادرون على علاجها والقضاء على الصداع المزمن الرهيب الذى يعربد فى رأسها دون أن تجد له علاجا عند أحد من الأطباء لا فى مصر ولا فى غيرها من دول العالم التى زارتها بغرض العلاج.

أحدث الكتاب ضجة وتهافت الجميع على الدكتورة.. هذا يريد أن يجرى معها حواراً.. وهذا يعد لها ندوة وهذه تطلبها للتسجيل معها فى محطة فضائية عن الطب البديل، لم تقل د. نادية لا لأحد.. ولكنها أكدت لى أن هدفها من الكتاب كان التأكيد على أن من ذهبت إليهم تطلب العلاج كانوا نصابين ودجالين.. وحتى من أظهروا لها بعض الأشياء الغريبة الخارقة ظلوا بالنسبة لها لغزا غامضا يحتاج لتفسير وأيضاح.. فبعضهم يعمل من أجل المال وبعضهم يسعى خلف متعة الجنس.. والجميع فى النهاية كاذبون، وعلى الرغم من أن هذا هدف الدكتورة وهو هدف نبيل وراق للغاية فإن ما حدث كان شيئا مختلفا تماما فقد أصبحت تجربة الدكتورة عند الكثيرين رمزاً للترويج للخرافة والدعوة لهجر الطب والعلاج عند الدجالين وأصبح من يريد أن يدلل على انهيار المجتمع يضرب المثل بأستاذة علم الاجتماع التى تركت الطب وذهبت تستعين بالجن والعفاريت مع أن الدكتورة نادية تحسب لها جرأتها على الاعتراف والمصارحة وكشف بعض جوانب هذا العالم الخفى فكثير من كتابنا ومثقفينا يتعاملون مع الدجالين والمعالجين بالقرآن ولكنهم لا يعترفون بذلك بل يجعلونه قدس أقداس لا يقترب منه أحد.. ثم يخرجون علينا يهاجمون الجن والخرافة بمنتهى البساطة!

بعد الضجة التى أحدثها كتابها اتصل بها عدد كبير ممن ادعوا قدرتهم على علاجها والقضاء على صداعها، لكنها أغلقت الباب فهى لم تعد تثق فيهم.. رغم أنها تتمنى من شدة ما بها من آلام أن يعالجها أحد حتى لو كان نصابا، واحد فقط أعطته د. نادية أذنها وسمعت له بإنصات شديد اسمه إيهاب من شبرا، تحدى الدكتورة وقال لها: أنا قادر على علاجك وإن لم تشفى على يدى اضربينى بالجزمة، استفزت هذه الجملة د. نادية.. وتعجبت

من ثقته المطلقة فى نفسه فقبلت التحدى.. ودعته إلى بيتها.. فقال لها وأنا على استعداد أن يحضر جلسة العلاج أى عدد ليكونوا شهودا على ما يحدث.

نبرة التحدى فى صوت إيهاب جعلت د. نادية تدعو عددا من أصدقائها فجاء د. عبد الله هدية عميد كلية التربية جامعة قناة السويس ود. خليل فاضل أخصائى العلاج النفسى والمخرج علاء كريم الذى أكد أنه مقتنع بالفعل أنه هناك بشر عندهم قدرات خارقة، لكنه يريد أن يرى بعينيه وجاءت صفاء النجار الكاتبة والمذيعة براديو وتليفزيون العرب **ART** والتى استضافت د. نادية على الهواء فى برنامج آلو **ART** لتتحدث عن تجربتها فى عالم الجن والعفاريت والعلاج الروحانى ودعتنى الدكتورة لأنضم لبقية ضيوفها! قالت لى الدكتوره نادية أنها لم تدعى أصدقاءها لكى يؤمنوا ويقتنعوا ويتأكدوا مما قالته ولكنها دعتهم ليعيشوا تجربة لم يعيشها أحدهم من قبل ليروا على الطبيعة الخداع الذى يمارسه البعض فيوهموا الناس أنهم ملبسون أو عليهم جنا.. وهو الأمر الذي تأكدت الدكتورة أنه ليس صحيحا وعن تجربة.

وقد حدث بالفعل فلم نر أمرا خارقا للغاية أو معجزة نحكيها للآخرين أما كيف فشل إيهاب وظهر أمام الجميع ضعيفا مهزوزا متراجعا مخادعا.. فالقصة لها بداية جديدة.

عندما دخلت شقة الدكتورة نادية وجدتها تجلس مع إيهاب، شاب فى نهاية الثلاثينيات من عمره قمحى اللون لا تفارق السيجارة المارلبور شفتيه، يتحدث بهدوء شديد لو رأيته فى الشارع بعيدا عن هذه المناسبة يمكن أن تعتبره موظفا فى أحد البنوك أو أحد رجال الأعمال الصغار الذين يقفون فى بداية السلم.

بدأ إيهاب حديثا طويلا عن الجن.. عن عددهم وعاداتهم.. ماذا يأكلون وماذا يشربون.. قال إن عدد الجن يفوق عدد الإنس بعشر مرات على الأقل.. فكلما ولد للإنس طفل ولد للجن عشرة، سألته من أين حصل على هذه المعلومة تحديدا فأجابنى ببساطة أنه حصل على كل معلوماته من عالم الجن أنفسهم فهو لا يقرأ ولا يعتمد على أية مصادر أو كتب يستقى منها معلوماته، تركنا هذه المعلومة جانبا.. فقد بدأ إيهاب يحكى عن الجن الذين يسكنون بنى آدم.. وكان له تعليل طريف.. فمن بين الجن آلاف المشردين والهلافيت الذين لا يجدون مسكنا وليس لهم بيتا يعيشون فيه.. ولذا يحرص هؤلاء على أن يسكنوا الجسد البشرى فهو

أمان لهم.. معنى ذلك أن العفريت الذى أوهموا د. نادية أنه يسكن رأسها ويسبب لها الصداع مجرد هلفوت من هلافيت الجن، لم يجد مكانا يعيش فيه أو يؤويه فاستوطن رأس الدكتورة.

قبل أن تبدأ جلسة العلاج والتى كان من المنتظر أن تحضرها سناء البيسى رئيس تحرير نصف الدنيا التى كتبت مقالا بعنوان «استرخى» عرضت فيه تجاربها الخاصة مع الجن والعفاريت قالت.. تحضرنى فى هذا المجال ذكرى صرخات من خيمة مصيف كانت تجاورنا عندما ذهبنا نستطلع أمرها إذا بالشاب المهزار بطل ليالى السمر يتلوى نائما فايقظناه لنقطع عليه كابوسه لنلاحظ أن بجسده علامات طولية دامية كأنها أثار سياط حديثة هبطت على جلده وعرفنا قصته لقد عثر فوق رمال الشط على رابطة معقودة بمهارة بواسطة دوبار مختوم. وعندما فرقها لم يجد فيها سوى أوراق مطبقة وكتابات غريبة بالحبر الأحمر مع عملات صدئة وخرق من أقمشة بالية فألقاها وذهب ليأخذ تعسيله.

أكدت سناء البيسى كلام الدكتورة نادية عن عالم الغيبيات الذى يحتاج لتفسير. وأغلب الظن أن شجاعة د. نادية فى الإعتراف بتجربتها وقفت وراء كتابة سناء مقالها واعترافها بتجاربها مع عالم الجن والعفاريت.

وبدأت الجلسة.. طلب إيهاب بعد أن بدأ فى إطلاق البخور إطفاء الأنوار جميعا. جلست الدكتورة على كنبة فى مواجهته وبدأ إيهاب يتمتم بكلام غامض وغير مفهوم. يقترب من الدكتورة ثم يبتعد عنها، يشير إليها مرة بأصبع واحد ومرات بيده كاملة. وبعد أكثر من ساعة من هذه الحركات طلب مرة أخرى أن نضىء المكان. وقال فى لهجة عادية للغاية: الدكتورة ليس عليها أى عفاريت.. وحتى لا يضيع تعب إيهاب هباء. قال وبنفس البساطة إن كل ما عند الدكتورة هو مشكلة فى العنق وعلاجها عند الأطباء وليس عنده، وحتى يؤكد أنه «واصل» أشار إلى أن معلومة العنق هذه قيلت له من الجنى الذى يتبعه وعندما قالت له الدكتوره إنها ذهبت لكل أطباء الدنيا ولم يعالجها أحد، قال لها بثقة كبيرة هذه المرة: ولن يعالجك أحد!

ظهر إيهاب على حقيقته إذن وضاع كل ما قاله عن قدرته على التنبؤ وإخراج الجن وعلاج المرضى، وهذا ما كانت تهدف إليه د. نادية، فقد أرادت أن تقول لضيوفها أنها لا تؤمن بقدرة الجن ولا المعالجين الذين يتبعون أساليبا يؤثرون بها على المرضى.. تفشل أحيانا

لكنها تنجح كثيرا، حاول إيهاب بعد ذلك أن يقنعنا بقدراته نظريا.. لكن التجربة العملية أثبتت فشله وكان لابد من جملة ساخرة قلتها للدكتور خليل فاضل الذى ظل طوال الوقت ينظر ويدقق فيما يفعله إيهاب عله يعثر على شيء. قلت للدكتور خليل.. أى عفريت لازم يفكر قبل أن يحضر إلى هذه الجلسة التى يجلس فيها عميد كلية وأخصائى علاج نفسى ودكتور مناظير ومخرج سينمائى وصحفيون، هذه المجموعة بالنسبة لأى عفريت تعتبر «ملقف»، ضحك الجميع.. وغرق إيهاب فى حرج وحياء مصطنع.

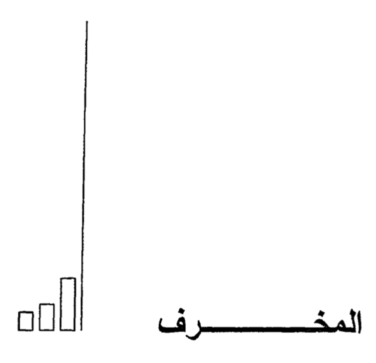
لقد حضرت هذه الجلسة وأنا على اقتناع تام بأن عالم الجن موجود وبأن السحر موجود، على الأقل لأن القرآن الكريم أكد ذلك، لكنى على اقتناع تام أيضا أن الجن لا يستطيع أن يسكن الإنسان ولا يستطيع أن يسيطر عليه أو يؤذيه، وعليه فكل الذين يدعون أنهم قادرون على إخراج الجان كذابون وأفاقون، لقد كان غريبا أن يقول إيهاب وهو الرجل الذى ادعى قدرته على إخراج الجان فى دقائق أنه قال للدكتورة وهو يحدثها تليفونيا إنه ليس عليها جان، لماذا جاء إذن وماذا كان يفعل طوال ساعة كاملة.. لا أحد يدرى..

لقد كانت المفاجأة أن د. نادية أكدت لى إقتناعها التام بأن من لجأت إليهم دجالون ومشعوذون ولا يقدرون على شيء، وأن الجن موجود.. لكنه لا يؤذى أحدا.. وأنها لم تلجأ إلى أى معالج إلا يأسا من شدة الألم الذى لم يقدره أحد ممن وصفوها بالجهل أو بترويج الخرافة ولذلك فقد جاءت بأصدقائها لا لتؤكد لهم أن الجن موجود ولكن لتؤكد أن هناك من ينصب باسم الجن.. وهؤلاء يملكون صفات ومميزات شخصية كاريزمية يستطيعون من خلالها التأثير على الناس، وقد يكون فشل إيهاب لأن الموجودين يملكون وعيا وقدرة على التمييز فليس من السهل خداعهم، لكن المشكلة وكما أشارت د. نادية فى البسطاء الذين يقعون صرعى وبسهولة فى حبائل هؤلاء الدجالين!

ادعاءات إيهاب كانت مستفزة للجميع لدرجة أن علاء كريم تحدث مع إيهاب بصراحة وقال له عفوا ما حدث أمامنا يؤكد أنك نصاب.. فأنا تعاملت مرة مع شيخ اسمه رمضان وشاهدت عنده بعض الأشياء التى يعتبرها البعض خارقة.. ودعك من إقتناعى أو عدم إقتناعى بها.. لكنى رأيتها بعينى وهو ما لم يحدث معك على الإطلاق.. فلم نر شيئا يثبت أيا من ادعاءاتك.

لم يقل علاء كلامه ويمضى ولكن إيهاب اعترض عليه وقال له.. يعنى كل المخرجين بيعرفوا يخرجوا.. ما فيه مخرج كويس.. ومخرج على قده، استفزه علاء قائلا.. طيب بلاش الجن.. تنبأ لأى أحد فينا الآن بطالعه.. قل لنا أى شيء يؤكد قدراتك ويقول لنا إنك لست نصابا.. لم يفعل إيهاب شيئا واستسلم لسخريات الموجودين التى لم ترحمه.

المؤكد عندى أن مثل هذه الجلسات تتكرر وتحدث فى بيوت سياسيين ومفكرين وفنانين ومثقفين كبار.. يقتنعون بها كل الإقتناع.. لكنهم ليسوا بجرأة وشجاعة د. نادية التى قضت فترة طويلة من حياتها مقتنعة بقدرات البشر على العلاج، لكنها عندما اكتشفت كذبهم عادت لتعلن ذلك ببساطة وبمنتهى الشجاعة.. كانت تعلم أن المجتمع لن يرحمها.. لكنها تحدته لتكشف جزءا من سوءته التى يريد أن يخفيها بكل ما أوتى من قوة فهل تستطيع.. نرجو ذلك.



المخـــــــرف

المخـــرف

عندما تمر بعينيك على أرصفة الكتب فى القاهرة، سيقابلك اسم محمد عيسى داود، على بعض الكتب التى تتحدث عن المسيخ الدجال ومثلث برمودا والأطباق الطائرة. هذه الكتب وضعت اسم عيسى داود ضمن قائمة الدجالين والمشعوذين وكان بعض المثقفين يرون أن كتبه ليست إلا كلاما فارغا وإغراقا فى الغيبيات لا يسمن ولا يغنى من جوع.

بعد أحداث ١١ سبتمبر فرض اسم محمد عيسى داود نفسه على الأحداث، عندما أصدر كتابه «المفاجأة.. بشراك يا قدوس».. والذى تنبأ فيه بالأحداث الأخيرة التى عصفت بأمريكا، عيسى داود أشار بالتصريح فى صفحة ١٨٥ إلى الهدة العظيمة التى ترتج لها كل جنبات الكرة الأرضية، وفى صفحة ٤٨٩ إلى دمار أجزاء من أمريكا بالهدة تجعلها تركع نصف ركوع ويفتح المهدى الأمريكتين.

وقبل الدخول إلى تفاصيل نبوءات عيسى داود بالدمار القادم.. من المهم أن نعرف من هو عيسى داود، ولد فى الإسماعيلية عام ١٩٥٧، حصل على ليسانس الآداب قسم اللغات والدراسات الشرقية «الفرع العبرى» بجامعة القاهرة، ثم حصل على دبلومة الدراسات العليا فى الآثار المصرية من جامعة القاهرة، ثم على إجازة الدبلومة العليا فى آثار ما قبل التاريخ من آثار القاهرة أيضا، حاول أن يدخل طريق الدراسات الإسلامية لكنه لم يتمها بسبب أسفاره الطويلة فى بعض البلاد العربية التى عمل بها صحفيا أحيانا ومستشارا إعلاميا فى بعض الأحيان!.

يفخر عيسى داود أنه انفرد وحده بلا منازع بنظرياته عن وجود المسيخ الدجال فى مثلث برمودا، وأنه مخترع الأطباق الطائرة وأنه صاحب الختم المرموز على الدولار الأمريكى وأنه صاحب بروتوكولات شيوخ صهيون، وأنه السامرى المنتظر، وأنه المروج لفكرة النظام العالمى الموحد، ولا أدرى لماذا يفخر عيسى داود بهذا الإنفراد، فهو لم يقدم دليلا ماديا ملموسا على صدق ما ذهب إليه.

ليس هذا موضوعنا على أية حال.. ففى كتاب المفاجأة، يقدم المؤلف حديثا للنبى يقول عن أبى أمامة قال رسول الله «يكون فى رمضان صوت قالوا يا رسول الله، فى أوله أو فى

وسطه أو فى آخره؟ قال: لا بل فى النصف من شهر رمضان، إذا كانت النصف ليلة جمعة يكون الصوت، يصعق له سبعون ألفا، وتفتق فيه سبعون ألف عذراء ويعمى سبعون ألفا، قالوا من السالم يا رسول الله، قال من لزم بيته وتعوذ بالسجود وجهر بالتكبير».. الحديث بهذه الصورة لا يخرج عن كونه مجرد حديث يمكن أن يكون مكذوبا على النبى، لكن عيسى داود أخذ الحديث ونسج حوله تنبؤاته، وحتى ينقذ نفسه من مأزق تحديد موعد أو يوم لهذه الهدة، استراح لأن يقول: ولأننا نجهل أى رمضان هو، وفى أى سنة بالتحديد فإن سيدنا محمدا لم يدخر وسعا فى أن يحذرنا فحدد أنها سنة كثيرة الزلازل، وهو بذلك يشير إلى حديث الرسول الذى يقول فيه: إذا كانت صيحة فى رمضان فإنه يكون معمعة فى شوال، وتميز القبائل فى ذى القعدة وتسفك الدماء فى ذى الحجة والمحرم وما المحرم؟ يقولها ثلاثا «هيهات.. هيهات يقتل الناس فيها هرجا ومرجا».

وعندما سألوا الرسول، وما الصيحة يا رسول الله؟ قال هدة فى النصف من رمضان ليلة جمعة، وتكون هدة توقظ النائم وتقعد القائم وتخرج العواتق من خدورهن فى ليل جمعة من سنة كثيرة الزلازل، فإذا صليتم الفجر من يوم الجمعة فادخلوا بيوتكم وأغلقوا أبوابكم وسدوا كواكم ودثروا أنفسكم وسدوا آذانكم، فإذا أحسستم بالصيحة فخروا لله تعالى سجدا وقولوا سبحان القدوس، سبحان القدوس فإنه من فعل ذلك نجا ومن لم يفعل ذلك هلك».

ما حدث فى أمريكا فى ١١ سبتمبر لا ينطبق عليه شىء مما ورد فى الحديث، وهو الشىء الذى جعل عيسى داود يعتبره مجرد مقدمات للهدة الكبرى التى ستأتى فى رمضان، ورغم أن الطائرات هى التى دمرت أمريكا فإن داود يعتقد أن الهدة لها علاقة بالسماء، وهذا كلام معقول- لكنه يفقد معقوليته عندما نقرأ ما كتبه داود.. يقول: الهدة لها علاقة بالسماء وهذا يجعلنى موقنا أنها ارتطام «نيزك» أو كوكب بالأرض الغربية للعالم الإسلامى، أى بالولايات الأمريكية أو الأمريكتين، فالنيازك لم تقترب من أمريكا.. وإنما اقتربت منها الطائرات التى صنعتها بنفسها!

وينقل عيسى داود عن رق غزال قديم ينسب إلى سيدنا على أنه سيهبط من السماء على بلاد الأمريك فى الحائط الغربى من الأرض كويكب العذاب، وعندما تكتفى المرأة بالمرأة والرجل بالرجل، ويرضى الحاكم هناك بالدم البرىء يسيل فى قدس الله، ويحمل أكداس الذهب لمن عليه الله غضب، ويملأ مائدة اليهود بالطير الدسم كأنه البخت العظيمة، وبالبيض

المكنوز سما ونارا، فيرسل الله عذاب الرجفة على الأمريك، وتمطر السماء ويلاً وتشب نار بالحطب الجزل غربى الأرض، فيرون معهن موتات وحصد نبات وآيات بينات فأبشروا بنصر من الله عاجل وفتح فتوح، إمام عادل يقر الله به أعينكم ويذهب بحزنكم ويكون فرقانا من الله بين أوليائه وأعدائه».

الإمام على يفسر ما حدث لأمريكا إذن، يقدم الأسباب العلمية ويطرح الأسباب الإجتماعية.. وكأنه موجود بيننا، ولا استطيع أن أشكك فى وجود رق الغزال القديم الذى وردت فيه نبوءة الإمام على، ولكنى أشكك فى نسبة النبوءة إليه من الأساس، عيسى داود اقتنع بحديث الإمام على وقدم على ظلاله ثمانية لوحات ليفسر من خلالها أن أمريكا هى المقصودة- وجاءت اللوحات كالتالى:

الأولى: هبوط كويكب على أرض الأمريكان عندما تشيع فاحشة اللواط.

الثانية: رضا الحاكم الأمريكى بإسالة الدم البرىء فى القدس ويتجاوز الرضا إلى حد إعانة الظالم.

الثالثة: مائدة اليهود رمز لمكان تواجدهم المعلن للدنيا وهو فلسطين وفيه اشارة لطيفة إلى أنها ليست أرضهم، إنما مثل مائدة وضعت وليمة عليها، وهو ما حدث فقد أهدتها انجلترا وأمريكا لإسرائيل دون سند من حق أو عدل، والطير الدسم هو الطائرات الضخمة والبخت هو الإبل العظيمة هنا بمعنى أن حجم هذا الطير أضعاف الجمل حجما أو لعل المعنى أن حجم الطائرة هو حجم مجموعة عظيمة من الإبل، كما أن البيض المكنوز سما ونارا هو القنابل الكيماوية والقنابل الذرية وغير الذرية، فهذا الكلام- عفوا- فارغ فخيال الإمام على لم يكن ليصل إلى الطائرات والقنابل الذرية إلا إذا كان مطلعا على الغيب وفيما نعلم أنه لم يكن مطلعا على الغيب!.

الرابعة: نار عظيمة تأكل فى «الحطب الجزل غربى الأرض»، وتصوير أمريكا بأنها منطقة ثرية من الحطب هو تلوين للصورة بحقيقة ما سيحدث، فثراء أمريكا سيتآكل فى هذه الكارثة، وتكون غاباتها العظيمة كتلة من اللهب وترتج أرضها رجا بسبب الهدة العظيمة التى تأثر بها كل أرض الله، كذلك تشتعل النيران بآبار البترول هناك وهى الحطب الجزل، سيكون ضربة فى فؤاد أمريكا.

الخامسة: الهدة لها صوت مخيف كأنه زئير الأسود الرهيبة القوة لدرجة تخلع القلوب من أماكنها، وأول من تفتك به أهل الشذوذ فى أمريكا كالمصارعات اللائى يربين العضلات، بعضهن يتركن حتى شعر الشارب فى مشهد منفر بغيض، أما الرجال الذين هم كالجبال فيعنى بهم الذين يملكون مقادير الأمور فى أمريكا. ويظنون أن تزول الجبال ولا يزولون، وكذلك مراكز القوة فى أمريكا، وجيوش كاملة يتسم رجالها بانتفاخ العضلات.

السادسة: اشتهار أمريكا بالزنا والعهر وتصدير الفساد الجنسى لكل شعوب الأرض عن طريق وسائط من اليهود وغيرهم، وبالفعل فإن لوحات الدعاية والجذب على محلات الدعارة المقننة فى أمريكا أغلبها يرتفع بلمبات من الألوان الوامضة الجاذبة للانتباه.

السابعة: أن هذه البلاد تتعرض للفتك والنار والحرق والغرق والطوفان وأمطار السماء لهم بالكويكب الرهيب ولهب وشهب العذاب.

الثامنة: توقيت الكارثة حسب أحاديث سيدنا محمد فى موقع الحديث وبؤرته يعنى بعد مضى ساعات من دخول الليل وهو يوافق وقت الضحى فى البلاد العربية وأغلب الإسلامية، وكلام سيدنا على يؤكد أن الهدة ستكون فى ليل أمريكا وضحى البلاد العربية.

ختم عيسى داود لوحاته الثمانية بقوله والله تعالى وحده الأعلى والأعلم العليم بحقيقة ما سيكون، فإنه مقتنع الآن أنه تنبأ بما حدث لأمريكا، وأن نهايتها أصبحت على الأبواب وأن ما حدث مجرد مقدمات للحادث الكبير.

يحاول عيسى داود أن يكون باحثا عقلانيا بعض الشىء.. فيطرح تساؤلا مهماً هو.. هل حدثت هدة بالأرض مشابهة من قبل حتى يزول عجبنا من حدوث واقعة كونية هائلة تدمر بلادًا من الكرة الأرضية وتفنى شعوبا، ويجيب داود قائلا: لو قلنا إن هناك واقعة ما تأكد العلم من فرضيتها أنها وقعت منذ ٦٥ مليون سنة، فهذا يعنى أنها واقعة دورية، بمعنى أنها ستتكرر مرة أخرى، أو على الأقل لا يوجد ما يمنع تكرارها فى زماننا هذا، خاصة أن دواعيها وأسبابها أنذرت بها نذر السماء، وتأسيسا على هذا يكون معنى كلامنا بأن أمرا ما وقع منذ ٦٥ مليون سنة هو أمر موغل جدا جدا فى القدم. هو تصور يغلفه وهم قياس عمر النظام الكونى بأعمارنا نحن المحدودة فلا يصح القياس.

ويوضح عيسى داود بعد استعراض بعض المعلومات العلمية والقياسات الفيزيائية، أن

الكويكب الذى سيصطدم بأمريكا ويحطمها وهو يتوجه إلى الأرض عموديا سينتج موجات ضغط تبدأ فى الوصول إلى الأرض كهدير طويل مباشر عقب الإصطدام، وسيستمر وصوله عددا من الثوانى يعادل طول الرحلة التى قطعها الكويكب خلال الغلاف الجوى، ويرى مؤلفنا من وجهة نظره طبعا أن السر فى وصية النبى أن يدخل الناس بيوتهم، وأن يغلقوا أبوابهم بإحكام وأن يسدوا كواهم أى المفتوح من النوافذ والطاقات، وأن يغطوا أنفسهم وأن يسدوا آذانهم، فإذا أصبح الإحساس بالكارثة متيقنا فليخر الناس سجدا ويسبحوا الله ﷻ باسمه القدوس لأن من خواصه صرف الكوارث وآثارها.

الهدة التى يتحدث عنها كتاب المفاجأة سينفجر معها قدر هائل من الطاقة يقدر بحوالى «١٠٠٠ مليون» أرج لكل سنتميتر مربع فى سطح الأرض كلها، ولكى يبسط العلماء هذا المقياس قالوا إنه يعادل تفجير «١٠٠ ترليون/طن» من مادة T.N.T شديدة التفجير أى مائة مليون مليون طن، وكى ندرك معنى الهدة- يقول داود: إن القنبلة الذرية التى ألقيت على نجازاكى في أغسطس سنة ١٩٤٥ انفجرت بقوة تساوى ٢٠ ألف طن، وهذا يعنى أن قوة انفجار هذا الكويكب ستكون بقوة ٥٠٠٠ مليون قنبلة كقنبلة نجازاكى، ويعنى هذا أنه لو أن الطاقة المتفجرة بسبب هذا الكويكب توزعت على سطح الأرض كله بالتساوى وهو ما لن يحدث لحسن الأقدار، فسيكون نصيب كل كيلو متر مربع من سطح الأرض عشر قنابل ذرية فى قوة قنبلة نجازاكى.

ما قاله داود رهيب وشىء يفوق الخيال.. ولكنه بكل تواضع! يقول إن هذا المشهد الرهيب يظل أبعد بمراحل برغم كل ما قدمناه من أرقام عن أية خبرة بشرية أو علم بشرى وليس أمامنا إلا أن نقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله عليها نحيا وعليها نموت.. ونسأل الله حسن الختام».

«لا يمكن إخضاع نبوءات عيسى داود للعلم ولا حتى للخيال، ولكن من الأصلح أن نخضعها للتفسير النفسى، فالمؤلف مثلنا جميعا ننتظر قوة مجهولة كى تخلصنا- ونحن فى انتظارها نحاول أن نخترعها، نضيف إليها ونحذف منها، نلصق بها الأساطير حتى تبدو ضخمة ورهيبة، نرى أن أمريكا قوية.. فنخترع لها فى أذهاننا الأقوى منها، وحتى نريح أنفسنا نستعين على ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ونفعل المستحيل حتى نأولها تأويلا يتناسب مع احتياجاتنا التى يعمها العجز ويغطيها الفشل.

كل ما يفعله عيسى داود أنه يصدر للعاجزين نبوءات لا دليل عليها حتى يخفف معاناتهم ويزيل علامات إحباطهم وإشارات يأسهم، يجعل أمريكا الجبارة تنهار بحديث، ويفنى اقتصادها برق غزال عليه نبوءة للإمام على وهذه هى الكارثة!.

ليلة الدخلة ....
فى أغانى الجماعات الإسلامية !

ليلة الدخلة فى أغانى الجماعات الإسلامية!

أنت تعرف بلاشك الأغنية الدينية.. سمعتها من أم كلثوم عندما غنت القلب يعشق كل جميل لبيرم التونسى وولد الهدى لأحمد شوقى والثلاثية المقدسة لصالح جودت، وسمعتها من عبد الحليم حافظ عندما غنى مجموعة أدعيته الرائعة العمق والخشوع والتى كتبها عبد الفتاح مصطفى، سمعت محمد عبد الوهاب وهو يغنى «أغثنا يا رسول الله» ونجاة عندما غنت لأحمد شفيق كامل «أنا فى رحابك أنا.. أنا فى الرحاب» ثم أغنية شادية الشهيرة التى كتبتها علية الجعار «خد بإيدى» والتى أصبحت فيما بعد أغنية التوبة التى بسببها اعتزلت شادية الفن والغناء وأهلهم جميعاً!!.

نستطيع أن نعدد مئات الأغنيات الدينية التى تغنى بها مطربون ومطربات بل هناك من يغلب على أغانيهم الطابع الدينى الخالص مثل أغنيات محمد الكحلاوى وأشهرها مثلاً «أنا فى جاه النبى» وحب الرسول يابا» وياسمين الخيام وهى إن عددت أغنياتها الدينية فستتعب قبل أن تنتهى من عدها.

الأغنية الدينية إذن موجودة وبغزارة، وإن كانت لا تعنى مطلقاً أن الذى يغنيها أو يؤديها له سمات شخصية معينة كأن يكون معروفاً عنه «أو عنها» التقى والصلاح والصلاة والصوم وكافة شىء من العبادات فليس شرطاً أن يكون مغنى الأغانى الدينية بتاع ربنا حسب تعبير البسطاء عن الرجل التقى أنه راجل بتاع ربنا، لكن يمكن وبمنتهى البساطة أن يؤدى الأغنية الدينية شخص بعيد كل البعد عن ربنا، «راجع مغامرات أسمهان العاطفية وسلوكها الشخصى، ثم راجع خشوعها وتبتلها وهى تؤدى أغنية «عليك صلاة الله وسلامه».

فالمطرب «أو المطربة» يقدم أغانى دينية لعدة أسباب منها مثلاً أنها تحقق التنوع الذى يجب أن يحرص عليه المطرب، فكما يغنى «عاطفى» و«وطنى» فهو يغنى «دينى» وقد يكون السبب أن هناك مناسبة معنية ويجب أن يغنى فيها المطرب «أو المطربة» الليالى المحمدية العديدة مثلاً، فهذه الليالى تتطلب أغنيات دينية حتى لو كان خط المطرب بعيداً كل البعد عن الغناء الدينى، ثم قد يكون السبب أخيراً هو حرص المطرب على كسب فئة جديدة لمستمعيه ولجمهوره، عمرو دياب مثلاً غنى فى شهر رمضان منذ سنوات مجموعة أدعية فى إذاعة الشرق الأوسط كتبها مجدى النجار ولحنها حميد الشاعرى وكان يؤديها بعد دعاء قصير

للشيخ الشعراوى، وأضاف عمرو بذكائه إلى جمهوره من المراهقين والمراهقات عدداً كبيراً من مستمعى الغناء الدينى!.

كان لابد من هذه المقدمة الطويلة العريضة قبل أن ندخل بك إلى هذا النوع من الغناء الذى يمكن أن نعتبره غناء دينياً خالصاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. يعرفه أعضاء الجماعات الإسلامية على اختلاف ألوانهم وتوجهاتهم، وكذلك جماعة الإخوان المسلمين.

يجوز لنا أن نسميها «أغانى الجماعات الإسلامية» فكما لهم أفكارهم وأورادهم وأذكارهم وأهدافهم.. لهم أيضاً أغنياتهم وكان لابد من التنويه بوجود أغنيات دينية عامة لنعرف موقع أغانى الجماعات الإسلامية بالضبط، وهل يمكن بعد ذلك أن نعتبرها جزءاً من الغناء المصرى فيهتم بها مؤرخو الموسيقى والغناء ويتصدى لها بالنقد المتخصصون.

بداية ليس هناك بين أعضاء الجماعات الإسلامية مثلاً أفراد يمكن أن نطلق عليهم مطربون، ويتعامل معهم الآخرون على هذا الأساس، فهم يرفضون من الأساس تسمية المطرب؛ لأن المطرب من التطريب، والطرب لا محل له عند الجماعات الإسلامية التى تسعى جاهدة لمحاربة أعداء الدين الذين لا يكفون ليل نهار عن تدبير المؤامرات لتدميره «!!» وعلامات التعجب من عندنا الطبع، وثانياً لأن أغانى الجماعات الإسلامية يستطيع أى فرد أن يحفظها ويرددها بعد ذلك بصوته بصرف النظر عن كون هذا الصوت جيداً أو رديئاً، هذا لا يمنع بالطبع أن الجماعات الإسلامية تعرف أسماء مثل عماد رامى وطارق أبو زياد وزين العابدين أبو عابد وزين العابدين الكحكى وأبو البشر على أنهم المؤدون الأشهر لأغانى الجماعات. وهم كما قلنا يرفضون مسمى مطرب ويفضلون أن تسبق أسماءهم كلمات مثل المنشد أو كما يكتب على شرائط الكاسيت التى تحمل أغنياتهم أداء فلان أو إنشاد علان.

يختلف مؤدو أغانى الجماعات كذلك عن المطربين العاديين فى أنهم يرفضون أن يضعوا صورهم على أغلفة الشرائط فهم يكتفون ببعض الرسومات التعبيرية التى تحمل بعض معانى الأغنيات ولذلك لا يستطيع أى بائع شرائط أن يصف لك أى مؤد من هؤلاء فهو يسمعهم فقط، ثم ماذا يعنيه من صورهم مادامت شرائطهم تباع.

شىء آخر تختلف فيه أغانى الجماعات الإسلامية وكلها دينية عن الأغانى الدينية التى يؤديها مطربون، فالأخيرة تتركز فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، تعظيما من شأن الإسلام

وتمجيداً له، إظهار الحب والطاعة لله، التأكيد على أننا طائعون أبد الدهر ولن نخرج من زمرة المخلصين، فهى أغنيات تهتم بالمعانى العامة فى الإسلام ولا تعرض مطلقاً لما يعاصره المسلمون من أحداث، اللهم إلا إذا اقتحم الناس حادث جلل مثلما حدث بعد غزو العراق للكويت، فقد تحولت الأغنية الدينية إلى مرثية لما يحدث بين المسلمين واستطاعت ياسمين الخيام بأغنيتها «أمتك يا محمد يا ابن عبد الله» وعبد الله الرويشيد بأغنيته «اللهم لا اعتراض» اللتين كتبهما عبد الرحمن الأبنودى ولحنهما جمال سلامة أن يرغما الجميع على البكاء، كان هذا فى الليلة المحمدية السادسة، ولكن سرعان ما عادت ريمة لعادتها القديمة وعادت الأغنية الدينية لسابق عهدها من الإهتمام بالمعانى العامة المجردة مثل الحب والإخلاص والتسامح والرحمة.. وضع أى معنى عام ومجرد وستحصل على أغنية دينية تعبر عنه.

الأمر يختلف عند الجماعات الإسلامية فهم يعرفون ما يفعلون لأنهم حددوا هدفهم منذ البداية فالأغانى عندهم لها صفة واحدة، فعندما يتحدثون عن الحب والزواج فالأغنية دينية، وعندما يتحدثون عن الأوطان وحبها- الأوطان بمفهومهم أيضاً- فالأغنية دينية وعندما يعرضون لما يحدث فى الأقطار الإسلامية من قتل واغتصاب وتشريد فالأغنية دينية كذلك، وعندما نضع أمامك أسماء بعض ألبوماتهم ستتأكد من ذلك، خذ عندك «أقدار» و «جاهدوا» و «رحلة شهيد» و «يا عابد الحرمين» و «أباهى الدنيا» و «رددى يا جبال» و «الرهينة» و «ثوار» و «أنا الفقير إليك» و «الأقصى ينادينا» و «نادى المسجد» و «دعانى» و «داعى السلام» و «نحن جنة الله» و «أعيدوا مجدنا» و «الفاتنة» و «محلى الليلة» و «الفرح جانا» «مرحباً».

فى هذه الأغانى- رغم أن بعضها يطربك لحلاوة ونداوة أصوات مؤديها- لكنك ستشعر أنك فى محاضرة يلقيها عليك أحد الدعاة الكبار فى الجماعات الإسلامية فهم ينقمون فى أغنياتهم على أوضاع المجتمع الفاسدة التى تحاصر الشباب المسلم- شريط الفاتنة- وهم كذلك يتباكون على تخاذل المسلمين شعوباً وحكاماً فى إنقاذ الشعوب الإسلامية التى تعانى من اضطهاد الكفرة- شريط الرهينة- الذى تدور أغنياته حول مأساة المغتصبات فى أرض البلقان وهو الشريط الذى يلقى رواجاً كبيراً منذ نزوله للأسواق فتوزيعه يحتل المرتبة الأولى فى قائمة توزيع شرائط أغانى الجماعات.

والمعلومة على مسئولية موزعى هذه الشرائط الموجودين أمام مسجد الجمعية الشرعية فى ميدان الجيزة.

وهم كذلك- مؤدو هذه الأغنيات- يصبون جام غضبهم على حكام البلاد الإسلامية الذين أضاعوا مجد الأمة وهيبتها وفرطوا فيها دون خجل أو حياء.. شريط أعيدوا مجدنا وشريط الأقصى ينادينا وهو نفس ما كان يردده الشيخ كشك فى خطبه وردده بعد ذلك عمر عبد الكافى ويردده الآن محمد حسان ومحمد حسين يعقوب بصور مختلفة.. كل له طريقته وأسلوبه.

هذا التشابه بين الشيوخ والمغنيين يؤكد- وإن كان الأمر لا يحتاج إلى تأكيد- أن الجماعات الإسلامية بجميع أعضائها يسعون إلى تحقيق أهدافهم التى وضعوها فى كتبهم ومنشوراتهم وجلسات تأسيسهم، فهم يهدفون إلى خلق مجتمع مسلم «!!» يخالف المجتمع الحالى مجتمع الجاهلية والكفر.. وفى هذا السبيل استقطبوا الخطباء الشباب والنساء ليدعموا ويساندوا هذه الدعوة.

ولأن كثيراً من شباب الجماعات حاصرهم الملل، بالإضافة إلى الهجوم الذى لاقته هذه الجماعات من أنها تحرم الفنون وتحيل الحياة إلى جحيم.. فبدأت قيادات الجماعات فى التفكير للمحافظة على شبابها ومحاولة نفى الصورة الذهنية التى بدأت تترسخ عنهم فى عقول العامة والبسطاء، وظهرت أغانى الجماعات، وأقيمت حفلات الزفاف الإسلامية التى استبدلوا فيها الأغنيات الماجنة.. حسب تعبيرهم بالأغانى الإسلامية الوقورة التى تصاغ على القرآن والسنة وتراعى آدابهما وأخلاقياتها.

وبدأت هذه الأغنيات فى الانتشار كما تنتشر النار فى الهشيم، وبدأ شباب الجماعات الإسلامية يرددون هذه الأغنيات فى كل مكان يتواجدون فيه ففى حفلات الجامعة يردد الشباب الأغنية «رددى يا جبال.. رددى يا سهول» وفى معسكرات الجوالة التى يحرصون عليها يرددون أغنية «ثوار» وأعيدوا مجدنا» وفى حفلات الخطوبة والزفاف يرددون أغنيات محلى الليلة- وافرح يا عريس.

فى سبيل تحقيق الجماعات لأهدافها يحاول كتاب ومؤدو هذه الأغنيات اختيار كلمات سهلة وبسيطة ورغم أنه من المفروض أن تهتم هذه الجماعات باللغة العربية الفصحى فهى لغة القرآن، لكنهم يكتبون أغنياتهم بالعامية وإن كانت عامية دون ابتذال.. اسمع مثلاً:

جوه الحياة كلنا يا أهل الصلاة والصَوْم

ما شيين فى نور ربنا نده على المقسوم

وإن هل نور فرحنا تنسى العيون النوم

ولا يتورع أصحاب هذه الأغانى عن تضمين بعض الآيات القرآنية فى أغنياتهم. اسمع أيضاً:

ملك الملوك قال فى الآيات.

«الطيبين للطيبات»

وفى اللى فات وفى كل حين

«المؤمنين للمؤمنات»

وهو الشيء الذى لو فعله غيرهم لأقاموا الدنيا عليه ولم يسمحوا لها أن تقعد، ولعل ما حدث لمارسيل خليفة عندما غنى نصاً كتبه محمود درويش بعنوان «أنا يوسف يا أبى» جاء فيه «عندما مر النسيم ولاعب شعرى- غاروا وثاروا علىّ وثاروا عليك- فماذا صنعت ليم يا أبى- أنا يوسف يا أبى- يا أبى إخوتى لا يحبوننى- لا يريدوننى بينهم- يعتدون على ويرجموننى بالحصى- يريدوننى أن أموت لكى يمدحونى- وهم أقفلوا باب بيتك دونى-وهم طردونى من الحقل- وهم سمموا عينى يا أبى- أنا يوسف يا أبى الفراشات حطت على كتفى والطير حلق فوق يدى، فماذا صنعت أنا يا أبى- وماذا أنا- أنت سميتنى يوسف يا أبى- وهم أوقعونى فى الجب- واتهموا الذئب- والذئب أرحم من إخوتى- أبتى أبتىَ يَا أَبتِى هل جنيت على أحد عندما قلت «إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» لعل ما حدث له من محاكمة ومطاردة يؤكد أن هذه الجماعات سواء كانت فى مصر أوغيرها ترغب فى احتكار الدين، فهى تمنع على الآخرين تضمين بعض الآيات القرآنية فى أغنياتهم ويستبيحون لأنفسهم ذلك رغم أن ما رسيل عندما جاء عند الآية القرآنية أوقف الموسيقى تماماً وأدى الآية بمنتهى الوقار.

تحرص أغنيات الجماعات على أن ينشأ الناس على تعاليم الدين الإسلامى فهم يحضون على أن ينشأ العروسان على دين الله.. اسمع:

أحسن من كده إيه تانى..

حب وإخلاص وتفانى

عروسين الله يحميهم..

نشأوا على الدين الغالى..

ولأن الجنس والمرأة يحتلان مكاناً مهما للغاية فى فكر الجماعات فهم يغنون للعروس العفيفة التى لم يرها أحد من قبل، وإن كانوا يرسخون لمعنى قد يكون خطير للغاية وهو أن يقبل الآباء تزويج بناتهم لشباب حتى ولم لم يكن للشباب مصدر رزق معلوم ومحدد.. أسمع:

إدينى اللى أنا حاسعد بيها..

وما تقولش منين حتكفيها..

دى النملة العاطى بيديها.

رزقها فى العرش المدارى..

ورغم أنهم يحرصون على الفتاة الشريفة العفيفة لكنهم لا يغنون لها مطلقاً ولا يأتون بسيرتها مطلقاً.. أسمع..

دعوة من القلب وجماعتنا..

نفرح باخونا وحبيبنا..

ونشاركة الحب فى يوم عيده..

بالورد وبالحنة نزفه.

وهم يطلبون من العريس أن يفرح.. دون اقتراب من فرحة العروسة اسمع:

افرح يا عريس دا اليوم يومك

كل الأحباب بيبركولك

والحب أهو خبط على بابك..

أفرح واتهنا بمحبوبك..

لا نريد أن نحمل الموضوع أكثر مما يحتمل ونقول إن هذه المعانى تعكس صورة المرأة عند الجماعات الإسلامية وإن كانت بالفعل كذلك فالمرأة دائماً فى خلفية الصورة، ليس لها رأى فى زواجها، يزوجها وليها، وهى للاستمتاع ولإعانة الرجل على تحمل المصاعب وأداء رسالته فقط! !.

هذه الأغانى يؤديها أصحابها بدف أحياناً وبدون دف، حيث يعتبر الدف أحد مميزات الأغانى التى يوجد فيها ودليل ذلك أن الشركة المنتجة لهذه الشرائط تكتب عليها بدف أو بدون دف، هذا لا يمنع المؤدون فى الأغانى التى بغير دف أن يلحنوا الأغنية ويصلوا بين مقاطعها بلزمات صوتية لحنية مثل «الله.. الله.. الله» أو «ها.. ها.. ها.. آه.. آه.. آه» وهم يفعلون ذلك بتلوين صوتى يشبه إلى حد كبير نغمات الترانيم التى تتلى فى الصلوات الكنسية.

وإن كانت هناك طريقة أخرى يتغلب بها المؤدون حيث يؤلفون كلمات مماثلة لكلمات أغانى شهيرة ويستغلون لحنها الذى يعرفه الناس مثل أغنية على حميدة الشهيرة «لولاكى.. لولا.. لولا.. لولا..» التى تحولت عندهم إلى «إسلامنا.. عالى.. عالى.. عالى».

بقى أن نسأل عن جمهور هذه الأغنيات.. من يستمع إليها من يشترى ألبوماتها؟.. الإجابة قالها لنا بائع شرائط متخصص فى بيع الشرائط الدينية بأنواعها الثلاثة «القرآن- الخطب- الأغنيات» فقط، قال: أكثر الذين يشترون هذه الشرائط هم الشباب والحريم «والكلمة بتعبيره» سواء كن شابات صغيرات أو سيدات كبيرات، أما كبار السن فهم يهتمون أكثر بشرائط القرآن والخطب والمواعظ.

جمهور هذه الأغانى من الشباب يشترونها ويهدونها لأصدقائهم ليؤكدوا لهم كما قال لنا أحد طلبة الجامعة أن الإسلام فيه أشياء جميلة.. وهو لا يحرم الفن كما يقول البعض.. بل فيه أغانى واحتفالات.. هكذا قال.. لكن من قال إن كل ما يقال حق.. أو أن كلام الناس يعبر عن أفكارهم الحقيقية.

الله .....
كما يراه المثقفون !

الله.. كما يراه المثقفون!

وضع الإسلام حدود علاقتنا بالله.. وهى علاقة تقوم على أنه ليس مع أمر الله لماذا؟، علاقة نظمتها الآية الكريمة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، ليس لنا أن نتجاوز لا فى العلاقة ولا فى الحديث عنها.. فالله منه الأمر وعلينا الطاعة، منه النعمة وعلينا الشكر، يمنحنا فرصة العمل فى الدنيا.. ثم يكون له حق حسابنا فى الآخرة.

هذا الشكل من العلاقة بيننا وبين الله الذى نحسه دون أن نراه، ليس معتادا عند الجميع فقد خضعت الفكرة لمناقشة طويلة عمرها من عمر الحياة.. لن استعرض كل شىء.. ولكنها سطور قليلة فى كتاب الفكر الإنسانى، فالعقاد الذى ألف كتابا عن «الله».. لخص موقفه من الله ﷻ بجملة مكثفة رائعة.. قال «كلما رأيت جمالا فى الكون قلت لا يستحق هذا الجمال إلا إله، وكلما رأيت نقصا فى الكون قلت لا يستطيع أن يكمل هذا النقص إلا إله، الإيمان عند العقاد كان مطلقا.. فكل ما فى الكون من جمال يستحقه الله، وكل ما فيه من نقص لابد أن يكمله الله.

هذه الفكرة المطلقة جعلت العقاد لم يقصر الله على المسلمين فقط، فالديانات الثلاث تنادى بالله الواحد.. اليهودية توحد الله والمسيحية توحد الله أيضا وترى له مدلولات أو هيئات أخرى هى الأب والابن والروح القدس إله واحد، والإسلام هو دين الوحدانية الكاملة، وقد جاء ترتيب هذه الديانات على هذه النحو متمشيا مع قدرة العقل الإنسانى على قبول المعنى المجرد، أى على قبول الإله الواحد، وفى الديانة اليهودية يرون الله واحداً، لكنهم يجسدونه فى بعض الأحيان ويرونه، وكتبهم تقول إن بعض الحكماء كانوا يناقشونه وأحيانا يلومونه بعنف، وهذا يدل على أن العقل الإنسانى ليس قادراً على تصور إله ذى قوة مطلقة حاضرة حضوراً مطلقا وعليما علما لا نهائيا.

الكلام عن الله فى عرف العقاد.. تحول إلى محاولة لرؤيته والحديث معه عند توفيق الحكيم.. ففى مجموعته القصصية «أرنى الله» يؤكد أن نصف ذرة من نور الله تكفى لتحطيم تركيبنا الآدمى واتلاف جهازنا العقلى– لكن ما حدث عام ١٩٨٣ كان شيئا آخر.. ففى أواخر

شهر فبراير عام ٨٣ نشرت الأهرام خبرا فى صحفتها الأولى يؤكد أن الكاتب الكبير توفيق الحكيم قرر أن يتفرغ للذات فلا يتحدث إلا مع الله من خلال فترات مناجاة، فهو يقول لله: لم يبق لى وأنا فى أخر أيامى غيرك وليس غيرك من أحب الحديث معه، وأن يكون آخر ما أكتب هو هذا الحديث ولا يسقط القلم من يدى إلا وهو يخط اسمك الأكرم.. أسألك أن يكون حديثى فى كل شيء شاهدته وفكرت فيه أثناء إقامتى فى هذه الدنيا دون حرج.

وعدت الأهرام قراءها أن تنشر حديث توفيق الحكيم مع الله كل يوم ثلاثاء. وفى أول مارس نشرت الحلقة الأولى بعنوان «حديث مع الله» وإلى جواره صورة كاريكاتورية للحكيم يقف على سحابة فى السماء، وتحت أقدامه بعض الكتب يضع يدًا فى جيبه والأخرى رفعها فى الفضاء.. وكانت هذه هى كلمات الحكيم «هذا الحديث مع الله لم أر مانعا من نشره بإذن الله طبعا، فأنت تعرف يا ربى أنه لم يبق لى وأنا فى آخر أيامى غيرك وبإذنك أسألك أن يكون حديثى فى كل شيء شاهدته وفكرت فيه أثناء إقامتى فى هذه الدنيا دون حرج وأن تقوينى على نشره فى حلقات أسبوعية كل حلقة يوم ثلاثاء..

ويفصل الحكيم كيف تم هذا الحديث يقول: لن يقوم بيننا حوار يا رب إلا إذا سمحت أنت بفضلك وكرمك أن أقيم أنا الحوار بيننا تخيلا وتأليفا وأنت السميع ولست أنت المجيب، بل أنا فى هذا الحوار المجيب عنك افتراضا، وإن كان مجرد حديثى معك سيغضب بعض المتزمتين لاجترائى- فى زعمهم- علي مقام الله ﷻ، خصوصا وحديثى معك سيكون بغير كلفة، لا اصطنع فيه الأسلوب الرفيع اللائق بارتفاعك ولا بالوصف العظيم المناسب لعظمتك فأنا سأخاطبك مخاطبة بعض المؤمنين بنبيك ﷺ عما إذا كانوا سيرونك فى الآخرة، لم يرد أن يخيب أملهم، فلم يقل لهم كيف ترون من ليس كمثله شيء، وكيف وأنتم شيء أن تدركوا من ليس بشيء؟ وكيف وأنت بشر ترون بعيونكم البشرية ما لا تراه العيون..

ظل توفيق الحكيم يتحدث حتى حدث العجب، فقد وقع ما كاد يجعله يغشى عليه دهشة، فقد سمع ردًا من الله أو خيل له ذلك وهو ما جعله يعتقد أن الله موافق على إجراء الحوار، فاستأذن الحكيم من الله ألا يتخذ الحديث شكل الأخذ أو الرد أو الحوار حتى لا يطغى سرده، فلا يبرز جوهر المسائل، وافق الله كما يقول الحكيم بل قال له سبحانه: قل على لسانى ما تشاء وأنت تعلم أنه ليس لى لسان مثلكم، ولكن انسب وتخيل وألف: على أن يكون ذلك كله على مسئوليتك وتحاسب عليه يوم الحساب.. فهمت».

قامت الدنيا على رأس توفيق الحكيم، دعاه الشيوخ إلى مناظرة حتى يقنعوه بفساد ما فعله، ويبدو أن الرياح كانت عاصفة.. لأن الأهرام عدلت عنوان حوارات الحكيم من حديث مع الله إلى «حديث إلى الله» من الجائز أن تتحدث إلى الله وتدعوه. ولا يجوز أن تتحدث معه، خاصة إذا كان الحديث على طريقة توفيق الحكيم.. الذى اعتبر نفسه والله أصدقاء يجوز أن يجرى بينهما حوار ودى.

كان حديث الحكيم إلى الله سببا فى قطيعة بينه وبين عدد كبير من الشيوخ وعلى رأسهم الشيخ الشعراوى، لكن تشاء الأقدار ألا يموت توفيق الحكيم إلا بعد أن يزوره الشعرواى، كانت الزيارة فى مستشفى «المقاولون العرب».. لم يطمئن الشعراوى على صحة توفيق الحيكم فقط.. ولكنه أهداه سجادة صلاة ومصحفا.. وهى هدية معقولة من ناحية الشعراوى.. لكن ماذا فعل بها الحكيم- الله أعلم.

كثير من الأدباء والمثقفين.. يقرأون القرآن ويتعمقون فى معرفة أصول وقواعد الإسلام، لكنهم لا يعملون ذلك بغرض التعبد والتقرب إلى الله، فهم لا يبنون علاقتهم بالله على العبادة بقدر ما يبنونها على المعرفة، فإحسان عبد القدوس كان يؤمن بأن الأديب الذى يكتب بالعربية، لكى يستقيم له جمال العبارة وموسيقى الجملة يجب أن يوثق صلته بالقرآن قراءة ودراسة، وهذا ما حدث له بالفعل، فقد قرأ القرآن عشرات المرات بحكم نشأته مع جده العالم الأزهرى، وعندما أصيب بحالة نفسية وهو فى السابعة عشرة من عمره ألزمته الفراش فترة طويلة، تخلص مها بقراءة القرآن ثلاث مرات متوالية كعلاج نفسى، ثم بدأ بعد ذلك يقرأ القرآن قراءة الدراسة والتذوق لجمال عبارته والإحساس بموسيقاه التى لا تدانيها موسيقى.

موقف إحسان عبد القدوس من القرآن يعتنقه الكثيرون.. فهم يعرفون لا من أجل الوصول ولكن يمكن أن نقول إن كل شيء عندهم وظيفى الإسلام والقرآن.. والله أيضاً .. كنت أجرى حوارا مع الكاتب الكبير حسين أحمد أمين، وهو كاتب يقدم فى كافة وسائل الإعلام المرئية والسموعة والمقروءة على أنه كاتب إسلامى.. قلت له- ما رأيك فى مستوى خطباء المساجد، قال لى دون تفكير.. زفت! حسبت أن هذا الحكم القاطع الذى وصل إليه حسين أحمد أمين عن تجربة ومتابعة دءوبة لخطباء المساجد.. سألته أين تصلى الجمعة يا أستاذ حسين.. فرد على بنفس الحسم.. أنا لا أصلى الجمعة أصلا، لم ينشر هذا الحوار فى أى صحيفة فقد كانت به من الآراء ما يقلب الدنيا على رأسى ورأس صاحبها- لكنى وضعت علامة استفهام

كبيرة– وهى أن هناك عددا كبيرا من مثقفينا وكبار كتابنا يملكون معرفة عميقة بالدين وحقيقة الله.. لكن هذه المعرفة لا تقودهم إليه.. لا تجعلهم يقفون بين يديه.

التعالى على العلاقة الخاصة بين الله والإنسان تصل أحيانا إلى درجة الاعتداء، د. نوال السعداوى روت قصة حادثة هجوم الدورة الشهرية عليها وهى مازالت طفلة صغيرة قالت: لا أدرى ماذا حدث لى وأنا أقفز، أحسست برجفة عنيفة تسرى فى جسدى ودوار فى رأسى ورأيت شيئا أحمر اللون، ما هذا؟ انخلع قلبى من الهلع وانسحبت من اللعب وصعدت إلى البيت وأغلقت على نفسى باب الحمام لأبحث فى الخفاء سر هذا الحادث الخطير، ولم أفهم شيئا، وظننت أن الأمر مرض مفاجئ ألم بى، وذهبت إلى أمى أسألها فى ذعر، ورأيت أمى تضحك فى سعادة، وتعجبت كيف تقابل أمى هذا المرض الفظيع بتلك الإبتسامة العريضة، ورأت أمى دهشتى وحيرتى فأخذتنى من يدى إلى غرفتى حيث قصت على قصة النساء الدامية.

لم تأخذ نوال السعداوى ما حدث معها على أنه أمر طبيعى، ولكن رسخ فى ذهنها من ذلك اليوم أن المرأة مظلومة دائما وصكت عبارة عنيفة فى وقعها لابد أنك ستندهش عندما تقرأها فهى تقول تعليقا على حادثى الختان والعادة الشهرية إن الله لابد يكره البنات فوصمهن جميعا بهذا العار وشعرت أن الله تحيز للصبيان فى كل شىء.

تعليق نوال السعداوى الذى يحمل اعتراضا من زاوية معينة يضعنا أمام رؤية مصطفى محمود الصوفية لله، فهو لا يراه خالقا فقط– ولكنه يتعامل معه على أنه صانع ماهر وفنان مبدع، وموسيقار عظيم، وطبيب عظيم، ومهندس متمكن، وزارع متقن، وبحار مسيطر، وسائق منتبه، وكاتب عميق.. فهو خالق كل شىء.. ومجيد لكل شىء، قال مصطفى محمود ذلك نصا فى كتابه «الله والإنسان» الذى صدر فى بداية الخمسينيات وكان الكتاب الوحيد الذى صودر فى عصر عبد الناصر، يقول د. مصطفى: إن الله عند جدى يتمثل فى شخص طيب رحيم غفور تواب، يداوى الروماتيزم ويقوى المفاصل، وهو عند أمى مأذون يجمع رؤوس بناتها على رءوس عرسان أغنياء فى الحلال، وهو عند الأطفال عروس المولد، وهو عند أينشيتن معادلة رياضية وقانون تخضع له الأشياء بالضرورة، وهو عند عاشق مثلى حب، وهو عند مشايخ الصوفية وزير أوقاف يوزع الكساء، وهو عند الملحد موضوع دراسة وعند المؤمن موضوع عبادة، وهو دائما شىء حتى عند الذى ينكره.

ظلت هذه الرؤية مصاحبة لمصطفى محمود فى فترات شكه وفى فترات يقينه، ففى كتابه «حوار مع صديقى الملحد» وفى صفحة ٨ يقول: السببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان، والله خلق الزمان والمكان ولا يصح لنا أن نتصوره مقيدا بالزمان والمكان، ولا بقوانين الزمان والمكان، والله هو الذى خلق قانون البيئة فلا يجوز أن نتصورة خاضعا لقانون البيئة الذى خلقه».. فالله عند مصطفى محمود واحد يراه فى كل وقت وكل زمان.. ولا يحجبه عنه شىء.. حتى ولو كانت ذرات شك.

البعد عن الله كموضوع عبادة.. لا يمنع بعض المفكرين أن يجعلوا من الله السند والعون والغيث، فنجيب محفوظ الذى يراه بعض حوارييه صوفيا من نوع خاص، يجعل من الله فى كل رواياته سندا للضعفاء والمساكين والمحتاجين.. فعندما رمز لله فى روايته «أولاد حارتنا» بالجبلاوى. جعل منه مقصد المظلومين وفى صفحات روايته كثيرا ما تجد أحد أبناء الحارة الذين ضاعت حقوقهم يصرخ والألم يكاد يعتصر قلبه قائلا: يا جبلاوى.. هى صرخة تكررها جميعا حتى لو كنا بعيدين عن الله.. فهو القوة التى تحمينا.. واليد الحانية التى تربت على ظهورنا عندما نشعر بالظلم.. نطلب منه الرحمة حتى لو كنا عصاة ونرجو منه العون حتى لو كنا مغرورين ومتكبرين ونعتقد أننا أقوياء.

فهرس



الإسلام المصرى

على بـاب الله

من حقك أن ترفض هذا الكتاب ..تغضب منه .. تلعنه لكنى أنصحك أن تقرأه .. تمر بعينيك بين سطوره ففيه كثير منك ستجد نفسك واقفاً مع صفحاته على باب الله .. مثل كل المصريين .. الذين يرتبطون بعلاقة خاصة مع ربهم .. يذنبون ولا يخافون العقاب .. لأنهم يعرفون أن رحمة الله تسبق غضبه .

أنا معكم على موجة واحدة .. موجة الإسلام المصرى وقد تندهش وتقول هل هناك إسلام مصرى .. وآخر سعودى سأقول لك بالطبع ..فحتى الإسلام أعطاه المصريون من روحهم وخفة ظلهم ودلالهم على الله. إننا نضع ضعفنا وقلة حيلتنا بين يدي الله و نتعامل مع الرسول صلى الله عليه وسلم بطريقتنا ..نحبه أكثر مما يحبه أقرب الناس إليه ..نتوسل له ونطلب منه الشفاعة .. ولا يمنعنا ذلك كله أن نعيش حياتنا كما نريد ..

وهنا تحديداً تأتى عبقرية الإسلام المصرى الذى يتصالح مع الحياة ويتعامل معك كإنسان له مشاعر ولحظات ضعف ..وليس قالباً جامداً لا أهمية له .. لقد كتبت وأجري على الله إذا أراد وليس عليك إلا أن تقرأ وأجرك على الله إن شاء .



كنوز للنشر والتوزيع